
APPARTMENT OF FREEDOM

BY:

GHAZI ABDUL RAHMAN ALGOSAIBI

First Published in December 1994

2nd Edition Published in April 1994

3rd Edition Published in November 1995

4th Edition Published in September 1996

5th Edition Published in July 1999

Copyright © Riad El-Rayyes Books Ltd
LONDON - BEIRUT

British Library Cataloguing in Publication Data available

ISBN 1-85513-272-9

All rights reserved. No part of this publication
may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form
or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or
otherwise,
without prior permission in writing of the publishers

الغلاف: لوحة للفنان أدهم اسماعيل

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير ١٩٩٤

الطبعة الثانية: نيسان/أبريل ١٩٩٤

الطبعة الثالثة: تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٩٥

الطبعة الرابعة: أيلول/سبتمبر ١٩٩٦

الطبعة الخامسة: تموز/يوليو ١٩٩٩

- ما رأيك؟
- المعجزة؟
- لا تكن سخيّاً.
- المنديل الأحمر؟
- لا تكن أسخف.
- هي قصتك. سمّها ما شئت.
- سوف أسمّيها «الترعة».
- الترعة؟ ما علاقة الترعة بعقدة القصة؟ أليست العقدة هي العذرية؟
- ربّما.
- وما علاقة الترعة بهذا؟
- الترعة تظلّ، دائماً وأبداً، عذراء.
- رؤوف! هل أصبحت من السرياليين؟ ماذا تقصد؟
- الترعة في قرّتي هي هي منذ أيام كليوباترا. لم يتغيّر فيها شيء. لا تزال عذراء.
- آه! «عودة الروح»! فهمت.
- لم تفهم شيئاً.
- «الترعة العذراء». تصلح фильماً سينمائياً. أقترح هند رستم للبطولة وحسن الإمام للإخراج. ماذا عن زينب؟
- ماذا عنها؟
- هل هناك زينب حقيقية؟
- بكل تأكيد. ألم تقرأ رواية هيكّل؟ أعني الدكتور هيكّل؟
- أعرف من تعني. أسألك عن زينبك أنت، عن زوبة.
- كانت هناك فتاة اسمها زوبة.
- وأحببتها؟
- نعم.
- وتزوجت الحاج يونس؟
- نعم.

- ثم ماذا حدث؟

- عاشت بالنبات والنبات. وخلقت صبيان وبنات.

* * *

أحكم قاسم الخطّة. أعدّ لها بصبر ومهارة وذكاء. بحث عن الشقة المناسبة. استعان بنشأت، الذي استعان بعدد من معارفه. شقة في الزمالك. أخرى في المنيل. ثالثة في الدقي. رابعة في الجيزة. ولكن المواصفات لا تضبط. هذه الشقة صغيرة. تلك الشقة غالية. الباب هنا شرس جداً. هذه العمارة لا تسمح بسكن عزّاب. هذا الشارع كثير الضجيج. وأخيراً، «وجدتها!». قالها قاسم، وردّدها نشأت. في شارع الدري. في العجوزة. الدور الثالث. والعمارة من غير مصعد (مما يتلاءم مع نزعات الأستاذ شريف الرياضية). شقة رقم ٦. موقع مثالي. لا يبعد عن الجامعة سوى ثلث ساعة بالأتوبيس. رقم ٦ أيضاً. الشقة/الحلم. أربع غرف نوم واسعة. رحّمان. ومطبخ. ردهة كبيرة يمكن أن تتحول إلى صالون. وطرقه يمكن أن تصبح غرفة طعام. وغرفة صغيرة للشغال أو الشغالة. وهذا كله بثمانية عشر جنيهاً.

أعلن عبد الكريم أن الشقة مثالية. وقال يعقوب انه ليس بالامكان أبدع ممّا كان. وأبدى فؤاد استعداده للانتقال فوراً. لم يبق سوى فيتو الأستاذ شريف. وجاء دور الخطّة المرسومة. طلب قاسم أن يزور الأستاذ. ودهش الأستاذ فقد كان يرى قاسم مع شريف أكثر من مرّة كل أسبوع في شقة الست خيرية. لم يسبق لقاسم أن دخل شقة الأستاذ إلا مرة واحدة، عندما دعاه الأستاذ إلى الغداء مع فؤاد. وتعرّف وقتها على زوجة الأستاذ فاطمة، التي يسمّيها الأستاذ «بطة» رغم انها تجاوزت الأربعين. وعلى ابنه محمّد، الذي يسمّيه الأستاذ «ميمو» رغم انه في العاشرة. وعلى ابنه عارف، الذي يسمّيه الأستاذ «فوفو» رغم انه في الثامنة.

رحب الأستاذ بقاسم. وجاءت «بطة»، وسلّمت وذهبت. وجاء «ميمو» و«فوفو» وسلّما، وذهبا. وجاءت القهوة ولم تذهب. بدأ قاسم بحذر:

- يا أستاذ شريف! وجدت نفسي مضطراً إلى مقابلتك هنا لأنني لا أستطيع الحديث في الموضوع أمام فؤاد أو أمام الست خيرية.

- ليه يا ابني؟ خير ان شاء الله؟

- خير. أرجو أن يظّل ما أقوله سراً بيني وبينك. هل تعدني يا أستاذ؟

- طبعاً يا ابني طبعاً.
- هل تعطيني كلمة شرف؟
- طبعاً يا ابني. تفضّل!
- يا أستاذ أنا خايف على فؤاد.
- لماذا؟ هل هو مريض؟
- لا. لا.
- هل لديه مشكلة مع الدراسة؟
- لا.
- إذن ما سبب الخوف؟
- الست خيرية.
- الست خيرية؟! هل اختلفت مع فؤاد؟
- على العكس يا أستاذ على العكس.
- وضّح يا قاسم. أرجوك!
- منذ مدة بدأت علاقة مريبة بين الست وفؤاد.
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. علاقة مريبة؟! نعم.
- كيف؟
- يا أستاذ شريف، أعفني رجاء من التفاصيل. يكفي أن أقول لك انها تدخل غرفة فؤاد في العاشرة مساءً، أماننا جميعاً، ولا تغادرها إلا في الصباح، أماننا جميعاً.
- لا حول ولا قوّة إلا بالله. الست خيرية؟! انها في سن أمه. كيف اصطاداته؟
- هنا السرّ الفظيع يا أستاذ شريف. رأيت رجلاً غريباً قبل فترة في غرفة فؤاد يردّد عبارات غير مفهومة ويطلق البخور وعندما سألت الست ارتبكت وتلعثمت.
- آه! عملت له عمل. هذا يفسّر كل شيء.
- فؤاد الآن ضائع مشّت الأفكار. لا يستطيع الأكل ولا النوم ولا

المذاكرة. أخشى عليه الجنون إذا بقينا في الشقة. لا بد أن نغادرها يا أستاذ شريف.

- صحيح. من الضروري الانتقال. سوف أبحث فوراً عن شقة أخرى وسيدة محترمة.

- لا يا أستاذ. لا تتعب نفسك. لقد وجدت الشقة المناسبة. وسوف نسكنها نحن الأربعة: فؤاد وعبدالكريم ويعقوب وأنا. أعدك يا أستاذ أننا سوف نراقب فؤاد بكل دقة.

- كنت أخشى عليكم نتائج السكن في شقة ولهذا اخترت الست خيرية. وانظر الى ما حدث. يا قاسم! هناك شيء واحد يقلقني.

- نعم يا أستاذ؟

- هل الست خيرية حامل؟ هل اتهمت فؤاد بشيء؟

- لا. لا أظن انها حامل، ولم تتهم فؤاد بشيء.

- الحمد لله.

- ألا تريد أن تذهب معي لرؤية الشقة يا أستاذ؟ عم زكريا البواب في انتظارنا.

عندما أعلن قاسم للمجموعة أن الأستاذ شريف وافق على الانتقال الى الشقة الجديدة، لم يصدقه أحد، حتى رأوا المفتاح في يده. سأله فؤاد:

- ولكن كيف استطعت إقناع الأستاذ؟

- سحر، يا فؤاد، سحر!

- ماذا تقصد؟

- أقصد عمل، يا فؤاد، عمل!

في صبيحة ١٠ مارس ١٩٥٨ انتقل الفرسان الأربعة الى الشقة رقم ٦، في الدور الثالث من العمارة التي تقع في منتصف شارع الدري. كان أول قرار ينتظرهم هو اسم الشقة. وتعددت المقترحات:

- الرفاع.

- الحد.

- العروبة.

قال قاسم بمرارة:

- كل شيء هنا الآن اسمه «نصر». سمّوها «شقة نصر»، وارتاحوا.
أوشك الباقون أن يوافقوا نكايه في قاسم، إلا أن يعقوب اعترض:
- لا! الحرية! جئنا هنا لممارسة حريتنا. سوف نسمّيها «شقة الحرية».
ووفق على الإسم بالاجماع.

كانت المهمة التالية هي وضع دستور ينظّم الحياة في الشقة، وكُلّف
فؤاد ونشأت بصياغته. وجاءت المادة الأولى:

«شقة الحرية جزء لا يتجزأ من الأمة العربية، يسكنها، بصفة أصلية،
كل من عبد الكريم الشيخ، ويعقوب الحدي، وقاسم صدفني، وفؤاد
الطارف، وبصفة فرعية، كل من عبد الرؤوف بحيري، ونشأت محرم،
وهي شقة ذات سيادة واستقلال، تقوم على مبادئ المساواة والعدل
والديموقراطية، وتتخذ القرارات بالأغلبية، ويجوز لأي عضو طرح أي
موضوع للنقاش، باستثناء الحركة السياسية في البحرين...»

يتوقف نشأت عن الكتابة، ويسأل فؤاد:

- ولكن لماذا الاستثناء؟

- هذا موضوع شائك يا نشأت. كل مرة نناقش فيها هذا الموضوع
نختلف ونصرخ. ومرة أو مرتين كدنا نتضارب بالأيدي.

- ولكن لماذا؟

- لأن قاسم يرى أن هذه الحركة كانت مؤامرة شيوعية. ويعقوب يرى
انها كانت أعظم حركة ثورية في التاريخ. وعبدالكريم يعتقد انها مؤامرة
انجليزية. وأنا لا أدري.

اكتمل الدستور في سبعين مادة. تنظّم الميزانية، وأسلوب الصرف،
واختصاصات العضو الذي يتولى إدارة الشقة بالتناوب، وصلاحيات
الشغل (أو الشغالة)، والوقت المسموح بقضائه في الحمام (وضعت هذه
المادة حماية للآخرين من نزعة عبد الكريم الى قضاء الساعات الطوال
هناك)، وقواعد استقبال الضيوف والضيافات. وأصرّ فؤاد على أن يشمل
الدستور المادة التالية:

«لا يجوز، إطلاقاً، استقبال أي ضيفة خلال شهر الامتحان سواء في
الترم الأول أو الثاني».

واقترح نشأت أن تضاف عبارة: «ما لم تكن الضيفة والدّة أحد

السكان أو جدّته». ووفق على المبدأ، والاستثناء. ونصت المادة الأخيرة على أنه لا يجوز تعديل أي حكم من أحكام الدستور إلا بإجماع الأعضاء، الأصليين والتبعين.

۵

مایدو ۱۹۵۸

أيا خدُّ الله وَّزد الخدود! وقد قدود الحسان القدودا
المتنبي

شفقة
الحرية

بعد أقل من شهرين من الانتقال استكملت شقة الحرية تجهيزاتها. تولى الأستاذ شريف، بنفسه، كل شيء. تبين انه يعرف نجاراً ممتازاً، وصاحب معرض للموبيليا، وسباكاً، وكهربائياً. أصّر قاسم على سخّانة كهربائية في كل حمام، بعد أن عانى الأمرين في شقة الست خيرية من الماء الذي لا يُسخّن إلا عند الضرورة. وأصّر على شراء ثلاجة حقيقية، بعد أن قاسى من الثلاجة البدائية في شقة الست، الثلاجة التي تعمل عن طريق وضع قالب من الثلج في جزئها الأعلى يبرّد نصفها الأسفل. وتولى قاسم تحمّل النفقات الإضافية. لم تأت الشقة، في النهاية، على ما كان يتمناه قاسم من فخامة ولكنها جاءت على مستوى يفوق المستوى المعتاد لشقة يسكنها طلبة عزّاب.

ما ان استقرّ الفرسان الأربعة في شقة الحرية حتى أصّر قاسم على ممارسة الحرية بترتيب سهرة مع بنّيات. سرعان ما اتضح له أن المسألة أصعب مما كان يتوقع. في البداية، رفض جميع زملائه حضور السهرة. قال عبد الكريم ان حبه الطاهر لفريدة يحول بينه وبين الجلوس مع غانيات. وذكر يعقوب انه لا يستطيع العودة الى الجنس إلا بعد أن يفهمه فهماً علمياً تاماً باستكمال قراءة كتب فرويد. أمّا فؤاد فقد قال انه يرفض، من حيث المبدأ، التعامل مع محترفات. بعد جهد جهيد، أقنعهم قاسم بالبقاء معه، من باب الاحتفال بالحرية لا أكثر ولا أقل. وأضاف انه لا يوجد ما يدعو أحداً منهم الى عمل أي شيء. وقال انّ البنّيات قادمات من أجل البيزات التي سيتكفل قاسم بدفعها، وانه لا يهمهن أن يحدث شيء أو لا يحدث.

بعد اقناع زملائه، شرع قاسم يخطّط للتفاصيل. وهنا، كانت في انتظاره مفاجأة غير سارة. أرقام التيلفونات التي جمعها عبر الشهور لا تردّ،

أو مقطوعة. عندما ردّ تليفون واحد سمع من الجانب الآخر صوت رجل يشتمه ويهدّده إن عاد إلى طلب الرقم. ماذا حدث؟ اتّضح لقاسم بعد الاستفسار ان مطاردة بوليس الآداب للمدامات تقتضي تغيير الأرقام بين الحين والحين. جمع قاسم من السواح البحرنيين مجموعة جديدة من الأرقام جرّبها واحداً بعد الآخر، حتى لقي التجاوب المنشود من مدام لولا. بعد أن تأكّدت من جدّيته، ومن انه حصل على الرقم من زبون تعرفه، اطمأنت المدام وبدأت المفاوضات.

في البداية، كان التفاوض على العدد. قالت انها لا تستطيع أن ترسل سوى ثلاث فتيات. وأصرّ فؤاد على أربع. ثم جاء دور السعر. طلبت المدام خمسة جنيهاً عن كل واحدة، وعرض قاسم جنيهين، ثم تمّ الاتفاق على ثلاثة جنيهاً. ثم جاءت مشكلة دخول العمارة والخروج منها. شرح لها قاسم انه متفاهم مع البواب وانه لا توجد أي مشكلة. إلا أن المدام أصرت على أن يحضر قاسم إلى شقتها بنفسه ويصطحب البنات ثم يعيدهن بنفسه. ووافق قاسم، وتطوّع يعقوب بمرافقته. وتحدّد الموعد: السابعة من مساء الخميس، على أن يرجعهن قاسم قبل الحادية عشرة.

أعلنت حالة الطوارئ في شقة الحرية ابتداء من صباح الخميس. تولّى قاسم، بنفسه، كل الترتيبات. منح الأسطى زكي، الطباخ، إجازة استثنائية تبدأ بعد الانتهاء من وجبة الغداء وتستغرق يوماً كاملاً. اتفق مع «الحاتي» على أن يرسل وجبة عشاء تصل في الثامنة. ملأ السلاجة بزجاجات «ستلا»، وبالمرّات: جبة بيضاء، وزيتون، وخيار، وجزر. كان في حالة يرثى لها من التوتر النسبي وكأنه يحضر لإعدام جماعي لا للحفلة التي كان يحلم بها منذ أن وصل القاهرة.

تمّ كل شيء بسلام. ذهب مع يعقوب إلى شقة المدام في الزمالك، وعادا بالبنات. غصّ البواب، العم زكريا، الطرف عن الزائرات. ومن محاسن الصدق أن أحداً من الساكنين لم يكن موجوداً في المدخل أو على السلم. عندما استقر الجميع على مقاعدهم في الصالون الذي كان ردهة، وتمّ توزيع أقذاح البيرة، أحسّ قاسم ان الخطة التي تطلبت كل هذا الجهد تكللت، أخيراً، بالنجاح.

لا يعرف قاسم الأسماء الحقيقية للفتيات، فكلّ ما سمعه هو الأسماء «الفنية»، أو «الحركية» باللغة الحزبية، زيزي وشوشو وريدي. جميعهن صغيرات، في سن تقارب سن الزبائن. من المشكوك فيه أن أيّ

واحدة منهم تجاوزت العشرين. زيزي، التي قرّر قاسم انها من نصيبه، كانت أجملهن: بيضاء، ممتلئة، لا تكاد تضع شيئاً من المساحيق. شوشو، التي بدأت على الفور حواراً صاخباً مع يعقوب، يمكن أن تنال درجة «جيد» بمعايير الجامعة. ريري، بدورها، تستحق درجة «جيد» رغم السمرة الشديدة التي تغطي ملامحها. أنا ديدي فتكاد تنافس زيزي لولا شعرها الأصفر الفاقع المصبوغ بطريقة بدائية. جلست ريري بقرب عبد الكريم، يتبادلان النظرات بصمت وحذر. وجلس فؤاد بقرب ديدي يسألها عن آخر الأفلام التي شاهدتها.

فؤاد يشرب البيرة لأول مرة في حياته، على خلاف الباقين الذين عرفوا البيرة منذ أيام الدراسة الثانوية في البحرين. كان الحصول على البيرة مغامرة خطيرة، وشربها مغامرة أخطر. عقوبة السكر في البحرين ستة أشهر في السجن. ولعل حب المغامرة، لا حب الكحول، هو الذي دفعهم إلى ركوب المخاطر. كان من المتفق عليه في المدرسة الثانوية أن الرجولة لا تبدأ إلا بالتدخين. فإذا أضيفت البيرة إلى السجائر تحقق نصف الرجولة، ولم يبق سوى النصف الآخر: النساء. كان يعقوب الوحيد بينهم الذي عرف النساء، في «جرندول» في البحرين، عدة مرّات، وفي أكثر من بيت من البيوت السريّة في القاهرة، عدة مرّات. لم ترق فكرة البيرة لفؤاد، لا في البحرين ولا في القاهرة. تلقّى الكثير من سخريّة رفاقه، وظل صامداً. حتى عبد الكريم، رغم نشأته الدينية الصارمة، شرب البيرة في البحرين مع الآخرين. ولا يعرف إلاّ الله ماذا كان سيحدث لو اكتشف الشيخ أن ابنه الذي كان يزعم انه ذاهب إلى «دروس خصوصية» كان يذهب لشرب البيرة. يقرّر فؤاد أن الاحتفال بشقّة الحرية يبرّر شرب كأس البيرة الأولى. ويُفاجأ بالطعم المرّ. كان يتصوّر البيرة شراباً حلواً كالبيسي، أو محايداً كالماء. ويمجّ الرشفة التي تتناثر على ثيابه ويضحك أصدقاؤه. ويشرحون له أن البيرة لا تُشرب لطعمها وإنما لمفعولها، وأن المفعول يبدأ مع الكأس الثانية، وحين يظهر المفعول يختفي الطعم.

تمتلىء منافض السجائر وتفرغ. تختفي زجاجات «الستلا» بسرعة مذهلة. وتعلو الضحكات. ويجد فؤاد نفسه منطلقاً على نحو لم يعهده في نفسه من قبله. يردّد كلمات بذئية، لم يكن يردّها من قبل. ويروي نكات خارجة، لم يكن يعرف انه يحفظها. يغني يعقوب بصوته الجميل أغنية من أغاني عبدالحليم حافظ الذي يجيد تقليده: «على قد الشوق اللي

في عيوني يا جميل سلّم». وتغنّي الفتيات. ويجيء العشاء. وتحلو الحفلة. ويهمس قاسم أن الساعة تدنو من التاسعة وأنه من المستحسن عدم إضاعة الوقت.

* * *

يزيزي مع قاسم في غرفته، أكثر غرف الشقة أناقة. على الجدران صور لا يجمع بينها شيء. صورة والد قاسم، وصورة والدته، وصورة عمّه. صورة بالألوان لألفيس برسلي. صورة أخرى، بالألوان، لبريجيت باردو. صورة لآيزنهاور منزوعة من غلاف «التايم». تتأمل زيزي الصور. وتقف مذهولة أمام صورة آيزنهاور:

- مين ده؟

ولا يستطيع قاسم أن يغالب الضحك.

- مالك؟ بتضحك ليه؟ حيكون مين يعني؟

- آيزنهاور.

- آه. بتاع أمريكا؟

- بتاع أمريكا.

- وحاطط صورته في أوضتك ليه؟

- أصلي معجب بيه.

- معجب بالعجوز ده؟!

- مُعجب بيه من الناحية السياسية.

- ودّه وش يتحب ده؟!

- أنا ما أحبش وشّه يا زيزي.

- أمال بتحب فيه إيه؟

- سياسته.

- ياه! احنا مالنا ومال السياسة؟ عاوز تودّينا في داهية.

- ليه بس؟

- اللي مالناش صنعة فيه مالناش دعوة بيه.

- طيب. بلاش سياسة.

- أيوه. أحسن. بلا همّ ووجع قلب. احنا ناقصين؟

- ليه؟ خير؟

- خير! دُنيا! انت مُش حا تقلع؟

بحركة سريعة يتصوّر قاسم انها لم تستغرق سوى ثانية، تخلصت زيزي من جميع ملابسها، وجلست على الفراش، كما ولدتها أمها، تنظر اليه باستغراب. يحمّر وجهه، ولا يتكلم.

- انت مش حا تقلع؟!

يشعر قاسم ببرودة كبرودة القبر تتسرّب الى أطرافه وتجمّدها، وتقتل كل نوازع الشهوة في دمائه.

وتستمر زيزي:

- ايه؟ مالك؟ مش حا تقلع وتيجي السرير؟

يتجمد قاسم في مكانه.

- ايه؟ مش عاجباك؟

- لا. لا. بس أنا أصلي...

- أصلك ايه؟

لم يكن قاسم يتصوّر أن الأمور سوف تتطوّر على هذا النحو. كان يتوقّع أن يسود الغرفة الظلام، وأن تبدأ الحكاية بهمسات رقيقة وقبلات ناعمة. أمّا أن تبدأ المسألة في النور الساطع بواحدة تتوقع منه أن يتخلّص من ثيابه، مثلها في لحظة، ثم يقفز عليها كالحيوان، فهذا خازوق كبير. يحاول قاسم أن ينقذ ما يمكن إنقاذه:

- ممكن أطفئ النور؟

- ليه بقى؟ مش عاجبين؟

- لا. بس أنا...

- آه! مكسوف؟! ما تقول كده من الصبح. كلّه إلّا مكسوف. وعامل

لي راجل؟!

يشعر قاسم، فجأة، بغضب جامح. ما الذي يدفعه الى تحمل كلّ هذه الالهانات؟ لماذا يسمح لها بإذلاله؟ ألم تجيء من أجل البيزات؟ ألم تحصل على البيزات؟

الإهداء

الى ابراهيم خليل المؤيد

لك يا منازلُ في القلوبِ منازلُ أقفرتِ أنتِ وهن منك أواهلُ
المتنبّي

لم تعد الدراسة همّ فؤاد الأكبر، رغم انها ظلت تقطع الجزء الأكبر من وقته. أخذ تفكيره ينصب على موضوعين، أحدهما يتعلق بقلبه، سعاد، والآخر يتعلق برأسه، البعث. كانت علاقته بسعاد تتدهور يوماً بعد يوم بطريقة غير مرئية. على السطح، لم تكن هناك أية مشاكل. كان في نظر الجميع «صاحب سعاد»، وكانت سعاد «صديقة فؤاد». إلا أن شيئاً ما راح يتسلل الى أعماق الصلة، في القاع البعيد، وينخر فيه. في البداية، لم تكن لهذا الشيء أعراض خارجية. ثم جاءت الأعراض، مترددة وعلى استحياء. يمر يومان وثلاثة ولا يلتقيان، ولا يعتب أحدهما على الآخر. يجيء الموعد الأسبوعي فيجد أحدهما، أو كليهما، مشغولاً بما هو أهم. وحتى عند اللقاء، عندما يتاح لهما الفرار عن العيون، لم تعد للقبلة حرارتها، ولا للضمة نشوتها.

وكانت علاقته بالحزب تمر بمأزق بعد مأزق. لا يزال فؤاد يؤمن بمبادئ الحزب النظرية، إلا أن واقع الممارسة الحزبية يسبب له الكثير من القلق. بعد النشوة الفكرية الأولى، تحولت الاجتماعات الأسبوعية الى عبء ثقيل، ولم يعد يطرح فيها إلا ما هو مكرور ومعاد. والنشاطات الحزبية تقتصر على الهتافات التي تُردّد في المناسبات. التعليمات الحزبية التي تتوالى وترسم لكل عضو طريقة التفكير في كل حدث، تدوس على أفكاره بلا هوادة. اضطراره الى التعامل مع كل «رفيق» بعثي كما لو كان صديقاً عزيزاً يشكل ضغطاً متزايداً على أعصابه. هل ستضيع حرته الشخصية «في سبيل البعث»؟

جاء لقائه بالأستاذ ميشيل عفلق صدمة كبرى. ظلت سعاد تحدّثه، يوماً بعد يوم، عن هذا اللقاء وتتطلع اليه بلهفة كالجنون. وجاء اليوم المشهود. وذهب مع سعاد الى الفندق الفخم القابع على النيل، حيث يقيم الأستاذ. كان الأستاذ في ركن من الصالون تحيط به باقة من المعجيين والمعجبات. الأستاذ قصير القامة، عادي الملامح، ليس فيه ما يغري بتذكره. كان يدخن بلا انقطاع. وتوالى الأسئلة. والأستاذ يتكلم ببطء شديد، ويردّ على كل سؤال بكلمتين أو ثلاث، ويحظى كل ردّ بتأوهات شبيهة بأنين العشاق. سعاد، بقربه، تلتهم الأستاذ بعينها ثم تقول:

.. الرفيق فؤاد يكتب القصة القصيرة يا أستاذ. كما كنت أنت تفعل. نظر اليها الأستاذ، الذي يبدو انه يعرفها جيداً، وابتسم. وحسدها الحاضرون والحاضرات. ونظر الى فؤاد، ولم يتنسم، ثم قال:

حيث يقودني قدر هذه الأمة التي لا أشك انك ستظل تؤمن معي بعظمتها
وابداعها الخلاق. «سعاد»

* * *

«يرتجف زغلول على البلاط البارد. يللم حوله أطرافه في محاولة
يائسة للبحث عن الدفء. وخطى الأمباشي محروس الثقيلة تروح وتجيء
في الممر. وزغلول يتوجّه بدعاء صامت الى الله ألا يقف الحذاء أمام
زنزانتة. وقوفه لا يعني سوى شيء واحد: جردل جديد من الماء المثلج
يُسكب على البلاط. قبيل الفجر بلحظات، يغمض عينيه، ثم يفيق فيصلي
ويدعو. وتجيء قطعة الخبز الصغيرة المحروقة وكوب الشاي الفاتر. الأمباشي
محروس يكشف عن أنيابه:

- نمت كويس يا مولانا؟!

يساق زغلول الى غرفة التحقيق، ويبدأ «حضرة الضابط»:

- اعترف أحسن لك!

- أعترف بإيه بس؟

- انك عضو في التنظيم.

- تنظيم إيه بس يا حضرة الضابط؟

- التنظيم الارهابي.

- ارهاب إيه يا حضرة الضابط؟ ده أنا راجل غلبان وفي حالي. من
الجامع للبيت، ومن البيت للجامع. حتّى أسأل أهل البلد.

- سألناهم. واعترفوا.

- اعترفوا بإيه بس يا أفندم؟

- بالأسلحة اللي تخزنوها في بيوتكم، يا ولاد الكلب!

- الله يسامحك يا أفندم؟

- الله يخرب بيتك! تعترف والآن نجيب الكهربائي؟

- أعترف بإيه بس يا أفندم؟

ينقطع التحقيق. ويقوده محروس الى الزنزانة. وقبل أن يدخل يلتفت
زغلول الى الأمباشي ويسأله:

- والنبي يا أمباشي محروس ممكن شوية مية أتوضي بيها؟

- ما كانشي يتعز.
- وحا صلّي إزاي من غير وضوء؟
- ما انت صلّيت كفاية يا مولانا. مش كنت إمام الجامع؟!
- الله يهديك يا أمباشي محروس.
- الله يخرب بيتك!
- ثم تجيء فترة التحقيق المسائية. ويبدأ «حضرة الضابط»:
- حا تعترف والا مش حا تعترف يا زغلول؟
- أعترف بإيه بس يا أفندم؟
- اسمع يا زغلول! ما تضيعش وقتي.
- يا أفندم والله ما عملتش حاجة.
- طيّب! محروس! روح جيب الكهربائي.
- صبرك بس يا أفندم.
- حا تعترف يعني؟
- الكهربائي لزومه ايه يا أفندم؟
- شوية صدمات تنشط مخك. وإذا ما نفعتش نجيب الكلاب.
- أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.
- هو فيه شياطين غيركم - يا أولاد الكلب!
- يا أفندم ما لوش لزوم كهربا وكلاب.
- حا تعترف يعني؟
- أعترف.
- ترتسم على وجه «حضرة الضابط» ابتسامة كبيرة:
- محروس! انده وكيل النيابة.

* * *

ينظر فؤاد الى عبد الرؤوف ضاحكاً:

- كرمي الاعتراف! تأليف واخراج وبطولة الأستاذ يوسف بيه وهبي. يا
لللهول! ما هذه المبالغة؟

- ليس هناك مبالغة.
- كلاب وكهرباء ومساجين يُنْعَمون من الصلاة؟! أين يحدث هذا؟
- هنا.
- أين؟
- في القاشرة. في السجن الحربي. على مرمى حجر.
- أنت تمزح.
- هل هذا موضوع يصلح للمزح؟
- حسناً. يمكن أن أقبله كمبالغة فنية.
- لا! هذه ليست قصة يا فؤاد. هذه حادثة حقيقية.
- تعني ان هناك شخصاً اسمه زغلول؟
- نعم.
- وانه عومل هذه المعاملة في السجن الحربي؟
- نعم.
- لماذا؟
- لأنهم كانوا يفتشون عن أسلحة ما يسمونه التنظيم الارهابي وعثروا في بيته على كتيبات من تأليف الشيخ حسن البنا.
- من هم هؤلاء؟
- البوليس. الجيش. المخابرات.
- هل كان هذا جرمه الوحيد؟ كتيبات حسن البنا؟
- نعم.
- هل كان عضواً في التنظيم الارهابي؟
- لم يكن عضواً حتى في الجماعة نفسها. كان يجمع الكتب الدينية ويقرأها، ووقعت هذه الكتيبات في يده.
- ثم اعترف؟
- نعم.
- وماذا كانت العقوبة؟
- ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة.

- وكيف عرفت أنت كل هذه التفاصيل؟

- من زغلول. شقيقي الأكبر.

* * *

يستكثر عبد الكريم على نفسه كل هذه السعادة. لا يصدق أن القدر خبئاً له كل هذا السرور. لا بد أن هناك شيئاً فاجعاً على وشك الحدوث. فريدة تحبه. هل هذا معقول؟ أم انه مجنون وبدأ يتخيل ما لا يوجد؟ الدلائل كلها تشير الى انه يعيش حقيقة، وان كانت أروع من الحلم. أواه! ماذا لو كانت حلماً طال حتى اختلط بالحقيقة؟ وماذا سيحدث له لو أفاق؟ وهل يحلم وحده الآن، أم ان فريدة تحلم معه؟ هل هو جزء من حلمها؟ أم انها جزء من حلمه؟ أم انهما حلم واحد؟ وكيف أصبح، بغتة، أوسم البشر؟ كيف تطايرت كل مخاوفه وعقده ذرات هباء؟ كيف أصبح يشعر بثقة في النفس لم يعرفها في نفسه من قبل؟ معجزة الحب؟!

بعد ذلك اللقاء التاريخي الأول في البوفيه، تكررت اللقاءات، داخل الكلية وخارجها. كان موعدهما الحقيقي الأول رحلة الى القناطر الخيرية. الكلية هي التي نظمت الرحلة واشترك فيها عشرات الطلبة والطالبات، إلا أن عبد الكريم اعتبرها رحلتها وحدهما. ارتسمت تفاصيل اليوم في ذاكرته بحروف من عطر. التجمع في روض الفرج. المركب الكبير الذي استوعب الحملة الطلابية. الرحلة عبر النيل. الميكروفون الذي لم يتوقف عن العمل: وصلة بعد وصلة، من الفكاهة الى الغناء الى الخطابة. والقناطر الخيرية التي يراها لأول مرة بعد أن قرأ عنها الكثير في كتب المطالعة أيام الدراسة الابتدائية. «رحلة الى القناطر الخيرية». الحقائق تمتد في كل اتجاه كأذرع خضراء تنبت من أخطبوط أخضر جميل. في كل مكان ضجة وغناء وضحك. انقسمت الحملة الى مجموعات صغيرة. ذهب وحده مع فريدة، بعيداً عن الآخرين والأخريات. تحدّثا. وضحكا. ومرّ الزمن كأنه يسابق جواداً أسطورياً فاز بكلّ الجوائز في كل الميادين. وعادت الحملة الى المركب. وواصل الميكروفون عمله. وتوالى الأغنيات من مطربي الكلية الهواة ومطربات الهاويات. وأحسّ عبد الكريم انه ينتقل على بساط الريح الى دنيا الأساطير. فريدة بقربه، ونسمات النيل تعبث بشعرها كصبي مشاغب، والغروب يتلصص من بعيد في جلاباب بنفسجي. «أول مرة تحب يا قلبي وأول يوم أتينا». تنتقل الأغنية من الميكروفون الى أوتار قلبه مباشرة.

وفريدة بقربه، تردّد هامسة كلمات الأغنية. ويرسو المركب. وينتهي النهار/الحلم.

تتطاير الأيام كالبخار قبل أن يتمكن من ملاستها. وفي كل يوم تبدو فريدة أجمل، وأشهى، وأقرب. كان الجزء الأروع من كل أسبوع هو اللقاء في دار من دور السينما، لحضور عرض العصر، «الماتينية». في الصالة الواسعة المبرّدة تلتقي يداهما، في غفلة من العالم، لقاء الليل بالنهار والعطش بالرّي. وعندما يصدف أن يكونا في المقاعد الخلفية بلا جيران أو جارات يقترب منها قليلاً، وتستدير بوجهها في حركة بطيئة عفوية، وينظر الواحد منهما في عين الآخر، رغم الظلام. ثم يدنو أكثر. وتلمس شفتها شفتيه، لمحة، كرفيف أجنحة الفراش. ويأتي إحساس قادم من مكان غير هذا العالم. من الفضاء الخارجي، ربّما. أو ربّما من مكان أقرب قليلاً، من دنيا النجوم. أو أقرب، من شواطئ الغيوم. شفتها وردتان طريتان مرشوشتان بالسكر الناعم. وعندما يعود يظل عطرها على فمه، وعلى يديه، وفي روحه. يستنشق عطرها، ويستنشق الفردوس المسحور. وينام. ويحلم بها.

متى طرأت فكرة الزواج؟ هل نشأت في ذهنه وانتقلت الى ذهنها؟ أم العكس؟ أم وُلدت في الذهنين معاً؟ بعد الموعد الخامس، أو لعله العاشر، أخذتا يتحدثان عن المستقبل. وكان الحديث، في البداية، عامّاً ومبهماً:

- حا تشتغل إيه يا كريم بعد ما تتخرّج؟
- لسه مش عارف. يمكن أكمل دراسة.
- هنا في الكلية؟
- يمكن.
- ما تفتح مكتب محاماة؟
- فكرت. مفيش محامين في البحرين.
- هنا المحامين أكثر من الهم على القلب. آلافات! ملايين!
- وانتي حا تعملي ايه بعد الليسانس؟
- مش عارفه.
- ثم اتجه الحوار وجهة جديدة:
- البحرين حلوة يا كريم؟

كان الكاتب في القاهرة في الفترة التي تتحدث عنها الرواية. ومع ذلك فجميع أبطال هذه الرواية وجميع أحداثها من نسج الخيال. والوقائع المنسوبة الى أشخاص حقيقيين هي، بدورها، من صنع الخيال. وأي محاولة للبحث عن الواقع في الخيال ستكون مضيعة لوقت القارئ الكريم.

- حلوة في عيني.
- ياما نفسي أشوفها.
- حا تشوفها.
- تفتكر ممكن؟
- ومش ممكن ليه؟
- وعد؟
- وعد ونص!
- ثم تحوّل الحوار تخطيطاً لمستقبل مشترك:
- خلاص يا فريدة. قررت فتح مكتب في البحرين بعد التخرج. وقررت
- انك حا تشتغلي معايا.
- موظفة؟
- لا. شريكة.
- شريكة؟!
- شريكة حياتي!
- كده مرة واحدة؟
- عندك مانع؟
- مانع من ايه؟
- تكوني شريكة حياتي؟
- انت بتتكلم جدّ ولا بتهزّر؟
- جدّ، والله!
- طب سيبني أفكر.
- لا! من غير تفكير.
- موافقة.
- جد؟ جد؟ والله؟ والله؟
- جد! جد! والله! والله!
- عندما أخبر عبد الكريم الشيلة انه تفاهم مع فريدة، مبدئياً، على الزواج
- جوبه بصمت قاتل سرعان ما تحوّل الى اعتراض صاخب. كان يتوقع أن

يشاركه أصدقائه فرح الأفراح هذا ولكن رد فعلهم جاء كاللطمه على وجهه.

بدأ قاسم:

- هل يُجننت يا كريم؟ هل فقدت صوابك؟ لا زلت طالباً في السنة الثانية وتفكر في الزواج؟ كيف ستعيش مع زوجتك؟ من سيصرف عليك وعليها؟

وأضاف يعقوب:

- الزواج يحتاج الى نضج نفسي وعقلي. وأنت يا كريم، مع احترامي الشديد، لا زلت مراهقاً، لم تبلغ العشرين. أمامك عشر سنوات على الأقل حتى تصبح مُستعداً للزواج.

ويتدخل فؤاد:

- وماذا عن المذهب؟ كيف تتزوج سنيّة؟ هل توافق هي على أن تتزوج شيعياً؟ هل سيوافق أبوك على الفكرة؟

لم يعبأ عبد الكريم باعتراض قاسم، فالمصارييف التي تكفي واحداً تكفي اثنين. ولم يأبه بسخافات يعقوب الفرويدية عن المراهقة والنضج. ولكن السؤال الذي أثاره فؤاد يتغلغل في خصره كالخنجر. سبق له أن بحث مع فريدة قضية المذهب، وقرراً أن اختلاف المذهب لن يكون عقبة تعترض الزواج. ولكن النقطة التي أشار إليها فؤاد تدق ناقوس الخطر. أبوه! الشيخ! هل سيوافق شيخ مشايخ شيعة البحرين على زواج ابنه بسنيّة، ومن مصر؟!

* * *

أقنع قاسم نفسه أن ما حدث خلال السهرة الأولى، أو على الأصح ما لم يحدث، كان نتيجة تصرفات زيزي الحمقاء، وأن التجربة الثانية سوف تكون أفضل. وجاءت التجربة الثانية مع بنتٍ أرسلتها مدام أخرى. جاءت البنية، مُنى، وتكرّر ما حدث في المرة الأولى. ذهباً الى غرفته، واختفت ملابسها، وطلبت منه أن يتحرك، ولم يستطع. وجاءت التجربة الثالثة. قالت له المدام الثالثة ان نادية أجمل فتياتها وألطفهن معشراً وأصرت على خمس جنيهاً، ووافق. وتبين أن نادية رائعة الجمال، بالفعل، ولم تكن في عجلة من أمرها. كانت هناك كل المقدمات التي يعتقد انها ضرورية ومع ذلك لم يستطع، في النهاية، عمل شيء.

- حمل همومه الى نشأت:
- تعقّدت يا نشأت. أظنّ أنني مريض. أظن أنني بحاجة الى مراجعة طبيب.
- ماذا حدث؟
- ثلاث مرّات يا نشأت. مع ثلاث بنّيات مختلفات. ولم أستطع عمل شيء. لقد بدأت أشك في نفسي. لا بُدّ أنني مصاب بالعجز الجنسي.
- أين وجدت البنات؟
- من عند مدام.
- بفلوس يعني؟
- لا! ببلاش! طبعاً بفلوس.
- مالك ومال المحترفات يا قاسم؟
- ومن أين آتي بغير المحترفات؟
- الدنيا مليانة بنات.
- فين؟
- في كل شبر.
- وكيف أتعرف عليهن؟
- الجرأة. قليل من الجرأة. أنت شاب وسيم جداً، وغني جداً، ولا ينقصك سوى الجرأة.
- الله يجبر بخاطرك.
- القليل من الجرأة فقط.
- ماذا لو غضبت البنت؟ لو شتمتني؟ أو صفعتني؟
- لن تشتمك ولن تصفحك.
- والمطلوب الجرأة؟! السهل الممتنع!
- يحاول قاسم أن ينسى مشكلته الجنسية بالانهماك في الدراسة إلاّ أنها تلح عليه، أكثر فأكثر. ماذا لو كان، بالفعل، مصاباً بالعجز الجنسي؟ هل يذهب الى طبيب؟ هل يستطيع الطبيب حل المشكلة؟ ألن يقول له انها حالة نفسية؟ هل ينتهي به الحال مع طبيب نفسي؟ أو في مستشفى

الأمراض العقلية؟ في العباسية؟! السراية الصفراء؟! هل هذا معقول؟! مجرد انه لم يستطع النوم مع بنته محترفة ينتهي في مستشفى المجانين؟!
 بحث الأمر مع يعقوب الذي ردّ عليه كما لو كان أخصائياً نفسياً
 تخرّج على يد الدكتور فرويد شخصياً:
 - هل تريد، حقاً، أن تعرف السبب؟
 - طبعاً.

- أنت تفشل لأنك، في عقلك الباطن، تعتقد أنك على وشك ممارسة الجنس مع أمك.
 - يعقوب! ما هذه البذاءة؟

- طوّل بالك، ودعني أشرح. لقد تربّينا في مجتمع البحرين المحافظ. وعلمونا، من اللحظة الأولى، أن الجنس ذنب وإثم وخطيئة. والطفل، كما أثبت فرويد علمياً، يشعر باللذة الجنسية الأولى من ملامسة أمه، ومن مصّ ثديها بصفة خاصة. ثم يكبر. وتختلط المشاعر في عقله الباطن. شعوره باللذة الجنسية التي أحسّ بها وهو يرضع ثدي أمه، وشعوره بالخطيئة. تصبح كل عملية جنسية وكأنها زنا بالأم. ومن هنا يجيء العجز.
 - لم أسمع في حياتي كلّها بسخافة أتفه من هذه السخافة. هل هناك طفل يحسّ بلذة جنسية وهو يرضع؟!

- كل الأطفال. ولكنهم ينسون عندما يكبرون. يدفنون التجربة في العقل الباطن.

- هل هذه الغرائب من أفكار فرويد؟

- هذه حقائق علمية اكتشفها فرويد.

- سوّد الله وجهك! ووجه فرويد!

لم يُعرها قاسم كبير اهتمام من قبل، فقد اعتبرها، بمربولها المدرسي الأزرق وتسريحة ذيل الحصان، مجرد طفلة، ولم يكن عنده وقت للطفلات. مع خيبة أمله المتزايدة في المحترفات، أخذ قاسم يلاحظها باهتمام ينمو يوماً بعد يوم. كانت تسكن في الشارع نفسه، في عمارة قريبة من عمارته. وكان يراها كل صباح، تقريباً، في المحطة. ركبت معه الأوتوبيس عشرات المرات، في الدرجة الأولى، وكانت تنزل أمام مدرسة الأورمان النموذجية للبنات في الدقي. يكتشف الآن انها ليست طفلة.

المريول يخفي جسداً أنثوياً ناضجاً، وذيل الحصان يتجنى على شعرها الكثيف الحالك. يتصورها في فستان أبيض قصير وشعرها ينسدل على جانبي وجهها، ويدرك أنه قضى شهوراً يركب الأوتوبيس مع فتاة رائعة الجمال من غير أن يشعر.

تذكر نصيحة نشأت - الجرأة! القليل من الجرأة! - واستجمع شجاعته ذات صباح وهما ينتظران الأوتوبيس وبادرها:

- صباح الخير يا مدموزيل!

وردت على الفور كأنها كانت تنتظر المبادرة من زمن:

- صباح النور.

- الأوتوبيس تأخر.

- ربنا يستر. ليقللوا البوابة.

- انتي في الأورمان، مش كده؟

- أيوه.

- سنة إيه؟

- توجيبي.

- علمي ولا أدبي؟

- علمي.

وجاء الأوتوبيس وركبا معاً. وواصل الحوار رغم الزحام الذي لم تسلم منه حتى الدرجة الأولى. وقبل أن تنزل في محطتها كان قد عرف منها أن اسمها شيرين بدر الشرقاوي، وأن أباه هو الدكتور بدر الشرقاوي، عميد كلية الصيدلة بجامعة القاهرة، وأنها تنوي دراسة الصيدلة مثل أبيها.

لم يكذب يرى نشأت حتى صباح:

- صدق أو لا تصدق! جاءت الجرأة.

- أخيراً؟

- أخيراً. ووجدت كل تجاوب.

- من هي تعيسة الحظ؟

- جارتنا. في الشارع نفسه. تصور أنني كنت أركب معها الأوتوبيس

كل يوم، ولم أكلمها من قبل.

- لازم وحشة.
- وحشة؟ اصبر حتى تراها.
- هل هي طالبة في الجامعة.
- لا. في التوجيهي. هل تعرف من هو أبوها؟
- الملك فاروق؟!
- عميد كلية الصيدلة؟
- الصيدلة؟ أوعى تطلع البنت مسمومة.
- قديمة!

* * *

خلال فترته البعثية، لم يشتر فؤاد بأي توافق فكري مع أحد من أعضاء مجموعته باستثناء ماجد الزير. كان بشام نويلات مغروراً الى حد لا يُحتمل، يتحدث وكأنه هو الذي أنشأ حزب البعث، وقبلها اخترع الأمة العربية. وكان محمد عسيلي شحماً بشحنات قوية من الكراهية. كان شيعياً من جنوب لبنان يشعر بالاضطهاد، ويعتقد فؤاد أنه لم ينضم الى البعث إلا ليحارب به السيطرة المارونية/السنية على مقدرات لبنان. وكانت فيكتوريا نصار مسيحية، ويبدو انها، بدورها، دخلت الحزب للافلات من السجن النفسي الذي يطبق على كل الأقليات.

تطورت علاقة فؤاد بـ ماجد الى صداقة. ماجد من عائلة معروفة في عنيزة. كان يتحدث، ذات يوم، ان الريحاني زار عنيزة في مطلع القرن وسماها باريس نجد. ما ان سمع قاسم الجملة حتى انتفض كالملدوغ:

- الريحاني؟! متى زار نجيب الريحاني عنيزة؟!

- أمين الريحاني يا مغفل! الفيلسوف المشهور!

- زقال ان عنيزة باريس نجد؟

- نعم. وكتبها في كتابه.

- إنا أن الريحاني لم ير عنيزة، أو لم ير باريس!

ماجد، كفؤاد، يؤمن بالقومية العربية، وبالوحدة العربية، وبزعامة جمال عبد الناصر، ولكنه، كفؤاد، يؤمن ايماناً عفواً بالاسلام، ولا يرى أن بإمكانه أن يعتنق مذهباً يتعارض مع الاسلام. يقول له فؤاد:

- البعث يا ماجد حزب أقلّيات. أنشأه مسيحي. انظر الى أعضاء مجموعتنا.

- هل لاحظت اصرار فيكتوريا في كل اجتماع على علمانية الحزب؟
على فصل الدين عن الدولة؟ وموافقة بّسام ومحمد؟
الدوافع معروفة يا ماجد. علمانية لبنان تعني انتهاء السيطرة المارونية،
وعلمانية العراق تعني انتهاء السيطرة الإسلامية.

- وماذا عن بقية العالم العربي حيث لا يوجد سوى المسلمين؟ هل
تتصوّر دولة علمانية في السعودية؟
- أو في عمان؟ أو في اليمن؟

ترك ماجد حزب البعث في الشهر نفسه الذي تركه فيه فؤاد. وجاء
القراران من غير تخطيط مُسبق. وكانت دهشتهم عظيمة لتوارد الخواطر
هذا. كان ماجد في صالون شقة الحرية ينفث دخان سيجارته ويفكر
بصوت عال:

- ولكن هذه ليست نهاية المشوار. إذا كان البعث لا يصلح فلا بُدّ أن
هناك طريقاً آخر للعمل العربي. لا بُدّ أن يكون هناك تنظيم أقرب الى
الواقع العربي، تنظيم يعرف الأمة العربية على نحو أفضل.
يقاطعه قاسم منفعلًا:

- أنت وفؤاد من السّدج! ما هذا الكلام الفارغ؟! أحزاب! تنظيمات!
قومية عربية! وحدة عربية! مصالح! المسألة كلها مصالح! مصلحة ميشيل
عفلق تتطلب الحديث عن القومية العربية فهو يتحدث عنها. ومصلحة
جمال عبدالناصر تتطلب الكلام عن الوحدة العربية فهو يتكلم عنها. وأنتم
تصدقون كل شيء.

ينظر اليه ماجد باستغراب شديد:

- ولكن العرب أمة واحدة يا قاسم. هل تنكر ذلك؟
- كلام فارغ! أسألك بالله يا ماجد هل السعوديون كالمصريين؟ لا بل
أسألك بالله هل السعوديون كالبحرينيين؟
- بالتأكيد.

- لا. هل تعرف ماذا نسمي المملكة في البحرين؟
- ماذا؟

- المهلكة!

- سامحكم الله.

- وأزيدك من الشعر بيتاً. حتّى في البحرين الصغيرة هناك سنّة وشيعة. وسنّة منامة وسنّة محرق. وشيعة مدن وشيعة قرى. وشيوخ أصل وياسر. - ألا يوجد لديك أدنى شعور بالعروبة؟

- العروبة؟! طبعاً. كلنا عرب. ولكننا عرب من أشكال مختلفة لا نكوّن أمة واحدة. هل تفهم اللهجة الجزائرية؟! أنا لا أفهم نصف كلامك عندما ترطن بالنجدي.

- لأنك لست عربياً قُحّاً.

- وأنتم لا تفهمون كلامنا. هل تعرف معنى «طماشة»؟ أو «غشمرة»؟ أو «جكّية»؟

- وأنت أيها الأعجمي المستعرب هل تعرف «المطازيز» أو «القرصان» أو «النجر»؟

- أحسنت! لا أنت تفهمني ولا أنا أفهمك. كفّوا عن هذا الكلام السخيف عن أمة عربيّة واحدة. تذكّروا الطالب السوداني الذي نُشِلت محفظته وهو يهتف لوحدة وادي النيل فغيّر رأيه وهتف: «مصر والسودان عشرين حتّة!». هذه حالنا. عشرين حتّة!

- كنت أعرف أنك رجعي. واكتشفت الآن أنك أيضاً اقليمي انغزالي.

- طز فيك! وفي المطازيز!

v

اپریل ۱۹۵۹

أتراها.. لكثرة الفُشاقِ تحسبُ الدمعَ خِلقةً في المآقي؟
المتنبي

۱

اگست ۱۹۵۶

عندما قامت ثورة العراق، في يوليو، كان فؤاد يقضي إجازة الصيف في البحرين. وقتها، كادت البحرين ترقص فرحاً. سقط نوري السعيد! سقط العميل الأكبر! سقط النظام الخائن! سقط حلف بغداد! ستنضم العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة خلال أيام. كان فؤاد مخموراً بالبشر. إلا أن والده هزّ رأسه ألماً:

- ولكن لماذا قتلوا الملك؟ يشر القاتل بالقتل ولو بعد حين.

وأمه أوشكت أن تبكي:

- بعد كبدي، الملك فيصل. بعده صغير. بزر. مو حرام يذبحونه؟

أما قاسم فزمر:

- عصابة مجرمين وقتلة ولصوص. تمردوا على أسيادهم. وذبحوا ملكهم. ونهبوا القصر. خونة ولصوص!

كانت هذه هي الأصوات النشاز، الخافتة الضئيلة، في غمار جوقة السرور الصاخبة التي عمّت البحرين من أقصاها إلى أقصاها.

إلا أن شيئاً غريباً، غريباً جداً، بدأ يحدث في بغداد. لم تنضم العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة. ومرّ الأسبوع يتلوهُ الأسبوع، والشهر يتبعه الشهر. دبّ الخلاف بين عبدالكريم قاسم، الذي كان الجميع يعتبرونه نجيب الثورة، مع عبد السلام عارف، الذي كان يعتبر جمال الثورة، وخسر عارف المعركة وجُرد من كل مناصبه. وأخذت خطابات عبد الكريم قاسم وتصريحاته منحى انعزالياً واضحاً. وظهرت في الشارع العراقي هتافات عجيبة: «ماكو زعيم، إلا كريم. جمهورية لا إقليم». وظهرت شعارات جديدة: «اتحاد لا وحدة». طفا الشيوعيون على السطح،

وكانوا يبدون كما لو كانوا يحكمون العراق. وانتشرت علامات الاستفهام حول عبد الكريم قاسم. هل هو مجنون؟ هل هو شيوعي؟ هل هو عميل استعماري؟ وصلت المأساة ذروتها مع تمرد عبد الوهاب الشواف في الموصل. وحدثت المذابح بعد قمع الحركة. انطلق الشيوعيون يذبحون، قتل المئات، وقيل الآلاف، وقيل عشرات الآلاف.

في شقة الحرية لم يكن الحديث ينقطع عن العراق وما يدور فيه: فؤاد، كالعادة، كثير الأسئلة:

- ماذا حدث؟ كيف انتكست الثورة؟ كيف أزيح عبدالسلام عارف؟ أين الضباط القوميون؟

وقاسم، كالعادة، يعرف كل الأجوبة:

- عبد الكريم قاسم ضابط متآمر. وجمال عبد الناصر ضابط متآمر. كيف يثق الواحد منهما في الآخر؟ وكل منهما يريد السلطة لنفسه فكيف يتحدان؟

يعقوب لديه تفسير مُعَقَّد لا يفهمه أحد:

- يجب أن تأخذوا وضع العراق بعين الاعتبار. كان العراق في عهد الملكية بلداً إقطاعياً بكل معاني الكلمة. والفعل يولد رد فعل مساوياً في القوة، معاكساً في الاتجاه. السيطرة الإقطاعية البورجوازية ولدت رد فعل من البروليتاريا، وولد الحزب الشيوعي العراقي. وُلِدَ قوياً لأنه يجابه عدواً قوياً. وُلِدَ برؤية واضحة. أمّا القوميون فقد اختلطت عليهم الأمور. كان بعضهم إقطاعياً، بل كان معظمهم من الإقطاعيين. وعندما سقط النظام الملكي لم يكن في الساحة تنظيم قوي سوى الحزب الشيوعي. يقاطعه فؤاد:

- ولكن يا يعقوب الثورة لم يَقم بها الحزب الشيوعي. الثورة قام بها ضباط قوميون، ضباط ناصريون، ثم سرقها عبد الكريم قاسم.

- أنت تنظر الى الواجهة يا فؤاد ولا تنزل الى الجذور. جذور الثورة العراقية الحقيقية ماركسية خالصة، أيديولوجية قائمة على مقاومة الاقطاع، لا تهتمها القومية العربية ولا الوحدة. ثورة العراق منطقية مع جذورها.

- أنت وجذورك! هذه ثورة ناصرية وحدوية سرقها عبد الكريم قاسم.

يتدخل عبد الكريم:

- لا تنسوا أن السّني، عبد الكريم قاسم، شيعي.
يردّ فؤاد:
- لا. لا. سني.
- شيعي!
- سني!
يتدخل قاسم:
- لا أدري هل هو سني أو شيعي. هو مجرم والسلام.
يقاطعه فؤاد:
- لا! ليس مجرد مُجرم. هذا الرجل قتل الوحدة العربية. طعن الأمة العربية من الظهر.
ينفجر قاسم:
- ألم أقل لك ألف مرّة لا توجد أمة عربية؟ هذا مثل جديد تراه بعيونك. هل العراقيون كالمصريين؟ أو كالسوريين؟
يردّ فؤاد:
- وقلنا لك ألف مرّة ان الفروق بسيطة إذا قورنت بالأشياء المشتركة.
يعلو صوت قاسم:
- آية أشياء مشتركة؟! المصريون مسالمون حتى الموت والعراقيون يقتلونك أولاً ثم يسألونك عن اسمك.
- للثورات أحكامها.
- ثورات وثيران! لم تحزنوا عندما قُتل الملك فيصل والآن تقيمون القيامة لقتل الشوّاف وتسمّونه شهيداً. كلهم مجرمون وقتلة يتنازعون على السلطة.
يتدخل يعقوب:
- لا تنظروا إلى الأشخاص. القضية أعمق من ذلك. انظروا إلى ما وراء الأشخاص. الشوّاف، مثل عبد السلام عارف، يمثّل ظاهرة بلا جذور سياسية في المجتمع العراقي. أمّا عبد الكريم قاسم فأدرك عمق الجذور الشعبية للشيوعيين وتحالف معهم. هذا تصرّف رجل ذكي لا مجنون.
يقول عبد الكريم مبتسماً:

- قلت لكم انه شيعي: كل الشيعة أذكاء.

يتدخل قاسم:

- مجرد قاتل محترف. لا شيوعي ولا بطيخ. متآمر يعشق السلطة. لو عرف ان جمال عبد الناصر سوف يضمن له السلطة في العراق لاّتحّد معه على الفور. ولكنه يعرف أن جمال عبد الناصر سوف يغدر به كما غدر بمحمد نجيب.

يرد فؤاد بعنف:

- جمال عبد الناصر لم يغدر بأحد. جمال عبد الناصر قاد أعظم ثورة في تاريخ المنطقة من دون إراقة دماء.

ينقضّ عليه قاسم:

- لا يا شيخ؟! وماذا عن العمال الذين شنقهم؟ ماذا عن الأخوان المسلمين؟

يتدخل يعقوب:

- جمال عبد الناصر، في النهاية، مُجرّد بورجوازي صغير. والبورجوازية لا تستطيع التعايش مع حركة عماليّة قويّة - ولهذا أعدم العمال الذين أضربوا. ولا مع مدّ رجعي شعبي ولهذا أعدم الأخوان المسلمين.

يصرخ قاسم:

- هل هذه حالة؟ يا جماعة! هل هذه حالة؟ إعدام ومشانق وسُجون وسحل ودماء! قلنا لكم امسكوا مجنونكم وإلاّ سوف يأتي من هو أجنّ منه. رحم الله نوري السعيد! عبر نصف قرن لم يقتل واحداً على الألف مما قتلوه في يوم واحد.

يرد فؤاد:

- لا تترحم على الخونة! لعن الله نوري السعيد! وكل الرجعيين!

ينظر اليه قاسم بغيظ متزايد ويتمتم:

- بل لعن الله القتلة والسفاحين! وكل من يتعاطف معهم! يحاول يعقوب تهدئة الأمور بتحليل غامض آخر:

- يا ناس! لا تنظروا الى الأمور من الزاوية الشخصية. حاولوا فهم حركة التاريخ. حاولوا دراسة تطوّر المجتمعات. لو عرفتم الفرق بين المجتمع

المصري والمجتمع العراقي لعرفت الفرق بين عبدالكريم قاسم وجمال عبدالناصر.

يعلق عبدالكريم:

- الفرق ان عبدالكريم قاسم شيعي!



«يأتي صوتها عبر التليفون:

- ضروري أشوفك. دلوقتي يا عماد. قررت أخيراً. بيتسم عماد. أخيراً! يضحك عماد. بعد شهور من الدلال والتمنع تستجيب سامية لنداء قلبه. تستجيب للحب الكبير الذي يملأ روحه. لا يعلم إلا الله كم تألم من عبارتها التقليدية:

- أنا باعزك يا عماد.

«أعزك»؟! أي أعتربك عزيزاً!

ويسألها:

- ما الفرق بين الحب والمعزة.

- الفرق كبير.

- ما هو؟

- أنت مثل أخي!

مثل أخيها؟! سامحها الله! هل يقضي أخوها معظم ليله يفكر فيها؟ هل يذهب أخوها كل يوم الى المستشفى الذي تعمل فيه مُدعياً انه مريض؟ هل يوصلها أخوها كل ليلة الى البيت؟

- أنت ممرضة يا سامية. أليس في قلبك بعض الحنان؟

- قلبي يفيض بالحنان. ولكن الحنان غير الحب.

رأى عماد سامية، للمرة الأولى، عندما ذهب الى «مستشفى الكاتب» يعود صديقاً أجرى عملية الزائدة الدودية. عندما دخل وجد الدكتور عادل بهجت الجراح الشاب الذي أجرى العملية، ووجد الممرضة الجميلة، سامية. منذ تلك اللحظة، وهو في حالة حُب، حُب من طرف واحد. توثقت علاقته بسامية. أصبح يراها كل يوم تقريباً. وعندما لا يراها يحدثها

بالتليفون. جاءها بالهدية تلو الهدية. باقة الورد بعد باقة الورد. وهي تبسم. لا تصدّه ولا تردّه، ولا تشجّعه، حتى أوشك على الجنون:
- لا يمكن أن نستمر على هذه الحالة يا سامية.

- لم لا؟

- أنت لا تعرفين كم أتعذب.

- تتعذب بصداقتي؟

- لا. أتعذب بحبك. وأنت لا تعرفين.

- قلت لك يا عماد اني، أيضاً، أعزك. أعتبرك مثل أخي.

- من قال لك أني أبحث عن أخت؟

تصحو كرامته من نومها، متأخرة، وتنفجر. هذه العلاقة أصبحت سجنًا كريهاً دخله طائعاً، ووضع نفسه تحت رحمة السجانة. تحول الى ظل لسامية. لا! تحول الى كلب أليف تملكه سامية. كلب يتبعها بلا ملل، وينقذ أوامرها بلا كلل، ويرضى بالفتات، إذا حصل على الفتات.

والآن، في غمرة هذه الثورة، تجيء المكالمة. أخيراً! أخيراً! لا تودّ سامية أن يتم اللقاء في المستشفى. ويتفقان على «جروبي» سليمان باشا. وتجيء الساعة الخامسة. وتدخل سامية. الجاتوه والشاي. وابتسامة سامية تضيء المكان. وقلب عماد ينبض كآلة فقدت اتزانها. وتضحك سامية. ويتنظر لحظة الاعتراف. وتقبل اللحظة:

- عماد! أريد أن تكون أول من يعرف. لقد خطبني الدكتور عادل ووافق أبي.

* * *

يبتسم عبد الرؤوف وهو يعيد الأوراق الى فؤاد:

- «الملاك الأزرق»؟

- تقريباً.

- في القصة الكثير من الواقعية. شاهيناز؟!

- طبعاً.

- هل تزوجت؟

- لا.

- هل تحبها على النحو الذي وصفته القصة؟
- أكثر يا رؤوف.
- وهي؟
- هي «تعزني».
- وماذا ستفعل؟
- لا أدري. ماذا فعل بطل «الملاك الأزرق»؟
- ترك مدرسته وكتبه وطلابه وبيته وراح يهيم وراء الغانية. حتى انتهى به الأمر خادماً لها.
- قد أفعل الشيء نفسه.

شاهيناز شاكر! يا له من اسم! يا له من اسم! تكاد حروفه تغني. كما تغني صاحبة الأسم. حفلة الكلية. والسرايق الضخم. ووصلات البرنامج تترى. ونجمة الحفلة طالبة الكلية الدائمة فايده كامل. ثم يعلن مُقدم الحفل عن «الموهبة الغنائية الشابة». وتجيء الموهبة. وتغني أغنية نجاة الصغيرة:

قلبك راح فين؟ أنا مش لاقياه
ولا شفت يومين في الحب معاه

تحوّل فؤاد، فوراً، إلى «مجنون شاهيناز» على الطريقة الكريمة. إلا أنه كان أشجع من عبد الكريم. ذهب بعد انتهاء الحفلة الى شاهيناز وأعرب لها عن إعجابه الشديد، بكلمات مؤثرة. وشكرته بحرارة. وأعرب عن استغرابه لأنه لم يرها في الكلية من قبل. وأوضحت له انها طالبة «منتسبة»، لا تحضر إلا خلال الامتحانات، أو في مناسبات كهذه. وقالت انها تدرس الحقوق بناءً على إصرار أبيها المحامي، أما هي فتعرف أن مستقبلها الحقيقي في الفن. وهكذا أصبحت طالبة منتظمة في معهد الموسيقى، ومنتسبة في كلية الحقوق.

ما للشقراوات وماله؟! على الأصح، ماله وللشقراوات؟! الأولى شقراء شامية. والثانية شقراء مصرية، فصيلة نادرة من المصريات. ماله وللعيون الخضر؟! الأولى خضراء العينين والثانية. وهنا تتوقف المقارنة. الثانية أجمل من الأولى، بمراحل. القوام أرق وأنحف وأطول. والشفة أشهى وأعذب. والشعر أطول وأغنى، يصل الى منتصف ظهرها عندما تطلقه من إيساره. والصوت؟ أوه!! الصوت! أواه!! الصوت! نسخة طبق الأصل من صوت

ماذا الوداع وداع الوامق الكمد
هذا الوداع.. وداع الروح للجسد
المتنبي

نجاة الصغيرة. لا! نسخة أجمل من الأصل. كيف تجمعت كل هذه المواهب في فتاة واحدة؟ الغناء والتمثيل والجمال، ودراسة الحقوق. الشقراء المعجزة! المحامية الحسنة! والاسم! شاهيناز! يحمل ظلالاً لا تنكر من محتد أرسقراطي نبيل. العفوية نفسها التي تميزت بها علاقته بسعاد تكتنف الآن علاقته بشاهيناز. يتحدثان بسهولة، ولمدة ساعات، وعن كل شيء. ترحب شاهيناز بهذا المعجب الغريب القادم من بلاد غريبة. ولا يستطيع أن يعبر عن مشاعره الحقيقية بالكلام. ويلجأ إلى الكتابة. وتبدأ رسائله إليها. وتتوالى.

«أيتها الغالية!

لا يساورني شك أنك سوف تكونين، في يوم قريب، أشهر نجمة في القاهرة، وفي العالم العربي كله. سوف تكون صورتك على غلاف كل مجلة، وسوف ينطلق صوتك من كبد كل راديو، وسوف تضيء ملامحك أعماق كل شاشة. وقتها - هل ستذكريني؟».

«أيتها الغالية!

عندما وقفت تغنين، في ذلك المساء البعيد القريب، الذي جمعنا قبل لحظات، وقبل قرون، أحسست أنك تغنين لي وحدي. أصبح السرداق عشناً، وأنت طائرتي الرائعة التي تصدح لي وحدي. وتسأليني عن قلبي أين ذهب. ها هوذا ملقى أمامك، فخذيه بين يديك، أو دوسي عليه بقدملك».

«أيتها الغالية!

أنت لا تحتاجين إلى معهد موسيقى، زلا إلى أساتذة يعلمونك الغناء. لقد ولدت بموهبتك، مثل البلابل التي تفتح عيونها على الحياة وهي تغني. كل ما عليك أن تفعله هو أن تبسمي فيضحك الوجود طرباً، وأن تعبسي، فتبكي الدنيا، أو أن تقولي حرفاً، فيرقص الكون فرحاً، ويرقص قلبي معه، وترقص الدموع في عيني».

«أيتها الغالية!

هل تعرفين معنى اسمك؟ أراهنك أنك لا تعرفين! صديقي يعقوب الذي يعرف الفارسية يقول إن شاهيناز تعني «دلال الملوك». تصوّري! دلال الملوك! هل هناك أجمل من هذا المعنى؟ لم أستغرب. فأنت، فعلاً، ملكة،

ملكة روجي وأميرتها وسلطانتها. واجتمع فيك دلال النساء كلهن. أيتها المحبوبة المدللة!».

تلقى شاهيناز رسائله بمزيج من الاستغراب والسرور. يدرك فؤاد أن الفنانة تتعاطف مع حروف الفنان، وأن روح المطربة تتعاطف مع روح الأديب. وماذا بعد التعاطف؟ لا هي تردّ على الرسائل. ولا هي تشاركه العواطف النابضة فيها. ولا هي تغضب فتقطع العلاقة. يصبح فؤاد ضحية التعليقات الساخرة. يبدأ قاسم:

- يا فؤاد ايش فيك؟ مُخبّل؟ من بعثية لمطربة؟!

ويسأله عبد الكريم:

- لماذا لا تؤلف لها أغانيها؟ ألسنت أديباً؟

ويتحدّث فرويد على لسان يعقوب:

- هذا ليس حبّاً يا فؤاد. هذا حرمان جسدي جنسي. لو انك نمت معها مرّة واحدة لزال الحرمان وطار الحب.

ويغضب فؤاد:

- لا تغلط يا يعقوب! لا تتحدّث عن شاهيناز بهذه الطريقة.

- أليست مغنيّة؟

- إنها أشرف منك!

- يعلّق قاسم ببساطة:

- لا توجد مغنيّة شريفة.

ويصرخ فؤاد في وجهه:

- اسكت انت!

عبد الكريم يتعاطف معه فجأة:

- يا ناس! حرام عليكم! الراجل ييحب!

غير أن قاسم لا يقتنع:

- بيت مجانين! مجنون فريدة! ومجنون شاهيناز! ومجنون فرويد! لماذا

لا نسَمّي الشقة «دار المجانين»؟

يقول نشأت بهدوء:

- لا يجوز، بموجب الدستور، تغيير الاسم إلا بالاجماع.
- لا يستطيع فؤاد أن يبحث موضوع شاهيناز بأي قدر من الجدّة إلا مع عبدالرؤوف:
- ماذا بوسعي أن أفعل يا رؤوف؟ أشعر أنني مسلوب الإرادة. ريشة في مهبّ الريح. هذا وضع لا يطاق.
- لماذا لا تنهيه وترتاح؟
- حاولت يا رؤوف. حاولت بكل جهدي. حاولت أن أنساها. حاولت أن أتجنّبها. وفي المساء أجد نفسي أمام التليفون أتحدّث إليها عن اللقاء القادم.
- وتقابلك؟
- تقابلني.
- وماذا يحدث؟
- هنا البلاء! لا يحدث شيء! أذهب الى المعهد. وأشهدا أثناء البروفات. وكثيراً ما أوصلها الى منزلها.
- هل قلت لها انك تحبّها؟
- يا رؤوف! ألم أقرأ عليك رسائلتي؟ بعد رسائل كهذه هل هناك حاجة الى أن أقول شيئاً؟
- كيف تصف شعورها نحوك؟
- «تعزني»! قالتها مراراً وتكراراً.
- هل تحب غيرك؟
- لا أدري.
- اسمع يا فؤاد. أنا أعتقد انها تلعب بك.
- ماذا تعني؟
- أعتقد انها تبتليك بجانبها لأنه يرضي غرورها أن يعجب بها كل هذا الإعجاب أديب...
- رؤوف! لا داعي للسخرية.
- لم أكن أسخر. دعني أكمل. هي فتاة مبتدئة ويسعدّها أن يكون لها

كانت الأسئلة التي في ذهنه لا تنتهي. ولا يعرف جواب أيّ منها. والآن يشغله قائد الطائرة بسؤال جديد. لعل هذا هو هدف المسابقة: ابعاد الأسئلة الكثيرة المزعجة عن أذهان المسافرين ليركّزوا على سؤال واحد غير مزعج، وإن بدا غريباً بعض الشيء: «كم تحمل هذه الطائرة من الوقود؟». كان هذا هو السؤال الذي طرح على المسافرين. وقيل لهم ان المسافر الذي يتوصل الى الرقم الصحيح، أو الى رقم قريب منه، سيحصل على جائزة ثمينة. مرّ المضيف يوزع الاستمارات. وأخذ كل راكب استمارته. وانهمك في التفكير.

وانهمك فؤاد، بدوره، في التفكير. «كم جالوناً. تحمل هذه الطائرة؟». سؤال لم يخطر بباله من قبل، لا من قريب ولا بعيد. هل يمكن القياس على السيارة؟ يترقب أن السيارة يمكن أن تبتلع بسهولة عشرين جالوناً. ولكن الطائرة أكبر من السيارة بكثير، بكثير جداً. وهي تحمل أكثر من مائة مسافر مع أمتعتهم. وبعض الأمتعة ثقيلة كأمتعته هو. وابتسم ابتسامة عريضة وهو يتذكر أمتعته: أربع حقائب من الوزن الثقيل غير حقيبة اليد المتفخخة. وتذكر تعليق أخيه خليل:

ما هذا؟ هل سيذهب الى القمر؟ أو القطب الشمالي؟ لم كل هذه الأمتعة؟

إلا أن أمّه أصرت على أن يحمل معه كل ما يحتاج اليه في «بلاد الغربية». ودخلت ضمن الاحتياجات أشياء غريبة: مناشف للحمام، علب شاي، قطع صابون معطر، علب شيكولاته وبسكويت، وراديو من الحجم الصغير. ابتسم، وهو يتصوّر كل هذه الأشياء قابعة في حقائبه. ثم ما لبثت الابتسامة أن تبخرت وهو يتصوّر وقفته أمام موظف الجمارك في مطار القاهرة.

عند الحاجة. ولم تكن الحاجة تعتري إلا فيما ندر. العضو الوحيد الذي كان في حالة إفلاس مستمر هو يعقوب. النزعات الوجودية أدت الى نفقات إضافية قادت الى إفلاس مقيم. تقبل يعقوب ظاهرة الإفلاس بحماسة شديدة واعتبرها، هي الأخرى، موقفاً وجودياً مليئاً بالفروسية. تقترب الامتحانات، وتعلن حالة الطوارئ في شقة الحرية. يتغير نمط الحياة. لا يكاد أحد يذهب الى الكلية، فالحاضرات، الآن، مضیعة للوقت الثمين. تطول اللحى، وتتسخ الثياب، وتذوي الملامح. ويجيء فنجان القهوة بعد فنجان الشاي في دورة تبدأ مع الفجر ولا تنتهي إلا بعد منتصف الليل. الأعصاب مشدودة تنفجر بسبب وبلا سبب. وهانم على حافة الانهيار:

- هانم! كباية مية.
- هانم! فنجان شاي.
- هانم! الغدا. جعنا.
- هانم! العشا.
- هانم! ساندوتش.
- هانم! روجي البقالة هاتي علبة سجائر.

ينظر يعقوب الى الفتاة الضئيلة، ذات القسمات البريئة المليحة، وهي تدور بين الغرف، وتنتابه نوبة من الغضب على المجتمع البورجوازي وكل من فيه.

تفقد كلية الحقوق شكلها الطبيعي وتتحول الى ما يشبه معسكرات الاعتقال. سرادقات هائلة تغطي الأرض وتمتد في كل اتجاه. آلاف من الطلبة يرتعدون، كأنهم أغنام تساق الى المذبح. والجو في الداخل يزيد الموقف رهبة. مفتشون غلاظ شداد في كل مكان يصرخون وعلى وجوههم شبق عارم الى اصطیاد طالب لئيم متلبس بالغش. وباعة المرطبات يهرولون بين الطاولات. والعرق يتصبب من كل الوجوه. ويدخل أستاذ المادة يرافقه فراش يحمل أوراق الأسئلة. وتوزع الأوراق. بغتة، تنطلق صرخة من هنا ويغمى على فتاة ويهرع اليها الممرضون. بغتة، يغمى على طالب، بلا صراخ. صوت نشيج هناك. دموع بلا نشيج هنا. لم يكن امتحان واحد يمر من دون عشر ضحايا، على الأقل، منهم من يفیق من الصدمة ويواصل الامتحان، ومنهم من يبقى في الخيمة الطبية تحت المراقبة.

في جو الامتحانات المحموم تنقطع النشاطات الاجتماعية. حتى نشأت وعبد الرؤوف لا يزوران إلا لماماً وبقصد المذاكرة. والمذاكرة في شقة الحرية فنون. يعقوب لا يستطيع أن يدرس إلا ماشياً ومهمهما بصوت عال، وهذه العادة مصدر مناوشات لا تنتهي. أما عبد الكريم فلا يذاكر إلا منبطحاً على بطنه فوق الأرض، مُدّعياً أن هذه أفضل طريقة للتركيز. قاسم يقرأ بسرعة، ثم يعيد القراءة، ثم يعيدها، ويخطط تحت السطور بلون يختلف مع كل قراءة، وتصبح الصفحة، في النهاية، لوحة سيرالية متكاملة. فؤاد يقرأ ببطء شديد، ولا يحتاج الى إعادة ما يقرأ.

الجميع يعانون من الهستيريا التي تعبر عن نفسها بأشكال مختلفة. فؤاد يضطر الى المشي السريع، مرتين كل يوم، بمعدل ساعة كل مرة حتى تهدأ أعصابه. أما يعقوب فيتضاعف استهلاكه من «الستلا» والسجائر. وقاسم يصاب بأرق مستحكم يقيه صاحياً حتى الفجر. أما مخاوف عبد الكريم فتسلك الى عقله الباطن، كما يؤكد يعقوب، وتتحول الى كوابيس. وكوابيس عبد الكريم مُروّعة. يحلم ان إنساناً له وجه وحش يجثم على صدره ويطبق على رقبته ويخنقه، ولا ينتهي الكابوس إلا بصرخة مدوية تهز أركان الشقة، وربما أركان العمارة. ومع دتو الامتحانات، تصبح الكوابيس والصرخات ظاهرة ليلية تغذي جو الهلع الذي يلف الشقة.

كل شيء يأخذ إجازة أيام الامتحانات، الا العواطف. ويبدأ الصراع على التليفون، الوسيلة الوحيدة للتعبير عن العواطف. عبد الكريم يحدث فريدة حتى يضج الآخرون ولا تنتهي المكالمات إلا بعد ساعتين أو ثلاث. وقاسم يتبادل مع شيرين مكالمات قصيرة متعددة. وفؤاد يتصل بشاهيناز مرة كل يومين. أما يعقوب فمكالماته كالبقيات، لا تستغرق المكالمات سوى ثوان معدودة.

مع نهاية الامتحانات ينقلب الجو في شقة الحرية رأساً على عقب. عبد الكريم يحتفل بتقطيع الملازم، ويعقوب يقذف بها من الشباك لتسقط حيث شاءت. أما فؤاد وقاسم فينهجان منهج الحذر ويكتفیان بابعادها. هذا، في نظر يعقوب، موقف متخاذل بعيد عن الوجودية. يعوّض السكان أنفسهم عن الأيام الضائعة. تبدأ الزيارات. وتضج الشقة بالغناء المنبعث من الراديو ومن الحناجر، وبأصداء الضحك. تخلق اللحن. تلمع الأحذية. شقة الحرية بعد انتهاء الامتحانات أشبه ما تكون بحقل يوقظه الربيع من غيبوبة الشتاء: زهور وأفراح صغيرة في كل مكان.

ربما كان هذا الجنون النشط المتغلغل في كل ذرة في الهواء هو المسؤول عما حدث، ذات عصر، لعبد الكريم. كان رفاقه خارج الشقة وكان في غرفته يراجع الحسابات مع هاتم. كان جالساً على الكرسي وراء طاولته، وقلمه في يده، وكشف الحساب أمامه، وكانت هاتم تقف وراءه. من غير إنذار، وضعت هاتم يدها على كتفه. أحس بشواظ من نار يُولد في كتفه وينزل إلى بقية جسمه. حاول عبد الكريم أن يتجاهل ما حدث ويستمر في قراءة الكشف. إلا أن يد هاتم الثانية امتدت إلى كتفه الثاني، واشتعل الجزء الآخر من جسمه. كما لو كان متفرجاً يرقب ما يدور أمامه من غير أن يشارك فيه، رأى عبد الكريم نفسه يقوم ويغلق الشباك. ورأى هاتم تذهب إلى الباب وتقفله. ثم رأى نفسه معها على السرير، يقبلها وتقبله ويلتحمان. بلا وعي، وخلال لحظات معدودة، فقد عبد الكريم عذريته، وخان فريده.

في المساء دعا عبد الكريم المجموعة إلى اجتماع استثنائي في غرفته. كان عابساً، وعلى عينيه آثار الدموع. أصيب الرفاق بالهلع، وسأله قاسم:

- ماذا حدث؟

ورد متلعثماً:

- لا أدري ما أقول. حدث شيء مؤسف.

يلح قاسم:

- ما هو؟ ماذا حدث؟

- لا أدري كيف أبدأ. بعد أن خرجتم جاءت هاتم هنا لأراجع معها كشف الحساب. ثم.. ثم.. ثم...

ويصرخ يعقوب:

- ثم نمت معها! مبروك! ألف مبروك!

ينظر إليه عبد الكريم بامتعاض ولا يتكلم.

يسأل فؤاد:

- هل حدث هذا حقاً يا كريم؟

- نعم. غلطة فظيعة. لن أغفر لنفسي أبداً. لعن الله الشيطان.

يضحك يعقوب:

- الشيطان؟ ما دخل الشيطان؟ أنت تنبسط وهو ينلن!

يواصل عبدالكريم:

- الآن لا نستطيع أن نبقىها في الشقة. كل مرة أراها فيها سوف أذكر ما حدث. أرجو أن توافقوا على الاستغناء عنها. وأرجو أن توافقوا على إعطائها عشرين جنيهاً...

يصرخ يعقوب:

- عشرين جنيهاً؟ لماذا؟ أنت تنام معها ونحن ندفع؟ هل هذه عدالة؟ أين ذهبت مبادئ الدستور؟

تسيل دمعة على خد عبدالكريم، ويظل صامتاً. ويتدخل فؤاد:

- لا داعي لهذا يا كريم. أنا موافق، والبقية موافقون. ادفع لها المبلغ وابحث عن شغالة جديدة.

ويضيف ضاحكاً:

- ولكن احرص على أن تكون الشغالة الجديدة فوق الأربعين. حتى لا تغري أحداً.

يضيف يعقوب:

- ولكن لا تستعجل. سنسافر بعد أيام قليلة. ابقى هانم حتى نسافر.

ينظر عبد الكريم في وجوه رفاقه بارتياح ظاهر، ويهمس:

- شكراً لكم. شكراً. كيف أستطيع أن أعيش مع نفسي بعد أن خنت فريدة؟ كيف أغفر لنفسي؟ لقد اكتشفت اليوم أنني مجرد حيوان.

يضحك يعقوب:

- لقد اكتشفنا أنك حيوان منذ مدة طويلة. أمّا فريدة فيجب أن تشكر الظرفاء التي أنقذتها من تزوج حيوان بكر لا يدري ما يفعل ليلة الدخلة.

* * *

اجتمع فؤاد بشاهيناز في كازينو «قصر النيل». أوضح لها أنه يريد أن يراها بمفردها قبل أن يسافر لقضاء عطلة الصيف في البحرين. واتفقا على موعد الغداء. وجاء الحمام، والطبخية، وبقية المستلزمات. نظر فؤاد الى الوجه الجميل المبتسم، وبدأ يتكلم:

- شاهيناز! أرجو أن تكوني صريحة نعي. هل هناك أمل؟

- ماذا تقصد يا فؤاد؟
- تعرفين ما أقصد. أقصد علاقتنا. هل هناك أمل؟
- وضح يا فؤاد، أرجوك.
- هل هناك أمل في أن تحبيني ذات يوم؟
- ألم نبحت هذا الموضوع مراراً؟
- نعم. ولكن هذه هي المرة الأخيرة. أريد أن أعرف.
- ماذا تريدني أن أقول؟
- الحقيقة.
- هل تريد أن أكذب وأقول اني أكرهك؟
- لا.
- هل تريد أن أكذب وأقول اني أحبك؟
- لا.
- إذن، ماذا تريدني أن أقول؟
- أريد أن أعرف هل هناك أمل. إذا كان الجواب بالنفي فسوف يكون هذا لقاءنا الأخير.
- يا فؤاد. هذا شيء راجع لك. أنت تعرف مكانتك عندي. أنت تعرف انك أقرب أصدقائي الى نفسي. ألا يكفي هذا؟
- يكفي لو كنت أشعر شعوراً مماثلاً، ولكن شعوري يختلف. أشعر يا شاهيناز انك متهور حياتي. أشعر انك الشمس التي أستمّد منها الضوء والأمل والدفء. أريد يا شاهيناز أن أقضي كل أيامي معك. هل هذا شعور صديق نحو صديقة؟
- لا أدري. ولكن هذا الشعور لا يزعجني.
- لا يزعجك أنت ولكن يزعجني أنا. أشعر أنني فضولي، متطفل، ضيف ثقيل يخجل صاحب الدار من طرده.
- فؤاد! هل تريد الصراحة التامة؟
- رجاء.
- حسناً. أنا لا أستطيع أن أحب. أقسم لك بالله. لا أنت، ولا غيرك.

هل تعتقد انك الوحيد الذي أعجب بي؟ لا أبالغ إذا قلت انه كان قبلك العشرات. ربما المئات! منذ بلغت الرابعة عشرة وأنا، بغير قصد مني، أُلْمَسَ مشاعر الرجال. كل رجل يراني، كل رجل تقريباً، يحبّني! حتى أساتذة المعهد العواجيز!

- وأنت؟ ألا تشعرين بشيء؟

- لا. لو كنت قادرة علي حبّ رجل لأحببتك أنت. صدّقني. أنا لا أفكر إلا في مستقبلي، لا أعشق إلا مستقبلي، ولا يخفق قلبي إلا إذا تخيلت مستقبلي. أتعرف ماذا أتخيل؟ أتخيل نفسي أشهر من نجاة الصغيرة. في شهرة أم كلثوم. أتصور نفسي أعظم من فاتن حمامة. هل هذا جنون؟

- لا. هذا طموح. ولكن لماذا لا يكون في قلبك ركن صغير للحُبّ بجانب الطموح؟

- لا أدري يا فؤاد. صدّقني أنني أتمنى ذلك. عندما أغتني عن الحب أشعر أن كلماتي تصدر عن فراغ. أتمنى لو كان لي حبيب، أغتني له، وله وحده. لهذا يا فؤاد لا تعرف كم تسعدني رسائله.

- ليت لي حظ رسائلي. اطمئني يا شاهيناز. سوف تصلين في يوم قريب الى كل ما تتمنّيه. ولكن هل تقبلين نصيحة من صديق؟ من أخ؟ - طبعاً.

- احذري يا شاهيناز، فطريقك مليئة بالمخاطر. عندما يصل الجمال الى الحد الذي وصل اليه جمالك يتحوّل من نعمة الى نقمة. انظري الآن حولك. هل تعرفين ان كل رجل في الكازينو ينظر اليك؟ انظري الى الطاولة المجاورة. انظري الى «المِتر» كيف يسترق النظرات.

- هذا قدرتي يا فؤاد.

- نعم. ولكنه قدر ينبض بالأخطار. لا تسمح لي لطموحك أن يقودك الى قرار تندمين عليه.

- تقصد المنتجين والمخرجين؟! لا تخف.

- هل تريد أن أحضر لك معي شيئاً من البحرين؟

- يكفي أن تكتب لي من هناك.

غادرا الكازينو، وعيون الرجال تعريها، وتهوي على ظهره بسيّاط الحسد التي يكاد يحسّ وخزها. أدرك فؤاد أن قصّة الحب الثانية في حياته

شقة الحرية

سمع الكثير عن موظفي الجمارك. وكيف يفتحون كل حقيبة وينبشون كل شيء. ولا يسمحون لك بالمرور إلا بعد الدفع. والدفع مشكلة محيرة. قال له أخوه ناصر ضاحكاً:

- تصوّر، وأنت ذاهب الى القاهرة لدراسة القانون، انك ستبدأ حياتك هناك برشوة يعاقب عليها القانون. تصوّر نفسك سجناً في قسم البوليس. هل تعرف عقوبة الرشوة؟ سنة واحدة على الأقل. ها ها ها.

ها ها ها! الموضوع ليس طريفاً على الإطلاق. الموضوع معضلة حقيقية. يؤكد أصحابه الخضرمون الذين مرّوا بمطار القاهرة انه لا خروج إلا بدفع. والدفع رشوة. والرشوة جريمة. صحيح انه لم يسمع عن أحد ألقي عليه القبض في مطار القاهرة بتهمة الرشوة. ولكن من يدري؟
يتذكر فقهة ناصر:

- لا أدري كيف ستصرف في القاهرة. وأنت تغرق في شبر ماء. كان الله في عونك. كم أتمنى لو كنت هناك لأتفرّج عليك. الجوازات. الجمارك. سترتلك ربكة مضبوطة. ها ها ها.

ها ها ها! يبدو الأمر لأخويه كما لو كان نكتة. ولكنه لا يرى وجه الطرافة. لا يزال في السادسة عشرة، أصغر من ناصر بعشرين سنة ومن خليل بعشر سنين. وهما متعودان على الأسفار. أمّا هو فهذه سفرته الأولى بمفرده. في المرات السابقة كلها كان هناك شخص أكبر منه يتولّى ترتيبات السفر. يعالج الروتين المعقد الذي لا ينتهي. حتى عند مغادرته مطار البحرين رُتّب له كل شيء. أوصله ناصر الى باب الطائرة. ولكنه الآن وحيد. لا يوجد معه من يُرتّب أو يُدبّر. عليه أن يعتمد على نفسه. عليه أن يتذكر أن مرحلة جديدة من حياته قد بدأت. أصبح رجلاً عليه أن يواجه الغربة ومشاكلها كما يفعل الرجال.

الغربة؟! ولكنه لا يخس أنّه مقبل على غربة. انه ذاهب الى القاهرة. كيف تكون القاهرة غربة؟ القاهرة عاصمة العرب، حاضرة الإسلام، كنانة الله في أرضه، وأم الدنيا، كما يسميها المصريون (الذين يسمونها، أيضاً، مصر!). القاهرة جمال عبدالناصر، وصوت العرب، والنضال ضد الاستعمار، القاهرة الأمل، القاهرة تأمين القناة. ومع خاطرة التأمين، تلاشى كل شيء: تطايرت الأسئلة، وتبخرت الوسام، وزالت المخاوف. وأحسّ بدفء شديد يجتاز عروقه. لم يمْز على التأمين سوى بضعة أسابيع. لا تزال

قد انتهت، في هذا اليوم المشمس من أيام يونيو، على مقربة من النيل. آه! لو نطق النيل بما رأى وسمع عبر القرون. مليون عاشق؟ مليون عاشقة؟ مليون قصيدة؟ على أقل تقدير!

«أيتها الغالية!

طلبت إليّ أن أكتب لك من البحرين، ولكنني أفضل أن أكتب لك رسالتي الأخيرة من القاهرة. ورسالتي تتلخص في كلمتين: شكراً وعذراً. أمّا الشكر فلأنك صبغت الشهور الماضية من حياتي بالمرارة الحلوة، ولا أدري سعدت بأي الطعمين أكثر. كانت تجربة يا شاهيناز جعلتني أستوعب دروس قرون. عرفت شعور اليتيم من غير يتم، وذقت لوعة البعد بلا بعد. أدركت معنى الحرمان، كما لم أدركه من قبل. أصبحت يا شاهيناز، بفضلك، انساناً يستطيع أن يحس بعذاب الآخرين، ويستطيع أن يتعاطف مع المعذبين. كان هذا هو الجزء المرّ من القدح، أمّا الجزء الحلو فقد كان أشهى من قطرات المطر في فم الصحراء الصفراء. عندما كنت تغني كنت الدنيا تتحوّل الى فراشات، مهرجانات من اللون والضوء. لم أطرب قط لصوت كما طربت لصوتك. حتى فيروز، مغنيتي المفضلة، لم يتسرب صوتها الى ذلك المكان البعيد البعيد في أضلاعي ويغرز سهمه الذهبي الصغير هناك، كما فعل صوتك. شكراً يا شاهيناز لأنك أتحت لي، بكل سخاء، أن أكون بقرب أجمل مخلوقة رأيتها أو أتوقع أن أراها. مجرد القرب منك كان الأسعد في كل أحداث حياتي. وعذراً يا شاهيناز إذا كنت قد أثقلت عليك. لا شك أن رسائلي، وأحسبها قد تجاوزت الخمسين، قد أزعجتك، أحياناً على الأقل. ولا شك أن إلحاحي في طلب اللقاء بعد اللقاء قد سبّب لك بعض العنت (هل تعرفين معنى العنت؟ هاه! اسألي أحد الأساتذة العواجيز!). وبعد الشكر والاعتذار، يبقى لي مطلب صغير واحد أرجوك يا شاهيناز، بل أستحلفك، أن تحقّقيه لي. عندما نلتقي ذات مساء، وأنا مع الناس، وأنت على المسرح، والعيون كلها تشرب من حسنك، ووضفائك الشقراء تضيء القمر والنجوم، عندما تقع عينك عليّ، إذا وقعت عينك عليّ، أستحلفك بالله أن تغني لي:

قلبك راح فين؟ أنا مش لافيا!

ولا شفت يومين في الحب معاه

فؤاد

حاول يعقوب أن يتجاهل المشكلة، ثم أقنع نفسه أنه توهمها. ثم جاءت الامتحانات وانغمس في دوامتها. ولكن المشكلة لم تنته. الحرقان المؤلم قبل التبول وأثناءه وبعده. البقع الصفراء الصغيرة التي تنتشر على ملابسه الداخلية. بمرور الأيام يزيد الألم، وتتكاثر البقع، وتعبث بـيعقوب المخاوف السوداء. ترى هل أصيب بالزهري؟ هل سيكون نصيبه الجنون ثم الموت كما حدث للأدباء الوجوديين في أوروبا في القرن التاسع عشر؟ يدرك يعقوب أن مفاتيحه أصدقائه ستقود إلى سخرية مريرة، ويقرر أن يلجأ إلى الكتمان.

اليافطة على باب العيادة تعلن أن صاحب العيادة أستاذ مساعد متخصص في الأمراض الجلدية والتناسلية. يدخل يعقوب ويدفع للترجعي «الفيزتا»، ثلاثة جنيهات، ويضيف إليها جنيهًا، بقشيش التمرجي. بعد أقل من ساعة يناديه التمرجي متجاهلاً أكثر من عشرة أشخاص جاءوا قبله. يدخل غرفة الطبيب ويحدثه عن الأعراض. ويهز الطبيب رأسه متفهماً. ويفحصه فحصاً مؤلماً من السيلين. ويأخذ عيّنة من البول. ويطلب منه العودة إلى غرفة الانتظار. بعد ساعة أخرى يناديه التمرجي. يدخل يعقوب فيرى علامات قلق واضح على وجه الطبيب:

- اجلس. اجلس يا ابني.

- خير يا دكتور؟

- خير. مرض خطير ولكنه قابل للعلاج والحمد لله.

- سيلان؟!

- لا.

- زهري؟!

- لا.

- ما هو إذن، يا دكتور؟

- هنا الخطورة. ميكروب من فصيلة نادرة، ولكنه قابل للعلاج.

- وما هو العلاج يا دكتور؟

- العلاج يا ابني مكلف ويستغرق بعض الوقت.

- ماذا يكلف؟ وكم يستغرق؟

- أربعمائة جنيه، يُدفع نصفها مقدماً، والباقي بعد انتهاء العلاج. يحتاج

الأمر الى عشرين جلسة كهربائية، وتدليك البروتستات، بالاضافة، طبعاً، الى الحقن والأقراص.

يصعق يعقوب. أربعمئة جنيه؟! من أين سيأتي بها؟ حتى قاسم لا يملك مبلغاً ضخماً كهذا. وكهرباء؟! وتدليك البروتستات؟! يتكلم بخجل شديد:

- ولكني يا دكتور. لا أملك هذا المبلغ. أنا طالب ولي مصروف مُحدّد. هل يمكن تقسيط المبلغ على شهور؟
- آسف يا ابني. قسطين فقط.

- طيّب يا دكتور. أعطني فرصة لتدبير المبلغ.
عاد يعقوب الى شقة الحرية محملاً بكلّ هموم العالم. لم يسبق له أن عانى مشكلة صحيّة من قبل، ولم يسبق له أن فكّر، مجرد تفكير، في صحّته. والآن يزوره ميكروب من نوع نادر يحتاج الى علاج باهظ التكاليف طويل المدى. تلاحظ المجموعة أن شيئاً ما قد ألّمّ بـ يعقوب ولكنه يرفض الحديث. قبل أن ينام يسمع طرّقاً على بابه، ويدخل فؤاد:
- لاحظت انك لا تؤدّ الكلام. ولكنني أعرف المشكلة.

- تعرف؟ كيف؟

- فلنقل ان المصادفة وحدها هي التي دلّنتني.

- ولكن كيف؟

- الملابس الداخلية.

- من الذي لاحظها؟

- هذا لا يهم الآن. قل لي ماذا فعلت.

- ذهبت الى طبيب في سليمان باشا وأخبرني أن العلاج يحتاج الى مدة طويلة ويكلف أربعمئة جنيه.

- أربعمئة جنيه؟! هل أنت متأكد انه طبيب؟ يظهر لي انه نصاب.

- تقول الياقظة انه أستاذ مساعد في الجامعة.

- لديّ الحل.

- ما هو؟

- نخبر الأستاذ شريف. لا بُدّ أنه يعرف طبيباً يوثق به.

- ولكن...

- اسمع يا يعقوب إذا كانت صحتك لا تهتمك أنت فهي تهمني أنا. لا أود أن تنتقل العدوى إلينا.

يتقبل الأستاذ شريف الخبير الذي ينقله فؤاد بهدوء ملحوظ غير متوقع، كأنه كان يعرف انه لا بُد أن يحدث شيء كهذا، طال الزمن أو قصر، وكأنه كان يدرك أن الشقة سوف تُستغل لأغراض غير دراسية. بمجرد انتقالهم الى شقة الحرية ألغى الأستاذ شريف زيارته المفاجئة واكتفى بالزيارة الثابتة صباح كل جمعة، ولعله كان حريصاً على ألا يرى ما لا يسره. ذهب الأستاذ مع يعقوب وفؤاد الى أخصائي من أصدقاء الأستاذ القدامى. لم يستغرق الفحص سوى دقائق وأعلن الطبيب انها حالة سيلان عادية لا يتطلب علاجها سوى عشر حقن من البنسلين. عندما غادر يتقرب العيادة كان يشعر وكأنه يولد من جديد. لا شيء أسوأ من أن يموت المرء مجنوناً. لا شيء!

* * *

تصرّ نريدة على أن يذهب عبد الكريم منها لمقابلة أبيها ولكنه يصبر على تأجيل الزيارة حتى يحصل على موافقة والده، وبعدها يتقدم، رسمياً، للخطبة. اتفقا على أن يستأذن عبد الكريم أباه خلال العطلة، ويعود في نهايتها بالشبكة، وتعلن الخطوبة، على أن يتم الزواج في موعد لاحق. مع اقتراب موعد السفر، بدأ التفكير الجدّي في كيفية مفاخرة أبيه. الرهبة التي يُحسّ بها في حضرة أبيه تجعل من الصعب، بل من المستحيل، عليه أن يكلمه في موضوع حسّاس كهذا. ماذا لو صفعه؟ أليس من الأفضل أن يتحدث مع أمه أولاً؟ ولكن معارضة أمه للزواج ستكون أشد من معارضة أبيه. سوف تصرّ على أن يتزوج ابنة خالته. يكاد عبد الكريم أن ينسى ابنة خالته والوعد السخيف الذي قطعه أمه لأختها بأن ابنها لن يتزوج سوى ابنتها. حدث هذا عندما كان طفلاً في الخامسة، وكانت ابنة خالته في المهد. هل من المعقول أن يعتبر الآن مسؤولاً عن تنفيذ وعيد طائش كهذا؟

هذه التفكير الى أن أسلم السبل هو كتابة رسالة الى والده يوضّح فيها الموقف، حتى يكون أبوه على علم بكل شيء قبل وصوله الى البحرين. يدرك عبد الكريم أن هذه أخطر رسالة يكتبها في حياته، وأن مستقبله قد

يعتمد عليها. أعدّ المسوّد بعد المسوّد. ثم طلب الى فؤاد أن يساعده على صياغة الرسالة. بعد محاولات عديدة توّصّلا الى الصيغة النهائية:

«سيدي فضيلة الوالد الشيخ حفظه الله.

أقبل يديكم الكريمتين، وألثم جبينكم الطاهر، وأدعو الله أن تكونوا مع سيدتي الوالدة وكافة الأسرة بخير صحة وأحسن حال. ويسرّني أن أبلغ سيدي أنني أنهيت الامتحانات هذا الأسبوع وأتوقع النجاح إن شاء الله ببركة دعائكم الصالح. وقد أعددت العُدّة للسفر بعد عشرة أيام وكلّي شوق الى استجلاء طلعتكم والتزوّد بنصائحكم الغالية.

وبعد فيا سيدي أحببت أن أبلغكم عن شيء جدّ في حياتي لا أستغني فيه عن توجيهكم ورضاكم. لقد تعرّفت يا سيدي في الكلية على زميلة من زميلاتي، تتحلّى بالعفاف والحشمة والأخلاق الفاضلة ومن أسرة متدينة ومحافظة. وعندما وجدت فيها كل الصفات المطلوبة للزوجة الصالحة توكلت على الله وقرّرت بعد الحصول على أذنكم الكريم أن أقترن بها. وأحبّ أن أوضح لكم أنني شرحت لها عاداتنا وتقاليدينا فأبدت استعدادها التام للتقيّد بالحجاب وكافة العادات. ويسرّني أن أبلغكم يا سيدي أنني لاحظت فيها محبّة شديدة لآل البيت عليهم صلوات الله وسلامه، وعندي اقتناع تام انها بعد الزواج سوف تعتنق المذهب الصحيح. إلّا أنني يا سيدي وجدت من الصعب أن أطلب منها هذا الطلب قبل الزواج حتى لا أخرجها مع أسرتها. أرجو أن تطمئنوا يا سيدي الى أنني اتخذت القرار المناسب ولن يحصل إن شاء الله إلّا ما يرضيكم. وختاماً، أدعو الله أن يديم ظلكم ويمتّعنا بوجودكم ولا يحرمنا بركة دعائكم.

ابنكم المطيع

عبد الكريم

يُسَلِّم عبد الكريم الرسالة لموظف البريد ويتلقّى وصل التسجيل. ينظر الى الوصل باحترام شديد. هذه الورقة الصغيرة تضمن وصول رسالته الى أبيه. ماذا سيحدث عندما تصل الرسالة الى الشيخ؟ ماذا سيحدث؟ ماذا سيحدث؟ ماذا سيحدث؟

* * *

يُفاجأ يعقوب بأن رفاق السكن قرّروا محاكمته. لا توجد كلمة لوصف هذه المواجهة سوى المحاكمة. وهي محاكمة يساق اليها بلا إنذار،

ومن غير أن يتاح له الاطلاع على صحيفة الدعوى، ومن دون أن يسمح له بمحام.

بدأ فؤاد:

- لقد تردّدنا كثيراً قبل أن نُقرر أن يكون لنا معك هذا الاجتماع. ثم وجدنا أنه لا بُد من المصارحة. لقد وصلت الأمور الى حد لا يمكن السكوت عليه.

- لحظة! لحظة! لمجرد أنني أصبت بالسيلان؟ هذا شأني أنا. ما دخلكم أنتم؟

يرد فؤاد:

- لا أتحدث عن السيلان. أتحدث عما هو أهم. أتحدث عن تصرفاتك في الآونة الأخيرة.

- تصرفاتي؟ أنا حرّ في تصرفاتي! ألسنا في شقّة الحرية؟ ألم تكن الفكرة الأساسية وراء انتقالنا أننا سوف نكون أحراراً؟

يتدخل تاسم:

- هذا صحيح. ولكن الحرية لها حدود. وقد تجاوزت كل الحدود. خدمات! حشيش! أشكال غريبة من الشوارع! هل تريد أن نطرد من العمارة؟

يقول عبد الكريم:

- لم أشأ أن أخبركم بهذا من قبل ولكن ما دام الموضوع قد انفتح فسوف أخبركم. كلمني وكيل العمارة أكثر من مرّة. أخبرني أن الجيران يشتكون. أنذرنني أنه إذا لم يتغيّر الوضع فعلياً مغادرة الشقّة.

يتدخل فؤاد:

- هذا جانب واحد. الجانب الأهم يتعلق بك وبمستقبلك. الى متى تنوي الاستمرار على هذا النحو؟ سهر ومشروب وبنات كل ليلة؟ كل ليلة؟!

ويصرخ قاسم:

- وحشيش!

يصمت يعقوب ثم يقول بحزن واضح:

- لم اللف والدوران؟ لقد اتفقتم على التخلّص مني، أليس كذلك؟
اتخذتم قراركم وانتهيتم، أليس كذلك؟ لم كل هذه المقدمات؟ متى
تريدون أن أذهب؟ الآن؟ أم أن بإمكانني الانتظار حتى الصباح؟

يرد عليه فؤاد بهدوء:

- عيب! عيب يا يعقوب أن تقول هذا الكلام. لا يريد أحد التخلّص
منك. بل لن يسمح لك أحد بالذهاب حتى لو أردت. كل ما نرجوه منك
هو أن تترفق بنفسك وتفكر في مستقبلك.

- مستقبلي من شأني وحدي. إذا كنتم تريدون أن أذهب فسأذهب.
بلاد الله واسعة، وأنا لست سجيناً هنا. ولكنني لن أسمح لكم أن تتدخلوا
في حياتي الخاصة أو في حرّيتي.

يجيب فؤاد:

- ولكن حياتك الخاصة بدأت تؤثر على حياتنا الخاصة. وحرّيتك بدأت
تقيّد حرّيتنا. هل يرضيك أن نطرد من العمارة؟ أأنت الذي تكرّر
دائماً أن حرية الفرد تنتهي عندما تبدأ حرية الآخرين؟ نريد منك فقط أن
تفكر.

- أفكر في ماذا؟

- اسمك. واسم أسرتك.

- اسمي؟ واسم أسرتي؟ حلوة!

ينهي فؤاد المحاكمة:

- على أية حال. سوف نذهب الى البحرين في الأسبوع القادم وسوف
يكون أمامك الكثير من الوقت للتفكير الهادئ.

بمرارة يرد يعقوب:

- وفي هذه الأثناء ابحاثوا عن ساكن جديد. ربّما شيخ الأزهر!

ليالي بعد الظاعين شُكُورُ طوالٌ ... وليل العاشقين طويلُ
المتنبى

۹

سپتمبر ۱۹۵۹

ذكرى الخطاب التاريخي محفورة في أعماقه. لا تزال النبرة القوية الأخاذة ترنّ في أذنيه:

«قرار من رئيس الجمهورية بتأميم شركة قناة السويس العالمية، شركة مساهمة مصرية».

قناة السويس؟ لا! قناة التخلص من الاستعمار. القناة الموصلة الى الغد المشرق، الذي تصنعه الثورة المصرية للعرب أجمعين.

وهو الآن في طريقه الى القاهرة الثورة، القاهرة جمال عبدالناصر. اضطربت مشاعره بعنف وهو يتخيّل نفسه مع جمال عبدالناصر في مدينة واحدة. من يدري فقد يضمّه يوماً معه شارع واحد. قد يراه رأي العين. قد يصافحه ويتحدّث معه. ولم لا؟ ألم يجب جمال عبد الناصر على كل الرسائل التي أرسلها اليه طلاب المدرسة الثانوية في البحرين؟ ألم يُهدّهم صورته حسب طلبهم؟ صحيح أن التوقيع كان مُجرّد ختم ولكنه توقيع جمال عبد الناصر. لا بُدّ انه يكون قد وقّع الأصل بنفسه.

اتسعت ابتسامته وهو يتذكر المستر هيدلي مُدرّس اللغة الانجليزية. كان يثور كلّما ورد ذكر جمال عبد الناصر. وكان الطلبة حريصين على استشارته بإقحام جمال عبد الناصر في كل شيء. يدخل المستر هيدلي الفصل فيجد على السبّورة، باللغة الانجليزية، «يعيش جمال عبد الناصر». يتأمل الجملة ثم يلتفت الى الفصل:

- أعرف انه من العبث أن أسأل من فعل هذا. الخط قبيح. و«يعيش» لا تكتب هكذا. و«عبد الناصر» يجب أن تكتب بطريقة أخرى.

ويتنهد. ويمسح السبّورة بنفسه. ويدخل يوماً ثانياً فيجد صورة جمال عبدالناصر مُعلقة على الحائط. بهدوء يتمشّى مع سمعة الدم الانجليزي المثلج يزيلها من الجدار ويضعها على الطاولة أمامه:

- بوسع صاحب هذا «الشيء» أن يسترجعه بعد أن أخرج. وعندها يرفع أحد الزملاء اصبعه فجأة:

- مستر هيدلي! هل سمعت خطاب جمال عبد الناصر البارحة؟ لقد تكلم أكثر من ثلاث ساعات.

- يا للمستمعين المساكين.

وزميل آخر:

لم يكن فؤاد يتصور أن الجرح الذي خلّفته علاقته بشاهيناز في روحه سوف يبقى نازفاً طيلة الصيف. عاد الى البحرين بكآبة ثقيلة زادها الصيف الساخن ثقلاً. عاد مزعزع الثقة في نفسه، شكلاً وموضوعاً. لم يهتم بشكله من قبل، أما الآن فهو يتأمل وجهه في المرآة وكأنه يراه لأول مرة. النظارة! لعن الله النظارة! من رأى فتاة جميلة أحبت رجلاً يلبس نظارة طبية؟ فيما عدا ذلك، تبدو ملامحه عادية، لا هي بالوسيمة ولا بالقبيحة. الأنف كبير بعض الشيء. ماذا عن الشارب؟ قد يتحسن شكله إذا تخلّص منه. يحلق الشارب، ويتغير الوجه الى الأسوأ. ويقرر ألا يعود الى حلقة مستقبلًا. ماذا عن الجسم؟ النحافة لعنة لا تفارقه. الهيكل العظمي كما يسمّيه رفاقه أحياناً. من رأى فتاة جميلة أحبّت هيكلًا عظمياً؟ لا بدّ من الرياضة. حمل الأثقال، هو أسرع وسيلة لتحسين المظهر.

الشكل؟! يعرف فؤاد انه يخادع نفسه إذا تصوّر أن مشكلته مع شاهيناز سببها نظارة طبية وقامة طويلة نحيفة. ثم ان كرامته، ما تبقى منها، تحتجّ على مبدأ تغيير الشكل من أجل امرأة. على الذين يحبونه أن يحبّوه كما هو، من غير تحسينات أو تعديلات. وفوق ذلك، هل يمكن العبث بالمظهر من دون الإخلال بالجوهر؟ إذا أزال شاربه ورمى نظارته وغير تسريحة شعره وتحول الى بطل من أبطال حمل الأثقال، ألا يكون، في حقيقة الأمر، قد أعلن أن شخصية جديدة قد حلّت محل الشخصية الأصلية؟ ومن الذي يضمن أن الشخصية الجديدة سوف تكون أفضل من القديمة؟

القلق الذي يعذّبه يتجاوز الشكل. هل هناك مشكلة في نفسيته - أو عقله الباطن؟ - لا يدري عنها؟ كيف اقتصرت علاقاته النسائية في ثلاث

سنوات على ثورية فضلت حزبها عليه، ومطربة فضلت فنها عليه؟ هل لديه حاسة سادسة متخصصة في اختيار المرأة غير المناسبة؟ وماذا عن أدبه؟ ماذا عن القصص والروايات التي ينوي أن يكتبها؟ ألا يحتاج الأدب العظيم إلى إلهام عظيم؟ ألا يحتاج الأديب إلى حب كبير يملأ حياته؟ حب متبادل. حب عاصف. حب أهوج. ومتى سيجيء هذا الحب؟ بعد أن يتجاوز سن الشباب؟ بعد أن تضع أحلى سنوات العمر؟

اقترح عليه زنده أن يذهب للسلام على الحاكم، الشيخ سلمان، وعرض الفكرة على قاسم وتم الاتفاق على أن يذهب الوالدان، وهما صديقان بدورهما، والولدان. ذهبوا بعد المغرب إلى القصر في الرفاع، وكان الشيخ سلمان على الدكة الاسمنتية الصغيرة خارج القصر. كان جالساً على الأرض، يحيط به عدد قليل من الزوّار. رحّب الشيخ بهم ترحيباً حارّاً. ودعاهم إلى أنشاء في الليلة القادمة. وأضاف أن العشاء لنضيفين القادمين من القاهرة. عادا في الليلة التالية إلى المجلس نفسه في الهواء الطلق. وأبدى الشيخ اهتماماً لم يتوقّعه أحد بما يدرسه الضيفان الصغيران.

بدأ بقاسم:

- ماذا تدرس؟

- تجارة، طال عمرك.

- تجارة؟ هل تحتاج التجارة إلى دراسة؟ البركة في الوالد!

ضحك الجميع. واستأنف الشيخ أسئلته:

- كيف يدرسونكم التجارة؟

- ندرس المحاسبة والإحصاء والاقتصاد.

- ولكن كل هذا لا يجعل الإنسان تاجراً. ما رأيك يا أبا قاسم؟

- صدقت، طال عمرك. التجارة موهبة، ورزق من الله.

يلتفت الشيخ سلمان إلى فؤاد ويسأله:

- وأنت يا ولدي ماذا تدرس؟

- القانون، طال عمرك.

- نعم. هذا شيء يمكن دراسته في الجامعات.

ثم تحدث الشيخ طويلاً عن القانون. عن مجلس الغوص الذي رأسه سنين طويلة والذي كان ينظر في قضايا الغوص. وأسهب في شرح الأعراف التي تحكم تجارة اللؤلؤ. ثم تحدّث عن الأعراف التي تنظم الزراعة في البحرين: كيفية اقتسام المياه المشتركة بين البساتين، والعلاقة بين صاحب الأرض والمزارع، والأوقاف الزراعية.

قال فؤاد:

- طال عمرك، العرف، كما يعلموننا في الجامعة، مصدر أساسي للقانون في كل بلدان العالم، لا يقل أهمية عن التشريع.
وردّ الشيخ:

- صحيح. العادات المتوارثة هي الأساس. الذي مشى عليه أجدادنا وآباؤنا نمشي عليه، وندرّب عليه أبناءنا. إذا غيّرنا ما نحن عليه ضعنا.
هل كان الشيخ يتحدّث عن القانون؟ أم يعطي المستمعين درساً غير مباشر في السياسة؟

ثم انتقلوا الى داخل القصر لتناول العشاء. جلسوا مع الشيخ حول سفرة صغيرة عادية، على الأرض. وجلس أتباع الشيخ على سفرة ثانية. وانهمك الشيخ في تقطيع اللحم وتوزيعه على ضيوفه، ولم يكد يأكل شيئاً. تحدّث مع الأبوين عن ذكريات قديمة مشتركة، ولكنه لم ينس أن ضيفي الشرف هما الطالبان القادمان من القاهرة.

يسأل قاسم:

- هل أعجبتك القاهرة؟

يردّ قاسم بدبلوماسية غير معهودة:

- البحرين أجمل، طال عمرك.

يتسم الشيخ، ويقول:

- البحرين؟! البحرين صغيرة! ما فيها شيء! ولكنها بلدنا، وعزّنا، وفخرنا.

ثم يلتفت الى فؤاد:

- هل يدرّسونكم الشرع؟

- نعم، طال عمرك.

- الشرع هو الأساس يا ولدي. كل خير تجده في الشرع. إذا ذهب الدين ذهب كل شيء.

خرج الضيفان مبهورين بتواضع الحاكم وحسن وفادته ومعلوماته القانونية الواسعة. نظر قاسم الى فؤاد متشفيًا:

- متى سيعزمك جمال عبدا لناصر على العشاء؟!

ورد فؤاد بغیظ:

- جمال عبد الناصر مشغول. جمال عبد الناصر رئيس دولة من ثلاثين مليون مواطن.

* * *

رجع يعقوب الى البحرين ممتلئاً بالاشمئزاز من نفسه. لم يكن بحاجة الى السيلان ولا الى المحاكمة ليدرك أن حياته البوهيمية لم تكن سوى بعثرة للوقت والفكر والجهد والصحة. يعرف أن استشهاده بأبو نواس في غير موضعه. لقد بقي اسم أبو نواس عبر التاريخ لروعة شعره لا لروعة حياته. وكذلك الشأن بالنسبة للمعري. هل بإمكانه أن يكون أبو نواس القرن العشرين أو معريه؟! يدرك يعقوب أنه ولد بمواهب متعددة، ولكنه ولد بقدر ضئيل من كل موهبة لن يضمن له الخلود. لن يكون مغنياً عظيماً، ولا شاعراً عظيماً، ولا خطيباً عظيماً، ولا رساماً عظيماً. سبع صنایع والبخت ضایع! بمواهبه هذه يستطيع أن يتسلى ويتسلى الآخرون: يكتب زجلاً يلقي في حفلة، أو يغني أغنية في سهرة، أو يرسم صورة كاريكاتيرية مضحكة. ماذا بعد ذلك؟ لا شيء.

موهبة الحقيقة الوحيدة هي الثورة. إن دخل التاريخ فلن يدخله إلا ثائراً. إن كان سيغير العالم الى عالم أفضل فليس أمامه من سبيل سوى العمل الثوري. منذ طفولته، وهو يمتص النظريات ويخترنها حتى كاد أن ينفجر. آن الأوان للانتقال من النظرية الى الممارسة. إذا لم يبدأ العمل الثوري الآن، في الحادية والعشرين، فمتى يبدأ؟ في الستين؟ الثورة؟ أي ثورة؟ يحس يعقوب أن الثورة الحقيقية الوحيدة هي الماركسية، أو الشيوعية إذا كان لا بُد من تسمية الأشياء بأسمائها. لا يزال معجباً بسارتر ولكن بإمكان سارتر أن يتحدث عن الحرية والمسؤولية الفردية إلى الأبد ولن يتغير شيء من

واقع الاستغلال. لا يزال مؤمناً بنظريات فرويد ولكن بوسع فرويد أن يكتب عن الأحلام والعقل الباطن الى الأبد، ولن تؤدّي كتبه الى وصول البروليتاريا الى الحكم. الثورة، الثورة التي يقودها الحزب الشيوعي، هي أمل الخلاص الوحيد، أمل البشرية وأمل يعقوب.

علمته إقامته في مصر أن الشعارات الناصرية البراقة لم تغير الظلم الاجتماعي الرهيب الذي رآه بعينه. ما الذي تغير منذ أيام الملكية؟ باستثناء مصادرة بعض الأراضي الزراعية لأسباب سياسية بحث استهدفت تقليص أظافر الطبقة الاقطاعية القديمة، لم يتغير شيء. نشأت طبقة جديدة حاكمة من الضباط، أسوأ من الطبقة القديمة وأشرس. الشركات التي أخذت من الانجليز والفرنسيين سلمت للضباط. العمارات الموضوعة تحت الحراسة وُزعت على الضباط. هل تغير وضع الفلاح الذي يكدح في الحقل؟ لم يتغير شيء. ذهب المالك القديم، وجاء المالك الجديد، الجمعية التعاونية، وهي في حقيقتها منظمة حكومية تعامل الفلاحين معاملة أسوأ من معاملة الباشا. هل تغير وضع العامل الذي ينزف دماً وعرقاً في المصنع؟ لم يتغير شيء. لا يزال المصنع مملوكاً لعبود أو أبو رجيلة، أو شقيق أحد الضباط.

والقومية العربية؟ ما جدوى القومية العربية إذا تحولت الى قناع تمارس الرأسمالية تحته كل استبدادها وفجورها؟ ماذا حدث لسوريا بعد الوحدة؟ سُلمت الى عبد الحميد السراج، مجرد جلاد بورجوازي. الرابطة الحقيقية هي التي تربط المظلوم بالمظلوم والجائع بالجائع، شأنها شأن الرابطة التي تربط الظالم بالظالم والمتختم بالمتختم. ما الفائدة من مقاومة الاستعمار إذا ظل الاقتصاد رأسمالياً مربوطاً بالرأسمالية العالمية؟ يحل قيد مكان قيد، والعبودية باقية. أليس خلاف جمال عبد الناصر مع الغرب من قبيل خداع البصر؟ أي خلاف؟ مصر في العهد الناصري قلعة حصينة من قلاع الرأسمالية، وسوريا، بفضل جمال عبد الناصر، تحولت الى قلعة أخرى. لم تجيء الوحدة إلا لسبب واحد: اجهاض الثورة الحقيقية والقضاء على الحزب الشيوعي السوري. والبعث؟ حزب إقطاعي بشعارات اشتراكية مسرقة. ماذا يتوقع العاقل من حزب يملكه أكرم الحوراني، الإقطاعي المعروف؟

كيف غفل عن كل هذه الحقائق في الماضي؟ كيف صفق للوحدة التي كرست سيطرة الرأسماليين؟ كيف تطوع للقتال في حرب الرأسماليين مع

الرأسماليين؟ ينظر يعقوب الآن الى العالم بعيون زالت عنها الغشاوة فيرى الخارطة الفعلية. لا يوجد فرق بين عرب وعجم، كما يزعم دعاة القومية؛ الفرق الوحيد هو بين أبطال الاستغلال وضحاياه. لا توجد حرية فعلية إلا في ظل النظام الشيوعي، أما الديموقراطيات الغربية فتمثيلية ماكرة تخدع البسطاء. رأس المال هو الذي يُقرّر كل شيء، من يصبح الرئيس، ومن يصبح عضو البرلمان، وما على الناخبين إلا الموافقة. عندما تنعدم الحاجة، وما يتبعها من ذل، عندما يصبح الجميع متساوين، عندها، وعندها فقط، يمكن الكلام عن الحرية.

الحرية! يتحدثون عن حرية الكلام. الجائع لا يريد؛ يريد حرية الحصول على الطعام. ويتحدثون عن حرية الفكر. العاري لا يطلبها؛ يطلب حرية الحصول على كساء. ويتحدثون عن حرية المعتقد. المريض لا يفتقدها؛ ولكنه يفتقد حرية الحصول على الدواء. هذا، في النهاية، هو الفرق بين الرأسمالية والشيوعية. الرأسمالية تمنحك حرية الكلام وحرية الفكر وحرية الدين. والشيوعية تعطيك الطعام واللباس والدواء. اكتشف يعقوب في هذا الصيف الحاسم رسالته في الحياة، الرسالة التي ولد من أجلها، الرسالة التي سيعيش في ظلها، الرسالة التي سيموت في سبيلها.

* * *

بعد أسبوعه الثالث في البحرين، شعر قاسم برغبة جامحة في العودة الى القاهرة. ماذا حدث لعقله؟ أين انتقاده القديم المرير لمصر، وكل من في مصر، وكل ما في مصر؟ هل أصابته عدوى من نوع غريب جديد، كميكروب يعقوب النادر؟ اشتاق الى شيرين، الى صوتها الناعم في التليفون، ووجهها الباسم في المحطة. اشتاق الى نشأت والى حديثهما الممتع عن مخازي الثورة. اشتاق الى شقة الحرية والنوافذ المفتوحة، بحري، للنسيم العليل. تذكر أمسيات رمضان الرائعة: المصاييح، والأطفال، والحشّاف، والقطايف، والياميش، وسهرات الفيشاوي حتى الفجر. تذكر العيد القاهري، وأطباق الكحك، وأهازيج الصغار، و«البمب» الذي ينهال من البلكونات على الغافلين والغافلات في الشارع.

شغل نفسه بتعلّم السياقة وحصل على الرخصة. ولكن أين يذهب بالسيارة؟ في أقل من ساعة، يستطيع أن يعبر البحرين من أقصاها الى أقصاها، من الحد الى رأس البر. ماذا حدث للبحرين؟ تبدو أصغر بكثير مما عرفها أيام طفولته وصباه. تبدو، في الواقع، وكأنها زنزانة من حجم

متوسط. أين يذهب؟ مطعم «بابكو». سينما «بابكو». شاطئ «بابكو». وماذا بعد؟ لا شيء بعد!

* * *

وجد عبد الكريم في انتظاره صدمة زلزلت كيانه كما لم يزلزله أي حدث آخر من قبل. بمجرد أن رأى وجه والده، عرف أن مخاوفه القديمة من أن تنتهي سعادته بغتة قد تحققت. قبل يد أبيه ورأسه، والشيخ عابس متجههم لا يتكلم. أدرك عبدالكريم أن أي حديث مع أبيه، في هذه الظروف، سيزيد الطين بلة. انتظر حتى انفرد بأمه وسألها بلهفة:

- ماذا قال الوالد عندما استلم رسالتي؟

- قال انه سوف يتبرأ منك إذا تزوجت المصرية.

- يتبرأ مني؟

- أقسم على ذلك.

- زكن لماذا؟

- سنّة؟ ومصرية؟ وتساألني لماذا؟

- هي مسلمة على أي حال.

- عدوة المذهب؟ أنت لابنة خالتك والسلام.

- هذا ظلم. ظلم.

ظلم؟! لا! أكثر من ظلم. قهر واستبداد وتسلط وديكتاتورية. بأي حق يتخذ أبوه قراراً كهذا؟ من أعطاه حرية تدمير حياته على هذا النحو؟ كيف يمنع من زواج المرأة التي يحبها وهو متزوج بأربعة، غير زوجات المتعة في إيران؟ لن يرضخ ولن يستسلم. ولن يسمح لأبيه بمصادرة حقه في الحرية والسعادة، حتى لو كان شيخاً. ليتبرأ منه أبوه إذا شاء. وليقطع عنه المصروف إذا أراد. ولكنه لن يذعن. سوف يعود الى القاهرة، ويتزوج فريدة، ويثبت للدنيا كلها، ولأبيه بصفة خاصة، ان الحب الحقيقي يحطم كل العقبات، ويكتسح كل الحواجز. ولكن لا بُدّ من الحذر. من التخطيط. التقية! آه، التقية! ألم يقل الامام جعفر الصادق «التقية ديني ودين آبائي»؟ هذا وقت التقية. سوف يتمسكن حتى يتمكن.

غير أن شيئاً آخر يشغل عبد الكريم. لم تنقطع رسائله لفريدة، بمعدل رسالة كل يوم، رسالة مليئة بالشوق لا تذكر شيئاً عن موقف أبيه. جاءت

رسالة من فريدة، وثانية، وثالثة، ثم توقفت الرسائل. حاول أن يتصل بها تيلفونياً. بعد صعوبات شديدة وانتظار طويل قال له «ترنك» القاهرة ان الرقم لا يجيب. كتب الى نشأت يرجوه أن يتصل بها ويسألها عن سبب انقطاعها عن الكتابة، وردّ نشأت أنه حاول الاتصال ولم يستطع. أطبقت الوسواس السوداء على عبد الكريم. شئ مرضت؟ هل أصيبت في حادث؟ عطلة منحوسة من أولها الى آخرها!

* * *

عبد الرؤوف في البوفية يهزّ في وجه فؤاد المجلة وهو يضحك:
- سيررك يا فؤاد! مبروك! حصلت قصتك على الجائزة الرابعة. ونشرت في المجلة.

- وأنت؟

- حصلت على الجائزة الثانية.

- مبروك يا رؤوف! ألف مبروك!

يأخذ فؤاد مجلة نادي القصة ودقّات قلبه تسبق يده. ها هي ذي أمام عينيه قصته «الغثيان». وما هي ذي قصة عبد الرؤوف «الساعة». وقد حصل كل منهما على جائزة. هذا منعطف حقيقي في حياتيهما. لم يسبق لعبد الرؤوف أن نشر قصة من قبل، وكانت قصصه هو منشورة في صحيفة بحرينية، لعلها نشرتها من باب المجاملة. أمّا الآن فنادي القصة المصري يعترف بموهبته. ويمنحه الجائزة الرابعة في مسابقة النادي، اشترك سنة في المجلة، وينشر القصّة.

يضيف عبد الرؤوف:

- هل تعرف أن نجيب محفوظ هو الذي رأس لجنة التحكيم؟

- نجيب محفوظ؟! تعني ان نجيب محفوظ قرأ قصتي وقصتك؟!!

- بالتأكيد.

- هل أعجب بهما؟

- يبدو ذلك. اسمع. عندما ذهبت الى النادي لأستلم جائزتي، ثلاثين جنيهاً دفعة واحدة، قال لي رئيس تحرير المجلة الأستاذ أحمد عبدالباري انه يستطيع أن يعرفني على الأستاذ نجيب محفوظ، ولكنني فضّلت الانتظار حتى تعود ونراه معاً.

- الأستاذ نجيب محفوظ؟!!

- نعم. ما رأيك؟

- متى؟ متى؟ متى؟

- سوف أتحدث مع الأستاذ عبد الباري وأخبرك.

في المقهى الشعبي البسيط، جلس نجيب محفوظ تحيط به مجموعة من الأدباء، المخضرمين والناشئين. ما أعظم الفارق بين مجلس ميشيل عفلق ومجلس نجيب محفوظ. ميشيل عفلق يتصرف وكأنه نبي يحف به حواريوه. أما نجيب محفوظ فمجرد واحد من الشلة، مجرد حرفوش من الحرافيش. لا توجد هنا نظرات تقديس، ولا كلمات حكمة ساقطة من عل، بل مجموعة أصدقاء يتبادلون النكت والتعليقات ويدخنون الأرجيلة. يقدمهما الأستاذ عبد الباري، ويرحب بهما نجيب محفوظ ويهنئهما بالفوز. ويعود الى شلته. يستجمع فؤاد أطراف شجاعته ويتكلم:

- أستاذ نجيب! ممكن آخذ منك نصيحة؟

- نصيحة؟ يا ابني أنا لا أعطي نصايح. إذا كنت تريد نصيحة اكتب لأمانة السعيد.

ضحك الموجودون. واستمر فؤاد:

- ممكن، إذن، أن أسألك سؤالاً؟

- تفضل.

- هل تعتقد أن بوسع كاتب القصة القصيرة أن يكتب رواية؟ أعني هل القصة القصيرة فن مختلف عن فن الرواية؟

- القصة، أساساً، فنّ واحد، سواء كانت طويلة أو قصيرة. ولكن هناك فرق. الرواية تحتاج الى جلد طويل، الى مثابة عبر سنين. أما القصة القصيرة فيمكن أن تكتب في يوم. أو في ساعة.

- إذن فكاتب الرواية يستطيع أن يكتب القصة القصيرة؟

- إذا أراد. ولكن كاتب القصة القصيرة لا يستطيع أن يكتب الرواية إلا إذا أعطي صبر الروائي.

- وأنت يا أستاذ؟ كيف تكتب رواياتك؟

- بالقلم!

- انظر! مستر هيدلي! صورة مُوقَّعة من جمال عبدالناصر تلقيتها اليوم.
ألا تريد أن تراها؟

- كلا! كلا! أعرف شكله ولست حريصاً على النظر الى صورته.
كنت أعتقد ان ارسال الصور عادة تقتصر على الممثلات.

وتنقضي الحصة في جدال حول جمال عبد الناصر. ويضرب الطلاب
ثلاثة عصافير بحجر واحد: يُدافعون عن القومية العربية، ريزعجون المدرّس
الاستعماري، وتمر الساعة من دون أي مجهود.

إلا أن هذه الخواطر اللذيذة لا تستطيع أن تنسيه الاعتبار العملية.
هل سيستقبله أحد في المطار؟ وأين سيسكن؟ وكيف سيلتقي بأصدقائه
الذين سبقوه الى القاهرة وهو لا يعرف عنوانهم؟ ويحاول أن يجيب على
الأسئلة بهدوء، واحداً واحداً. بالنسبة للاستقبال أرسل أبوه في الأسبوع
الماضي برقية الى الأستاذ شريف الذي سيتولى الإشراف عليه في القاهرة.
ولا بُدّ أن الأستاذ سيرسل من يستقبله إذا لم يستقبله بنفسه. وفي أسوأ
الحالات لديه عنوان الأستاذ في الدقي وإمكانه أن يذهب اليه مباشرة. أما
عن السكن فلا بُدّ أن يكون الأستاذ قد رتبته قبل وصوله. وفيما يتعلق
بأصدقائه فسوف يكونون في عمائر المؤتمر الاسلامي. ولا شك أنه من
السهل الحصول على عنوان العمائر من الأستاذ شريف، أو من المؤتمر
نفسه. الأمر بسيط جداً.

غير انه يدرك في أعماقه ان الأمر ليس بسيطاً. يتصوّر نفسه وحيداً في
القاهرة بملايينها الثلاثة. كم عدد الأشخاص الذين يعرفهم هناك؟ عشرة،
على أكثر تقدير. نقطة في محيط. يتصوّر نفسه ضائعاً في غمار البشر.
تائها في الأحياء ذات الأسماء الغريبة. «العجوزة»! يا له من اسم مضحك.
تُرى من أين جاء الاسم؟ هل كانت تسكن الحيّ امرأة شمطاء؟ هل هو
أقدم أحياء القاهرة؟ وما قصة «شارع نوال» حيث يعيش الأستاذ شريف؟
هل هناك سيّدة اسمها نوال؟ وهل لا تزال تسكن الشارع؟ وماذا عن
«جاردن سيتي»؟ كيف يبقى جمال عبدالناصر على الأسم الانجليزي بعد
انتهاء عهد الاستعمار؟

ما أكثر ما يعرف عن القاهرة قبل رؤيتها. شاهدها في الأفلام
والصحف وحدّثه عنها الزوّار. لم يكن أساتذته المصريّون في الابتدائية
والثانوية يملّون الحديث عن القاهرة. وتراكمت المعلومات. حديقة الأندلس

ويضحك الموجودون. ويحمر وجه فؤاد. ويستطرد نجيب محفوظ:
- يا ابني كل شيخ وله طريقة. إذا كنت موهوباً فسوف تكون لك
طريقتك الخاصة. اصبر. لسه بدري!
- ولكنني أريد أن أعرف...
يتدخل الأستاذ عبد الباري:
- استغرقت كتابة رواية واحدة من روايات الأستاذ نجيب أكثر من
خمس سنين.

ويعلق نجيب محفوظ:
- هذا صحيح. ولكن العبرة ليست بالزمن. كم من يوم قضيته وراء
المكتب من دون أن أكتب حرفاً واحداً. وكم من ساعة كتبت فيها
صفحات.

يتدخل عبدالرؤوف على استحياء:
- هل هناك الهام في القصة يا أستاذ؟ كالشعر؟
يرد الأستاذ:

- لا أدري عن الشعر. أسأل الشعراء. في القصص لا يوجد الهام. ما
فيش شياطين شعراً! هناك العالم الخارجي الذي تراه أمامك، البشر
والأشياء. هذه هي المواد الخام للقصة. وهناك العالم الداخلي للكاتب،
الموهبة، الحساسية، الثقافة، التجربة. من هذين العالمين تنبع القصة.

يسأله عبد الرؤوف:

- وما رأيك في المرأة يا أستاذ؟

- أنني فيهم؟!

تضح المجموعة بالضحك. ويشعر عبد الرؤوف بالخرج ولكنه يواصل:
- أعني يا أستاذ هل يحتاج الأديب الى حب لكي ينتج؟
- لا أدري.

لا يصدق فؤاد أذنيه. سؤال بديهي كهذا والأستاذ يزعم انه لا يعرف
الجواب. ويتدخل:

- إذا كنت أنت يا أستاذ لا تدري، فمن الذي يدري؟

- يا ابني لم يعمل أحد احصائية عن كل أدباء العالم وعن غرامياتهم
لنعرف الذين أحبوا والذين لم يحبوا. كيف أجيبك؟

- ويقرّر فؤاد أن يغامر:
 - إذن سأسألك عن نفسك يا أستاذ. هل أحببت؟
 - يوه!!
 - كم مرّة؟
 - ثلاث مرات في اليوم. قبل الأكل!
 ويضحك فؤاد مع الضاحكين.

* * *

عندما صمّم يعقوب خلال الصيف على أن ينضمّ الى الحزب الشيوعي كان يدرك انه يخاطر بحريته، وربما بحياته. خطوة واحدة طائشة وينتهي في السجن. من هنا، كان حريصاً على أن يتبيّن مواقع أقدامه قبل التحرك. أخفى عزمه حتى عن رفاقه، الذين أقنعوه بلا صبر، بالتراجع عن قرار الهجرة من شقة الحرية. وقرّر أن يستمر في ارتداء مسح الوجودي البوهيمي من باب التضليل. كانت مشكلته الكبرى هي كيفية الانخراط في الحزب. كيف يجد شخصاً يثق فيه يدلّه على الطريق؟

كان لدى يعقوب اقتناع راسخ أن الأستاذ صبحي على صلة بالحزب. وكان يثق في صبحي ثقة عمياء. قرّر أن يكتب له. إلا أنه يرى أن جميع الرسائل التي تصله في القاهرة تصل «مفتوحة بمعرفة الرقيب» كما يقول الختم الرسمي بلا حياة. بعد تقليب الأمر على وجوهه، كتب لصبحي من البحرين رسالة غامضة آملاً أن يتمكن صبحي من قراءة ما بين السطور:

«أخي الكريم الأستاذ صبحي

فضلت أن أرسل اليك هذه الرسالة من البحرين لأسباب لا تخفى على فطنتك. وهي تتعلق بموضوع هام جداً مرتبط بمستقبلي. أرجو أن تكتب لي باسم شخص تثق فيه لأبحث معه الموضوع. ولكن أرجو أن ترسل الردّ الى البحرين على عنوان الوالد الذي سيقوم بإرساله لي بطريقته الخاصة. مع أطيب تحياتي وتمنياتي القلبية.

أخوك المخلص

يعقوب»

أوصى أباه ألا يرسل الخطاب القادم من باريس بالبريد بل ينتظر سفر شخص يعرفه ليحمل الخطاب بيده الى القاهرة. بعد وصوله الى القاهرة بأيام جاء رد الأستاذ صبحي عن طريق البحرين:

«الأخ العزيز يعقوب

استلمت رسالتك. وبامكانك أن تبحث ما شئت، وأنت مطمئن، مع صديق من أعزّ أصدقائي، يعمل صحفياً في الأهرام، في الملحق الاقتصادي. اسمه عزت مختار. وبامكانك الاتصال به في الجريدة. مع خالص تحياتي.

المخلص

صبحي»

اتصل يعقوب حال تسلمه الرسالة بعزت الذي كان، فيما يبدو، يتوقع مكالمته. اتفقا على اللقاء في الشقة الصغيرة التي يسكنها عزت في الباسية. بعد مقدمة لم تطل، اتجه يعقوب الى الهدف:

- يا أستاذ عزت، منذ قرابة سنتين وأنا أعتقد المبادئ الماركسية. والفضل في هذا يعود الى الأستاذ صبحي. وكل يوم يمرّ يزيدني إيماناً بهذه المبادئ. أشعر الآن انه لا يكفي أن أعتقد النظرية ولا بُدّ من العمل. باختصار، يا أستاذ عزت، قررت الانضمام الى الحزب الشيوعي. هل تستطيع أن تساعدني؟

يصمت عزت، ويستمر يعقوب:

- بامكانك أن تثق بي. لا تخف.

ويتكلم عزت وكأنه يزن كل حرف بلسانه قبل النطق به:

- المسألة ليست مسألة خوف. هذه مفاجأة. لماذا تعتقد ان لي علاقة بالحزب الشيوعي؟

- لا أعرف انساناً يمكنه مساعدتي سوى الأستاذ صبحي وهو الذي أشار عليّ بك.

- يا أخ يعقوب! ألا تعرف وضع الشيوعيين في مصر هذه الأيام؟ الرئيس يهاجم خروشوف وخروشوف يهاجم الرئيس. العلاقات مع الاتحاد السوفييتي من أسوأ ما يمكن. كل الشيوعيين المعروفين أصبحوا في السجن يتعرضون لأقصى أنواع التعذيب.

- أعرف كل هذا. وأنا مستعد لمواجهة أي مصير.
 - القضية ليست بهذه السهولة. لا أستطيع أن أعدك بشيء. أحتاج الى
 بعض الوقت قبل أن أرد عليك.
 - أرجو أن لا تتأخر.
 - سوف أتصل بك.
 - متى؟

- لا أدري. بعد شهر. أو أكثر. لا داعي للعجلة. لن تطير المعتقلات!
 غادر يعقوب الشقة وهو يسمع نبضات قلبه صارخة في أذنيه. يشعر
 بحركة الدماء تجري، ملتعبة، في عروقه. يحس أنه بدأ الطريق الى المجذ، أو
 السجن، أو القبر. ويحس بشوق عارم الى احتضان واحد من هذه
 الخيارات، أو جميعها.

* * *

عندما عاد الأصدقاء من البحرين وجدوا نشأت في انتظارهم في المطار
 ومعه مفاجأتان. الأولى، سيارة مارك «نصر». والثانية، حسناء مارك
 سويسرا. عاد قاسم معه في السيارة، بينما استقل الآخرون التاكسي.
 بدأ قاسم:

- مبروك السيارة. ومبروك البنت.
 - هيلدا! هذا صديقي قاسم. انتبه هيلدا تعرف العربية.
 - لنبدأ بالسيارة.
 - بدأت المحاولة مع والدي منذ أن أنهيت التوجيهية، ولم أنجح إلا الآن.
 أخيراً اقتنع والدي أن السيارة لن تشغلني عن المذاكرة. كنت أفضل سيارة
 أكبر، ولكن هذا هو الموجود. «فيات» مُزوّر باسم «نصر»!
 - والبنت؟

- هيلدا سويسرية يعمل أبوها في السفارة السويسرية هنا.
 - وكيف نعرفت عليها؟
 يلتفت نشأت الى هيلدا ويقول لها بالانجليزية:
 - قول لي لقاسم كيف التقينا.
 وتجيب بالانجليزية:

- جمعتنا هواية الخيول. رأيت في نادي الفروسية في الأهرام عدة مرات.
وسابقته. وسبقته. وتعرفنا.

يضيف نشأت ان هيلدا تدرس في الجامعة الأميركية في القاهرة وانها
قضت أكثر من سنتين في مصر. وانها تتقن اللغة العربية. يلاحظ قاسم
مدى اعجاب نشأت بها، ويؤكد نشأت الملاحظة:

- شوف يا قاسم! الحاجات الحلوة بتاعة برّه! مش الفلاحات اللي في
الكلية.

كل من لا ينتمي الى الطبقة الأرستقراطية القديمة في نظر نشأت فلاح،
أو فلاحه.

ويضحك قاسم:

- من يدري لعلها من فلاحات سويسرا.

وترد هيلدا:

- أنا مش فلاحه!

فجأة تتجهّم أسارير نشأت:

- اسمع يا تاسم. لقد حرصت على أن تركب معي حتى نستطيع أن
نتحدّث في الطريق قبل الوصول الى البيت. الأمر يتعلق بفريدة. لا أدري
كيف أنقل الخبر الى كريم.

- ماذا حدث لها؟ كان يشكو انقطاع رسائلها. هل هي مريضة؟

- لا. هي في صحة ممتازة، وفي غاية السعادة. المشكلة ليست فريدة.
المشكلة كريم.

- تكلم!

- باختصار، أثناء الصيف جاء لفريدة خطيب، ضابط في الجيش، برتبة
يوزباشي التي أصبحت الآن نقيب بركة الاقليم الشمالي، ووافقت، ووافق
أهلها، وتزوجا.

- بهذه السرعة؟

- يبدو انهم اعتبروه لقطة. ألم أقل لك ان الضباط هم الملوك الجدد في
مصر؟

- وكيف عرفت أنت بكر هذا؟

- عندما انقطعت رسائلها عن يعقوب كتب اليّ يطلب أن أتصل بها وأطمئنه. وبالفعل كلمتها، واجتمعنا، وأخبرتني بعزمها على الزواج. رجّيتي أن أشرح لكريم أنّه لم يكن بوسعها أن تضئع الفرصة. وأقسمت انها لم تكن تتوقع حدوث شيء كهذا، ولكنه القدر. وكل ما تتمناه من كريم ألا يحقد عليها، وأن ينساها.

- ينساها؟!!

- أعرف ان ذلك مستحيل. ولهذا فضّلت أن تتشاور قبل أن أتحدّث مع كريم. هل أحاول اخفاء الحقيقة؟ أم أبلغه الخبر بالتقسيط؟ أم دفعة واحدة؟ - أين فريدة الآن؟

- في الاسكندرية. في شهر العسل.

- سوف تكون هناك صدمة هائلة مهما كان الأسلوب. وسيزيد من قسوتها انها جاءت بعد رفض أيه فكرة الزواج. كان يريد أن يثبت أن الحب فوق كل شيء. والآن يتبيّن أن البيوزباشي فوق الحب. - ما رأيك؟

- رأيي أن تهرب الآن وتؤجل الموضوع الى الغد. سوف نكون معك عندما تبلغه بما حدث. وسوف نحاول جهدنا التخفيف عنه. بمجرد أن رأى عبد الكريم الوجوه المقطّبة حوله، انكمش قلبه في أضلاعه. فريدة! ماتت!

يبدأ نشأت:

- يا كريم، أنت إنسان مؤمن بالله وبالقدر...

ويقاطعه عبد الكريم:

- أرجوك! أرجوك! قل لي هل ماتت؟

- أعوذ بالله. أطمئن من هذه الناحية. صحتها ممتازة.

- إذن ما هي مصيبة القدر التي يجب عليّ أن أتحمّلها؟

- خلال الصيف تقدم لفريدة خطيب، ضابط في الجيش أمامه مستقبل مرموق، وكما تعرف فالبنات في مصر هذه الأيام يفضلن الضابط على الطبيب والمهندس...

يقاطعه عبد الكريم:

- ووافقت؟

- نعم.

- وتمت الخطوبة؟

- تزوجا. وهما الآن في شهر العسل. وقد طلبت إليّ فريدة أن أبلغك بحياتها ورجاءها أن تنساها.

قبل أن يعلّق أحد، قام عبدالكريم، وعلى وجهه صفرة الموت، ودخل غرفته، وأغلق الباب بالمفتاح. بعد ثوانٍ تسرب صوت نشيج مكتوم يصدر من حيوان جريح. ارتفع النشيج شيئاً فشيئاً، حتى ملأ الشقة ثم تحول الى عويل. عيشة، الشغالة الأربعينية السمينية التي حلت محل هانم، تسأل باستغراب:

- خير يا جماعة؟ الراجل بيصوّت كده ليه؟
يتبادل الرفاق النظرات المحرجة، وينفضّ المجلس.

* * *

مضى اليوم التالي بأكمله في اجراءات التسجيل، والحصول على «الكارنيه» الجديد، والملازم الجديدة. السنة الثالثة في كلية الحقوق تعتبر، بإجماع الآراء، أصعب سنوات الكلية وأثقلها ظلاً. من ناحية، هذه سنة قانون العمل الذي يدرّسه الدكتور جمال زكي. وللدكتور جمال زكي شهرة عمّت كليات الحقوق في مصر، وتسربت الى خارج مصر. يؤمن الدكتور، ويصرّح في كل مناسبة، ان درجة «ممتاز» تعني الكمال، والكمال لله وحده، وهي، بالتالي، تستعصى على البشر أجمعين. كما يؤمن بأن درجة «جيد جداً» هي الدرجة التي سيحصل عليها هو نفسه لو انه أخذ الامتحان. أقصى ما يمكن أن يطمح اليه الطالب، إذا كان نابغة، تقدير «جيد». أما الطالب، المجتهد فأقصى ما يمكن أن يحلم به تقدير «مقبول». أما بقية الطلبة فمصيرهم بين «ضعيف» و«ضعيف جداً». نتيجة هذه الفلسفة الغريبة التي يطبقها الدكتور بدقّة متناهية لا تتجاوز نسبة النجاح في مادته ربع الطلاب. عبثاً، ضج الطلبة وتذمروا. عبثاً، اشتكوا. تعددت الحالات التي ينجح فيها الطالب في كل مواد السنة الثالثة وكل مواد الليسانس ويفشل في الحصول على الشهادة لأنه رسب في قانون العمل، مرة بعد مرة. بلغ من دعر الطلاب أن عدداً منهم كان يحوّل أوراقه الى كلية حقوق عين شمس أو الاسكندرية بمجرد أن يصرّله الى السنة الثالثة. كما بلغ

اليأس بمجموعة من الطلبة حد الذهاب الى القصر الجمهوري وتقديم شكوى الى رئيس الجمهورية. وجاء الرد من الرئاسة بأن الشؤون الأكاديمية تخص الجامعة وحدها. وسمع الدكتور جمال زكي بما حدث. تزعم الرواية أنه بدأ محاضراته على النحو التالي:

«بلغني أن نفرًا منكم ذهبوا الى رئاسة الجمهورية مطالبين بعزلي. وأحب أن أؤكد لكم أنني باقي ما بقيت هذه الجدران. حتى إذا ما سقطت، فسوف أبقى لأدرس قانون العمل في الهواء الطلق».

من ناحية ثانية، يتضمن المنهج عددًا من المواد المعقدة، كقانون الأحوال الشخصية لغير المسلمين، وقوانين الاجراءات، وهي، فوق تعقيدها، مملّة لا تطاق. من ناحية ثالثة، ينصب مُقرّر الشريعة على المواريث، وهي أكثر موضوعات الشريعة صعوبة. ويتولى تدريس المادة أستاذ غير الشيخ أبو زهرة، يفتقر الى علم الشيخ وخبرته وقدرته على الشرح وخفة روحه. من ناحية رابعة، تتضمن مادة القانون المدني، في الترم الثاني، جزءًا بالفرنسية يُخصّص له نصف الدرجة، ولم يكن في المجموعة، باستثناء نشأت، من يعرف حرفًا واحدًا من الفرنسية. يستقبل فؤاد سنته الدراسية الثالثة بقدر كبير من التشاؤم.

لم يلحظ أحد أن عبدالكريم لم يكن مع الشلّة في الكلية. ولم يعن لأحد أن يتساءل أين ذهب، أو أن يربط بين غيابه وبين الخبر الذي سمعه من نشأت. عندما عادت المجموعة، لم تجد عبد الكريم في الشقة. وعندما جاء المساء ولم يظهر بدأ الأصدقاء يحسّون بالقلق. ذهب فؤاد الى غرفة عبدالكريم فوجد على سريريه ورقة بيضاء خالية إلا من سطر واحد: «الوداع. غداً تجدون جثتي على النيل».

أمسك يعقوب بزمام الموقف:

.. النيل؟ لا بُدّ من التفكير الهادئ المنطقي. ما هي المحلات الواقعة على النيل التي نرتادها، والتي كان كريم يرتادها مع فريدة؟

يرد قاسم:

.. «كازينور». «كازينو» «قصر النيل». «كازينو» «الشجرة». لا يوجد غيرها.

يقول يعقوب:

- أعتقد انه في واحد منها. لو كنت مكانه لذهبت الى واحد منها وسكرت، قبل القاء نفسي في النيل.

يقول فؤاد:

- لا تضيعوا الوقت. سوف أذهب الى «كازينور». ويذهب قاسم الى كازينو «قصر النيل». ويذهب يعقوب الى كازينو «الشجرة».

وجده يعقوب على طاولة نائية بمفرده. وبمجرد جلوسه، اكتشف أن عبدالكريم استهلك كمية هائلة من البيرة. التفت اليه عبدالكريم مذهولاً وسأله بلسان مُقَتَّد:

- يعقوب؟ كيف عرفت أنني هنا؟ لا تحاول أن تغير رأيي.

- لن أحاول أن أغير رأيك. هل تسمح لي أن أشرب كأساً معك؟

- تفضل.

تأتي زجاجة «الستلا». ويواصل عبدالكريم الحديث. وتجيء كلماته مبعثرة، مقطعة الأوصال:

- لن أغير رأيي. سوف ألقى بنفسي في النيل. من هنا. وأغرق. وأرتاح. أرتاح من هذا العالم القذر. أرتاح من أبي. أعني الشيخ. نحن في البيت لا نسقيه إلا الشيخ. أرتاح من الشيخ. ومن فريدة. ومنكم. لا تحاول تغيير رأيي. اتخذت قراري وانتهى الأمر. سوف أقفز الآن أمامك. لا تحاول منعي.

- لن أحاول منعك. اشرب! في صحتك!

- سوف أنتحر الآن. أمامك. أمام الجميع. ما قيمة الحياة؟ طُزّ في الحياة. وطُزّ في فريدة. وطُزّ في الضباط. وطُزّ في الشيخ. وطُزّ فيكم.

- وطُزّ فيك! اشرب الآن!

عندما وصل قاسم وفؤاد الى كازينو «الشجرة» كان عبدالكريم قد تجاوز مرحلة الاحساس. اقتاده الثلاثة كما يقتاد رجال البوليس مجرماً خطراً، فؤاد يمسك بساعده الأيمن، وقاسم يمسك بساعده الأيسر، ويعقوب يدفعه من الخلف، حتى دخلوا الى التاكسي. عندما وصلوا الى العمارة حملوه حملاً على السلم. ما كادوا يضعونه الى فراشه حتى دخل في غيبوبة لا تختلف عن الموت الذي كان يبحث عنه في أعماق النيل.

۱۰

نوفمبر ۱۹۵۹

أجمل حديقة في الشرق الأوسط. جنينة الحيوانات ثاني جنينة في العالم بعد جنينة لندن. وهناك ساعة هائلة من الزهور في القاهرة، ساعة تتكلم. وفي حلوان حديقة يابانية لا يوجد ما يماثلها حتى في اليابان. المنامة؟ تستطيع أن تضعها في شارع من شوارع السيدة. البحرين؟ تستطيع أن تخفيها كلها في شبرا ولا تعثر عليها أبداً.

والبنات؟ البنات! جميلات كبطلات الأفلام. مثل إيمان نجمته المفضلة. وتحرّرات كالفتيات في الأفلام وفي قصص إحسان عبد القدوس. في البحرين منذ سنين قليلة رفضت بنت من عائلة معروفة أن ترتدي العباءة فأحدث ضجة كبرى. كم عدد البنات السافرات في البحرين؟ لا يتجاوز العشرين. أكثرهن من المسيحيات واليهوديات العراقيات. أما في القاهرة فكل البنات سافرات، إلا الريفيات والعجائز، ومن يريد سفورهن؟ البنات! وسرح به الخيال. هل ستكون له صديقة؟ هل سيذهبان الى سينما «مترو» (أحسن سينما في العالم العربي)؟ وإلى حديقة الأندلس؟ وإلى جنينة الحيوانات؟ وكيف سيتعرف على هذه الصديقة؟ في الجامعة هناك اختلاط والمسألة بسيطة كما يقولون. ولكن أمامه سنة كاملة في التوجيهية، سنة بلا اختلاط. لا داعي لليأس. قد يتعرف على بنت في العمارة التي يسكنها. أو في العمارة المقابلة. سمع من زملائه ان كثيراً من الصداقات بدأ بابتسامة تنتقل، كالفراشة، عبر الشارع، من بلكونة الى بلكونة.

غير أن هناك شيئاً واحداً لن يفعله أبداً وهو التعامل مع المحترفات. رغم الأوصاف الشهية. رغم القصص الكثيرة التي سمعها. بعضهن صغيرات، طبيئات، مهذبات، لا تكاد تفرق بينهن وبين البنات العاديات. ولكنه يعرف انه لا يستطيع أن يحب جسداً يباع بالمال. بدراهم معدودة تهدر كرامة المشتري والبائعة. تذكر «جرندول» حي اللذة المحرمة في البحرين، هدية بغیضة من هدايا الاستعمار. تذكر الرعب الذي اعتراه عندما اقترح أحد أصدقائه، قبل شهور، أن يقوموا بزيارة بيت من بيوت الحي. سوف تكون له صديقة في القاهرة، ولكن لن يصادق محترفة. أبداً. أبداً. أبداً.

يعود مرة أخرى الى الواقع. تقفز الى ذهنه مشكلة التأشيرة. ليس في جوازه تأشيرة ولكنه سوف يُعطى تأشيرة اضطرارية في المطار يحصل بعدها على الإقامة كما أكد الخبراء. لم القلق؟ سوف يرتب الأستاذ شريف «كل شيء» كما طمأن أباه أكثر من مرة. عرف الأستاذ شريف قبل ثلاث سنرات عندما كان مديراً للمدرسة الثانوية (ورئيس البعثة

إنني لأعلم... واللبيبُ خبيرُ أن الحياة، وإن حُرمتْ، غرورُ
المتنبي

«يرتجف محمدان. انكمش داخل ثابه الال أصبأ، لكأرة أقوبها، كالمصفاة. يرتجف رغم المصفاة الأأرى، البأانأة المهأرة. على أمله يرأ أبوه، الأأ مألوف، وعلى أساره أخوه الأصغر أسنان. مأأان فف الالأة عأرة ولكناه المسأول عن إعالة أفه وأأفه، منذ أن صأما سفاة مسرة والاه وأعأاه مأعأاً لا فأأرك إلا زأفاً ولا فقوم إلا مسأناً على عأاز. كل ما فسأفع الأب المأعأ عأله هو لف سأائر أأأأة من أعأاب السأائر الأأأة الال فأمعها مأأان. فأولف الأخ الأصغر ففع السأائر الأأأة/الأأأة بأمن بأس، العأرة بأقرش صاأ وأأأ. لا فسأفع الأأل الصأفر أن فوفر للأسرة سول هذا القفص الأأشبف على سأأ هذه العمارة المأالكة، القابعة فف زقاق مألم من أزقة الأأرة الأأأة.

فصأو مأأان على صأ الأذان. فذهب لشراء الفول زالأز. وفعوا ففأأ الشافف رفوقأ أباه وأأاه. مزأأ أفه أسوا هذا الصبأ. كل صبأ. منذ أن بدأ السعال والبصق المأأأر. الضأفة، دائماً وأبأاً، هو مأأان. فأنأز أبوه أف فرصة لشأمه، أو أهأأه بفأازاه، أو لأمه. ومأأان فأرك، بالفأرة، أن أباه لا فنول شراً. ففهم، بأرفقة غامضة، أن أباه لا فسأفع الأعبفر عن ألمه إلا فأنزال الألم به. وفأأأ مأأان فأرافا أفه بصفر ففوق صفر الرأال.

فأنأف الأفأار، وأبأاً الأولة الفوففة بأأاً عن الأعأاب. وكلما أمألاً الكفس عاا مأأان لففره عأا أفه وفعوا إلى الشارع. البأأ عن الأعأاب عملفة شاقفة مأأوفة بالأأأار. كأراً ما فضطفر إلى عبور الطرفق، فف وأه السفارا الأأأة والأأأة، فلفأأ عأباً وأأأاً. كأراً ما فضطأم بفأان أكبر منه، فعملون فف «الكار» ففسه. وكأراً ما فلقى المأاعب من رأال البولفس.

الأوتوبيس هو أفضل مكان لجمع الأعقاب. ينتظر محمدان حتى يصل الأوتوبيس الى المحطة الأخيرة ثم يقفز اليه في الدقائق التي تفصل بين الوصول والانطلاق من جديد. يدور بين المقاعد كالخذروف. ويدخل تحتها، كالدودة. وعندما يخرج يكون قد نظف الأوتوبيس تنظيفاً كاملاً من الأعقاب.

يجيء الأوتوبيس ممتلئاً حتى السقف. ويغادر الركاب متدافعين. يدخل محمدان كالعادة. ويغطس تحت المقعد. عندما يرفع رأسه يرى حذاء ضخماً ينبثق منه كمساري ضخم على وجهه تكشيرة ضخمة:

- بتعمل ايه هنا يا حرامي يا مجرم؟

- بالأم السبارس بس والله.

- سبارس؟! وزيني ايه ده اللي في إيدك؟ محفظة نشلتها؟

- يا عمّ حرام عليك. ده كيس السبارس.

- سبارس؟! يا ابن الكلب، يا وسخ.

ينزل الحذاء الضخم على يده اليمنى. ويصرخ محمدان. ويضغط الحذاء. ويكي محمدان. ويزداد ضغط الحذاء. ويسمع محمدان صوت أصابعه وهي تتكسر. ويترك كيسه، وينطلق كأنه ذئب صغير جريح. ويعوي.

بمجرد دخوله، وقبل أن يتمكن من شرح ما حدث، يصرخ أبوه:

- تعال هنا يا واد.

ويدنو من أبيه ويصرخ الأب:

- رجعت بدري ليه؟ فين الكيس؟ ضيعته؟ ضيعته يا ابن الكلب يا

وسخ...

ويهوي العكاز على يده اليسرى. ويسمع محمدان نفس الصوت الذي سمعه في الأوتوبيس. ويعوي. ويعوي.

* * *

يقول فؤاد:

- ليتك كتبت قصتك هذه السنة الماضية يا رؤوف. كنت استعرتها

منك وقدمتها للأستاذ ميشيل عفلق. لا شك انه كان سيُسّر بها.

- لماذا؟

- لأنه لا يعترف بالأدب البورجوازي. لا يعترف إلاً بالأدب الذي يخدم قضية الكادحين.

- لم أقصد خدمة قضية. صوّرت مشهداً رأيته ذات يوم بعيني.

- رأيت بعينك طفلاً تُكسر أصابع يده اليمنى وأصابع يده اليسرى في ساعة واحدة؟ بالله عليك، أين رأيت هذا؟

- رأيت ما حدث في الأوتوبيس منذ ثلاث أو أربع سنوات. لا أدري إذا كانت أصابع الولد قد انكسرت بالفعل ولكنني لا أستبعد ذلك.
- وبقية التفاصيل؟

- بقية التفاصيل من الخيال. من المحتمل أن تكون صحيحة، أو قرية من الصحة. ماذا تتوقع من صبي يقضي نهاره في جمع السبارس؟ أن يكون ابن مدير عام؟

- قد يجمعها ليستفيد هو من النقود.

- هذه، فعلاً، نظرة بورجوازية. لولا الحاجة ما عرّض الطفل نفسه لكل هذه المخاطر.

- وما هو الحل يا رؤوف؟ قلنا الاشتراكية هي الحل فقلتم ان الاشتراكية كفر وإلحاد. قلنا خذوا من الأغنياء وأعطوا الفقراء قلتم هذه شيوعية. ما الحل؟

- الحل هو الاسلام.

- ولكن كيف يا رؤوف؟ هذا ولد مسلم في بلد مسلم وقد رأيت ما حصل له على يد - أو على قدم! - رجل مسلم.

- من قال ان مصر بلد مسلمة؟

- عفواً؟!

- من قال ان هذه بلد مسلمة؟

- ماذا تقصد؟

- أين الاسلام في هذه الدولة؟

- يا رؤوف! أعرف تعاطفك مع الجماعة. وأعرف مأساة أخيك. ولكن

لا تكن أبلهاً. إذا لم تكن مصر بلداً مسلمة، فأين يوجد الاسلام؟ في إسرائيل؟

- لا أود بحث هذا الموضوع معك. أنت مُخدّر بدعاية جمال عبدالناصر.

- وأنت مُخدّر بدعاية حسن البنا.

- أرايت؟ لقد بدأنا نتشائم.

- لا داعي للشتايم. بوسعنا أن نتحدث بهدوء. أريد أن أعرف ماذا تعني عندما تقول ان مصر ليست بلداً مسلمة.

- أنت تنظر الى الاسلام على أنه مجرد شعائر: صلاة وصيام ورمضان وعيد. هذا جزء من الاسلام وليس الاسلام كله. الاسلام أن تحكم بكل ما أنزل الله، كله لا بعضه.

- هذا هو الكلام الذي يقوله المشايخ في السعودية فيعتبرهم الجميع رجعيين.

- هذا ليس كلام مشايخ. هذا ما أنزله الله عزّ وجلّ على نبيّه صلى الله عليه وسلم في قرآنه المجيد ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾. أليست العبارة واضحة كل الوضوح؟

- يا رؤوف! حرام عليك! لقد قرأت القرآن كما قرأته أنت. الحديث هنا عن اليهود والنصارى.

- وما الفرق بين الكافر والمسلم سوى اتباع شريعة الله؟ عندما يتجاهل المسلم شريعة ربّه أي فرق يبقى بينه وبين الكافر؟

- يا رؤوف! لا أكاد أصدق أذني. تعتبر المسلم كافراً إذا لم يطبق كل تفاصيل الشريعة؟! هذا تطرّف.

- هذا هو الاسلام. سمّه ما شئت.

- ولكن من الذي قال ان مصر لا تحكم بما أنزل الله؟ أليس قانون الأحوال الشخصية بأكمله مأخوذاً من الشريعة؟ أليست الشريعة مصدراً أساسياً للتشريع؟ ألا يمكن أن نعتبر أحكام القانون الجنائي من قبيل التعزيز الوارد في الشرع؟

- هذا كلام فارغ يقال للاستهلاك المحلي.

- هذا كلام قانوني دقيق ندرسه في كلية الحقوق.

- دعنا من كتب الكلية. انظر الى ما حولك. هل هذا مجتمع مسلم؟ انظر! صور جمال عبد الناصر في كل شبر. برامج الإذاعة من أولها الى آخرها عن جمال عبد الناصر. كتاب «فلسفة الثورة» مقرر على الطلاب في كل المراحل. سوف أعطيك مثلاً بسيطاً جداً. قارن عدد المرات التي تذكر فيها وسائل الأعلام اسم جمال عبد الناصر وعدد المرات التي تذكر فيها اسم نبي الله وحبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، وستعرف اننا في مجتمع لا يعرف من الاسلام سوى اسمه.

- حسناً. فلنفترض، جدلاً، أن هذا المجتمع غير مسلم. وجاء مجتمع مسلم تماماً يرضيك تماماً. كيف سيحلّ هذا المجتمع مشكلة محمددين؟
- الحل الاسلامي يا فؤاد ليس مرسوماً جمهورياً من مراسيم صاحبكم. الحل الاسلامي يبدأ من المبدأ بتربية إسلامية شاملة. تعلم الطفل عبادة الله لا عبادة الديكتاتور. تدرّس الطفل مبادئ الاسلام لا مبادئ الشيطان. لو أخذنا حديثاً نبوياً واحداً، واحداً فقط، «ما آمن من بات وهو شعبان وجاره جوعان»، ودرّسناه في المدارس كما ندرّس تفاهات جمال عبد الناصر الآن هل تعتقد انه سوف يكون هناك أمثال محمددين؟ لو اهتم كل إنسان بجاره، هل سيقى جائع واحد؟

- ولكن لحظة يا رؤوف! لحظة! من الذي يمنع الوعاظ والخطباء من شرح المبادئ الاسلامية؟ لديكم أعظم جامعة إسلامية في العالم الاسلامي. لديكم أكبر العلماء.

- لدينا علماء موظفون لدى الدولة. كبيرهم، شيخ الأزهر، برتبة نائب رئيس وزراء، والبقية كل حسب موقعه. علماء يتغير إسلامهم مع مواقف الدولة السياسية. إذا صادق جمال عبدالناصر روسيا أفنوك بالجنوح الى السلم. وإذا عادى روسيا أعلنوا الجهاد على الشيوعيين الملحددين.

- ألا يوجد علماء مخلصون في مصر كلها؟

- نعم، في أعماق السجن.

- يا رؤوف! لم أعهدك تهوّل الأمور.

- هذا هو الواقع. النظام الذي تعجب به يحارب الاسلام كما لم يحاربه أي نظام في تاريخ مصر. والرئيس الذي تمجّده عدوّ الاسلام الأكبر.

- اتق الله! قليلاً من المنطق. الإخوان تعاونوا مع جمال عبد الناصر فترة

- صدق قاسم عندما قال انهم غسلوا دماغك. الجلاء حدث نتيجة كفاح الأخوان المسلمين ضد الانجليز عبر ثلاثين سنة. وتأمين القناة انتهى بمعركة خسرها صاحبكم، معركة فتحت خليج العقبة أمام الملاحه الاسرائيلية، وأتت بقوات دولية تضمن حماية اسرائيل. ومخطط السدّ السالي وضعه وزير وفدي. والوحدة مع سريريا قائمة على باطل.

- لا أدري ما الفرق بين آرائك وهلوسات قاسم. الظاهر أن الرجعية ملّة واحدة.

- لا تحرف الكلام عن مواضعه. الكفر ملّة واحدة.

* * *

يدنو ماجد من فؤاد في صالون شقّة الحرية ويهمس:

- اسمع يا فؤاد! لديّ سر ولكنني واثق أن بوسعي أن أخبرك.

- هات.

- لقد انضمت خلال عطلة الصيف الى حركة القوميين العرب.

- ما هذه المفاجأة؟

- وجدت عندهم ما افتقدته لدى البعث؟

- عند القوميين العرب؟! نعم.

- هل نسيت كم كُنا، في فترتنا البعثية، نسخر من هتافاتهم: «دم! حديد! نار!». كنا نسمّيهم جماعة «الشيش كباب». هل نسيت؟

- البعثيون لا يطبقون منافسة من أحد. وهذه، على أية حال، ليست شعارات الحركة. شعارها «وحدة. تحرّر. ثار».

- ما الفرق بين الحركة والبعث؟

- هناك فارقان جوهريان. الأول، انه لا توجد روح عدائية عند الحركة نحو جمال عبد الناصر. الحركة تعتبر جمال عبدالناصر قائدها الفعلي. وهناك من يقول ان جمال عبدالناصر نفسه هو رئيس التنظيم.

- أشكّ في ذلك. والفارق الثاني؟

- الحركة أدقّ في تحليلها لطبيعة الصراع الدائر في الأمة العربية من حزب البعث. هذه المرحلة تتطلب لمّ القوى الاجتماعية كافة في صف

التعليمية في البحرين). كان، باعتراف الجميع، أنشط مدير عرفته المدرسة في تاريخها. واستطاع خلال إقامته في البحرين أن يوطد علاقاته مع الكثيرين، رغم أنه لم يبق سوى سنتين. تعرّف على والده وأصبحا صديقين. وأقنع والده أن يرسله للدراسة في القاهرة. مشكلة الأستاذ شريف أنه صارم شديد الصرامة. هل سيتمتع بإقامته في القاهرة ولديه مشرف كهذا؟

وقطع المضيف خواطره يسأله إذا كان قد عبأ الاستمارة. ردّ بالإيجاب وهو يكتب بسرعة: «عشرة آلاف جالون». هل سيفوز؟ وما هي الجائزة التي سيحصل عليها؟ قرّر أن يجعل المسابقة فأل الرحلة. إذا فاز أو أتى برقم قريب من الرقم الفائز كان هذا بشيراً بأن الأمور ستيسر. أما إذا لم يفز، فالويل من مشاكل التأشيرة والجمرك والسكن.

- الله يفتحها في وجهك يا أبوي.

تذكر دعاء أمّه وهي تعانقه قبل الرحيل وتبكي. وتكرّر الدعاء وتعود الى معانقته. وتبكي. وتسأل للمرة العاشرة:

- هل كتبت الآية يا بعد كبدي؟ هل كتبتها يا بعد روعي؟

- نعم. في عدة محلات.

أمّه لا تترك أحداً يسافر إلا بعد أن يكتب على الجدار الآية الكريمة ﴿إِنْ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾. تؤمن أمّه إيماناً لا يخالجه شك أن من يكتب هذه الآية لا بُدَّ أن يعود من سفرته سالماً بإذن الله. هذه المرة كان إصرارها أكثر من العادة. ولم تطمئن حتى رأتها مكتوبة بخطه ثلاث مرات.

يستغرب فؤاد كيف تمكن من مفارقة أمّه. لا يدري كيف ستكون حياته من دونها. من دون بسمتها في الصباح ورعايتها طيلة النهار وأقاصيصها في المساء. كان تدليل أمّه له مثار التعليقات الساخرة في المنزل حتّى من أبيه الذي كان نادراً ما يمزح. يُخيّل الى فؤاد أن أمّه تزداد في تدليله كلما كبر. الصغير المفضل. آخر العنقود. يظن أحياناً أن أمّه تتصور أنه لم يتجاوز الخامسة، ولن يتجاوزها، وإن قامت التي وصلت الى ستة أقدام ليست سوى ستارة خادعة يختفي تحتها طفلها الصغير: «فؤادو».

حول سفرته هذه دار جدل طويل بين أمّه وأبيه:

واحد ضد الاستعمار وربيته اسرائيل. عندما تقوم الدولة الواحدة يمكننا أن نبحث في طبيعة نظامها الاقتصادي والاجتماعي.

- مؤسسا الحركة، حسب علمي، هما جورج حبش ووديع حداد. والاثنان مسيحيان. هل تذكر كلامنا عن الأقليات؟

- الوضع يختلف في الحركة. هذه حركة عربية خالصة لم تستورد آراءها من فرنسا. نشأت في أتون المقاومة ضد الصهيونية. كان الهدف في البداية الثأر، والثأر فقط، ثم اتضح ان الثأر لن يتحقق من غير تحرر من الاستعمار ومن غير وحدة شاملة. كان هذا هو التسلسل المنطقي.

- كنت أتحدث عن الأقليات!

- هذه الحركة ليست كالبعث. لا يوجد هنا نجوم قادة كالأستاذ. جورج حبش ووديع حداد مجرد عضوين في قيادة الحركة. ولا تنس أن في القيادة عضواً مؤسساً من الكويت.

- من الكويت؟! من هو؟

- الدكتور أحمد الخطيب.

- كنت أعتقد انه سوري.

- ما الذي دفعك الى هذا الاعتقاد؟

- لا أدري. ربما الاسم. هل أنت متأكد انه كويتي؟

- سبحان الله يا فؤاد! أخبرني زميل من الحركة. هل تريد أن أحضر لك جوازه؟!

- زميل من الحركة؟ تقصد رفيقاً من الحركة؟ ألا تسمون الأعضاء الرفاق؟

احمرّ وجه ماجد، ولم يجب.

وضحك فؤاد:

- عادت حليلة الى عاداتها القديمة.

فتح الباب ودخل قاسم وتوقف الاثنان، فوراً، عن الحديث. أدرك قاسم السبب. واندفع:

- ألا تملآن الثرثرة عن السياسة والأحزاب؟! ألا تشبعان؟!

ردّ ماجد بغیظ:

- ماذا تريدنا أن نبحث؟ البنيتات أم السيارات؟
- أليس هذا أحسن من التآمر؟
- تآمر؟! من الذي يتآمر؟
- أنتم! فؤاد يتآمر على حكومة البحرين. وأنت تتآمر على حكومة السعودية.
- يا قاسم! نحن نتحدث عن مستقبل الأمة العربية. عن تحررها. عن وحدتها. عن استعادة فلسطين. وأنت تسمي هذا تآمراً؟
- مستقبل العرب في دمار إذا كان سيقودهم أشخاص بآرائكم السخيفة.
- وما هي آراؤك العظيمة يا حضرة الفيلسوف؟
- رأيي أن تترك الحكم للحكام الشرعيين الذين يحكمون من مثات السنين. رأيي أن ندرس ونعود الى بلادنا ونتبع. أنت يا ماجد تدرس الطب فلماذا لا تركز على دراستك وتعود وتخدم وطنك؟ أليس هذا أنفع من الأحزاب والكلام الفارغ؟
- عملي القومي لا يحول بيني وبين دراسة الطب. ولن يحول في المستقبل بيني وبين ممارسة الطب. ولكن ما هذا التأيد الجارف لحكام السعودية والبحرين. هل رشوك؟
- هذا كل ما تحسنونه يا معشر الثورين: البذاءة. دعني أسألك سؤالاً يا ماجد: كم مخصصك من البعثة السعودية؟
- حوالي خمسة وثلاثين جنيهاً.
- هذا الراتب. ومع الكتب والملابس والتذاكر والبدلات الأخرى ألا يصل المجموع الى أكثر من خمسين جنيهاً؟
- ربما.
- ألم تخبرني انكم في الشهر الماضي اجتمعتم بالأمير فهد وزير المعارف عندما كان في القاهرة وطالبتكم برفع المخصصات ووافق؟
- نعم.
- ماذا تريد أكثر من ذلك؟ ان ما تتقاضاه يقارب مرتب وكيل الوزارة في مصر. ألا تشكر الحكومة التي أعطتك كل هذا؟

- هذا مال الشعب. ولا مئة للحكومة.
- الشعب؟! أي شعب؟!
- الشعب العربي في الجزيرة.
- الشعب العربي في الجزيرة؟! لا يوجد شعب عربي في الجزيرة. يوجد أكثر من مائة قبيلة ومائة شعب. يوجد شعب سعودي، ولولا الملك عبد العزيز لما وجد الشعب السعودي.
- لا أتحدث عن الملك عبد العزيز. أتحدث عن الأوضاع الراهنة.
- ولماذا لا تسحبك الأوضاع الراهنة؟ أنت طالب وراتبك ضعف راتب عميد كليتك.
- لا تجوز المقارنة. مصر ليست بلداً بترولية. أم ان جمال عبدالناصر لديه حقول بترول سرية في حديقته؟!
- جمال عبدالناصر بدد في حرب السويس دخل السعودية لمدة عشرين سنة.
- أنت ومغالطاتك!
- أتعرف، ما سيحدث لو تحققت الوحدة العربية التي تثرثر عنها؟
- ماذا؟
- سوف يتوزع مخصصك الحالي على طلاب الشعب العربي في الأردن وطلاب الشعب العربي في اليمن وطلاب الشعب العربي في تونس. لن يبقى لك سوى ثلاثة جنيهات، أو أربعة على الأكثر.
- لا يهم. في سبيل الوحدة العربية تهون كل تضحية.
- إذن لماذا لا تبدأ التضحية الآن؟ لماذا لا توزع مخصصاتك على الطلبة العرب المحتاجين في القاهرة؟ هناك آلاف منهم.
- من العبث الحديث معك يا دبشه. هل تعرف معنى الدبشة؟
- معناها الإكديش... يا اكديش!

* * *

لم يفق عبد الكريم من النوم/الغيوبة إلا مساء اليوم التالي. عندما أفاق كان جبينه مائتاً وجسمه ينتفض في قشعريرة مثلجة. نادى رفاقه. بصوت منهّدج. دخل فؤاد وما كاد يلمس جبهته حتى عرف أن الموقف يتطلب

الحركة السريعة. كَلَّمَ الأستاذ شريف بالتليفون، وجاء الأستاذ ومعه طبيب (من أصدقائه). فحص الطبيب عبد الكريم فحصاً دقيقاً ثم التفت الى الأستاذ:

- لا بُدَّ من نقله الى المستشفى فوراً. نزلة شعبية قويّة. سوف نأخذه الى مستشفى الجمعية الخيرية الاسلامية. انه هنا في العجوزة.

مرت بعبد الكريم عشرة أيام وهو في منطقة البين/بين، بين الصحو والنوم، بين الحلم والكابوس، بين الواقع والوهم. يغمض عينيه، يرى فريدة في فستان الزفاف الأبيض تسير بجانبه وهي تغني: «أول مرّة تحب يا قلبي وأول يوم أتّهنّا». تزفهما راقصة جميلة. نجوى فؤاد؟ رُبّما! ويجلسان على الكوشة. يلتفت عبد الكريم فإذا بفريدة تتحول الى ضابط شكله شبيه بشكل الشاويش عطية، شخصية رياض القصبجي المشهورة. يدخل الضابط يده في جيبه ويخرج مُسدساً ضخماً ويطلق النار. ويصرخ عبد الكريم بأعلى صوته. وتأتي الممرضة بأقراص وحقن. يصحو ويرى رفاقه، ويكلّمهم ويكلّمونه، ولكنه لا يتذكر شيئاً مما قاله، أو مما قالوه. يحلم من جديد. يرى أباه مبتسماً وهو يعقد، بنفسه، قرانه على فريدة. غريبة! متى وافق أبوه على زواجه بفريدة؟ ومتى عقد القران بنفسه؟ يتأمل وجه أبيه. وتزول العمامة. وتزول ملامح أبيه المبتسمة. ويعود الشاويش عطية. يطعنه بسكين هذه المرة. ويصرخ عبد الكريم. ونجوى الممرضة بالمزيد من الأقراص والحقن. ويأتي المزيد من الأحلام/الكوايس. ثم تنقطع الأقراص والحقن، وتزول الحرارة، وتعود شهيته. ويغادر المستشفى وهو لا يحمل أي شعور نحو فريدة، لا الحب ولا الكراهية. كأنّ النزلة الشعبية لم تكتف بالسكن في رثته بل تغلّغت الى قلبه واستخرجت منه حُبّ فريدة، وأرسلته يتبخّر مع حبات العرق.

مساء الخميس ورابطة الطلبة البحرينيين مليئة بروادها. هنا غرفة «الكريم»، والصراخ يعلو كالعادة مع صوت المضرب. وهنا غرفة الورق، والصراخ يرتفع مع كل ورقة هابطة. في المكتبة مشهد غريب من نوع جديد. ثلاثة من الطلبة يحملون سلة بأطراف أصابعهم، ولا يتحدثون إلا همساً.

يالتفت عبد الكريم الى فؤاد:

- ما هذه؟ لعبة جديدة؟

- هذه موضة بدأت الأسبوع الماضي. كتب أنيس منصور في «آخر ساعة» انه شاهد قبيلة في أندونيسيا تحضر الأرواح بالسلة. وبدأ الجميع يحضرون الأرواح. في كل بيت.

- أرواح؟ وبالسلة؟! كيف؟

- الطريقة كما أوضحها أنيس منصور كما يلي. تأتي بسلة عادية من الخيزران مثل سلة المهملات. ترسم صورة وجه على ورقة كبيرة، ثم ترسم صليباً على الوجه، وتغطي فتحة السلة بالورقة. ثم تأتي بقلم رصاص وتدخله في ثقب من الثقوب في قاعدة السلة، وتربطه إذا لزم الأمر. بعد ذلك يجلس ثلاثة ويلمس كل منهم السلة بأطراف أصابعه. ويطلبون الروح التي يريدونها. وتأتي الروح وتملأ السلة فتثقل وتميل الى الأمام وتبدأ الكتابة.

- الروح؟!!

- هذه هي الفكرة.

- هل تصدّقها؟

- أنا؟ أعتقد أنني جنت؟

- أريد أن أرى العملية بنفسى.

- أدخل. ولكن إياك أن تضحك أو تسخر فالأرواح لا تحب الضاحكين والساخرين.

يدخل عبد الكريم ويسلم ويردّ الموجودون السلام ايماءاً برؤوسهم، ويشيرون اليه أن يجلس. يأخذ مقعده بهدوء، ويرقب ما يدور بفضول متزايد. كبير المحضرين، جعفر علوي، يتكلم بمنتهى الجدّة والاحترام:

- هل حضرت الروح؟

وتكتب السلة:

- نعم. السلام عليكم.

وتردّ المجموعة:

- وعليكم السلام ورحمة الله.

ثم يسأل جعفر:

- من أنت أيتها الروح الكريمة؟

- وتكتب السلة:
- شوقي.
 - أحمد شوقي؟ الشاعر؟
 - أمير الشعراء.
 - عفراً! أمير الشعراء. أهلاً وسهلاً. شكراً على حضوركم. هل من السكن أن نسأل بعض الأسئلة؟
 - وتكتب السلة بحروف ضخمة.
 - تفضلوا.
 - تمتلئ الصفحة، وتأتي ورقة بيضاء جديدة. ويسأل جعفر:
 - ما هي أحب قصائدك الى نفسك؟
 - نهج البردة.
 - وأجمل بيت شعر قلته؟
 - وللحرية الحمراء بابٌ بكل يد مُضَرَّجَةٍ يُدَقُّ
 - ما رأيك في حافظ إبراهيم؟
 - صديقي العزيز. وهو معي هنا.
 - والمتنبي؟
 - لم أره هنا.
 - ماذا تقصد بهنا؟
 - عالم الروح.
 - الجنة أو النار؟
 - عالم الروح.
 - من أعظم شاعر عربي في رأيكم؟
 - أمير الشعراء.
 - وفي الوقت الراهن؟
 - في كل وقت.
 - تستمر المحادثة بعض الوقت. ثم تكتب السلة: «مع السلامة». ويعلن جعفر أن روح أحمد شوقي قد انصرفت.

يتوجّه عبد الكريم بسؤال الى المحضّرين:

- يا أخوان! هل من الممكن أن تطلبوا روح جدتي؟ أم والدتي. اسمها فاطمة حجّجي عيسى البلبول.

ويردّ جعفر:

- سنحاول. من الأفضل أن تمسك السلّة معنا.

- لا! لا! لا!

يلفّ الغرفة صمت عميق. ويتمتم المحضّرون بكلمات لا يسمعونها. ويبدو أثر التركيز واضحاً على وجوههم. وتمرّ دقيقتان. ثم تهتزّ السلّة وتحرك وتكتب:

- السلام عليكم.

ويردّ جعفر:

- وعليكم السلام أيتها الروح الطيبة. هل أنت فاطمة حجّجي عيسى؟

- نعم. حضرت من أجل كريمي.

عندما يقرأ عبد الكريم كلمة «كريمي» على الزرق يصفّر وجهه. لم يكن أحد في العائلة كلّها يطلق عليه هذا الاسم سوى جدّته. ولم يسمعه من أحد منذ ماتت وهو طفل في العاشرة.

يلتفت اليه جعفر:

- تكلم! اسأل!

يردّد عبد الكريم، ثم يقول بصوت خافت:

- اشلونك جدّة؟

وتكتب السلّة:

- زينة. زانت حالك.

يزداد اصفرار وجهه، وتتسارع دقات قلبه. لم يسمع تعبير «زانت حالك» منذ توفيت جدته. يهمس بصوت لا يكاد يُسمع:

- هل تنصحيني بشيء؟

- انسأها. لا تهّمك الإبلية. راحت في إبليس.

يلاحظ جعفر أن عبد الكريم بدأ يتصبب عرقاً ويرتعش. ويصرف الروح، وينهي الجلسة.

يقرر عبد الكريم أن يكتشف هذا العالم المثير المذهل: عالم الأرواح، عالم الحرية والانطلاق من قيود الجسد ومن هموم الدنيا. إلا أنه لا يلقى سوى السخرية المرة من أصحابه. يصرخ يعقوب في وجهه:

- أرواح؟! أية أرواح أيها المخبل؟! العقل الباطن لحامل السلة هو الذي يحرّكها. لا توجد أرواح سوى أرواح البشر الذين يمسون السلة.

- كيف استطاعوا، إذن، أن يعرفوا التعبيرات التي كانت تستخدمها جدتي: «كريمي»، و«زانت حالك»، و«الابليسة»؟!!

- يا كريم! يا كريمي! جدتك لم ت اخترع هذه التعبيرات. كل عجائز البحرين يستخدمنها، على الأقل كل عجائز البحرانيات!

يذهب عبد الكريم الى الأستاذ أحمد فهمي أبو الخير، رائد الحركة الروحية في مصر، ومؤلف العديد من الكتب في منزله بالروضة. ويرحب به الأستاذ الذي لم يسبق له رؤية أحد من البحرين، آملاً أن يكون ضيفه طليعة الروحانيين في الجزيرة، ويعطيه نسخاً موقّعة من كتبه. ويحاول أن يسطّ له الظاهرة الروحية:

- هناك يا ابني جسدان: الجسد المادي، أو التراي، والجسد الأثيري، أو الروحي. عند الموت، ينفصل الجسد الأثيري، أو الروح. هذا الجسد الأثيري. كالهواء لا يمكن لمسه ولا رؤيته ولا يستطيع أن يتصل بالعالم المادي الذي نعيش نحن الأحياء فيه إلا عن طريق الوسطاء الروحانيين.

- وما السبب يا أستاذ؟

- السبب ان الوسيط الروحي هو إنسان بموهبة خاصة، يفرز جسده مادة خاصة مشقّة تسمى «الأوكتوبلازم»، هذه المادة هي التي يمكن للروح من خلالها أن تتجسّد، وتتكلّم، وتحدث مختلف الظواهر الروحية التي نعرفها. ولكن يا أستاذ كيف يمكن أن يحصل كل هذا عن طريق السلة؟

- السلة؟! آه، سلة أنيس منصور! لا تهتمّ الوسيلة. المهمّ وجود وسيط روحي ينتج، عالماً أو غير عالم، مادة «البروتوبلازم». كلما كان وجود هذه المادة كثيفاً كلما تمكنت الروح من التجسّد بطريقة أفضل. في بعض الحالات، عندما يكون الوسيط موهوباً فعلاً، يمكن للروح أن تتجسّد تجسّداً

كاملاً، أي تتحوّل الى جسد يشبه جسدنا هذا تماماً. أمكن تصوير حالات كثيرة لأرواح متجسدة.

- هنا؟ في مصر؟

- لا. لا يوجد، حتى الآن، وسيط على هذا المستوى في مصر. ولكن هناك حالات عديدة موثقة في أوروبا وأميركا. ستجد الصور والوثائق في كتيبي. بهذه المناسبة، لماذا لا تحضر جلسة من جلساتنا وترى ما يحدث بنفسك؟ نحن نجتمع مساء كل جمعة هنا، في منزلي.

- وماذا يحدث أثناء الجلسة؟

- نجتمع في غرفة مظلمة بعض الشيء. ونستمع الى موسيقى كلاسيكية. ونطرد كل الخواطر الدنيوية من أذهاننا. ونركز كل أفكارنا على العالم الأثيري. وتحضر الروح، وتكلم معنا على لسان الوسيط.

- تتكلم؟!

- نعم. الوسيط هو الذي يفتح فمه ويحرك لسانه ولكن، في الحقيقة، الروح هي التي تتكلم.

- تعني انه عندما تكون الروح فرنسية فإنّ الوسيط المصري يتكلم بالفرنسية؟

- من الممكن أن يحدث هذا. ولكن الأرواح، خصوصاً العالية منها، تعرف كل اللغات. كل الأرواح التي تأتينا تتكلم اللغة العربية.

- ماذا تقصد بالأرواح العالية؟

- بقدر ما تتمكن الروح من الانطلاق من هذا العالم المادي بكل شهواته واغرائاته بقدر ما تعلو.

- ولماذا الظلام في الغرفة؟

- «الأوكتوبلازم» يفقد الكثير من حيويته في الضوء. ولهذا لا تظهر الأشباح في النهار. الأشباح هي الأرواح المربوطة بالأرض، الأرواح التي لا تعرف انها ماتت، ولهذا تظل تردّد على الأماكن التي عاشت فيها.

- كم يبلغ عدد الحضور في الجلسة؟

- بين عشرة وعشرين.

- ألا يوجد خطر؟

- خطر؟ تعني أن تتقمص الروح جسد أحد الحضور ولا تخرج منه؟
- مثلاً.

ضحك الأستاذ أبو الخير وقال:

- لا. لا. الأرواح التي تزورنا طيبة لا تؤذي أحداً.

حضر عبد الكريم في الموعد المحدد. دُهل عندما رأى بين الحضور الدكتور عثمان خليل عثمان رئيس قسم القانون الدستوري في الكلية، وجراحاً من أكبر جراح مصر، ومخرجاً سينمائياً معروفاً. شرح له الأستاذ أبو الخير أن «الروح المرشد» للمجموعة روح رجل عاش في مصر الفرعونية، وأنه يسمي نفسه «ميرا». وأوضح له الأستاذ أن الوسيط رجل محدود الثقافة يعمل في مصلحة المطافئ وأنه عندما يستيقظ لا يذكر شيئاً مما قالته الروح على لسانه.

بدأت الجلسة. وجلس الحاضرون على هيئة حلقة مستديرة. وأطفئت الأنوار، باستثناء مصباح ضئيل يرسل خيطاً من الضوء الأصفر الشاحب. وبدأت الموسيقى. شعر عبد الكريم بالخوف يتسرب إلى كل شعرة في جسده ويجعلها تقف. ركز انتباهه على الوسيط. وبدأ وجه الوسيط يتقلص في الضوء الخافت حتى كادت ملامحه الأصلية تختفي. ثم أغمض عينيه، وأخذ يتحدث بصوت أجش وبلغة عربية فصحي:

- السلام عليكم.

ردّ الأستاذ أبو الخير:

- وعليكم السلام يا ميرا. عمّاذا ستحدث الليلة؟

- أود أن أتطرق للمغزى الروحي من حركات الصلاة.

- موضوع عظيم.

- هل سألتكم أنفسكم لماذا تتطلب الصلاة حركات معينة؟ لماذا لا تتم والانسان واقف لا يتحرك، أو جالس لا يتحرك؟ أخذتم حركات الصلاة مُسلمات وقنعتهم بذلك دون أن تبحثوا الأبعاد الروحية. الحقيقة أن هناك اعتبارات روحية فيما يتعلق بحركات الصلاة. مناطق الجسد تتفاوت فيما يتعلق بكثافتها الروحية، أعني بنشاطها الروحي، إلا أن المركز الروحي الرئيسي هو الدماغ، هو الذي يطلق الاشعاعات الروحية وهو الذي يستقبلها. في الدماغ ثلاث مناطق روحية أساسية: الجبهة ومنتصف الرأس

- أبا ناصر. كيف تترك فؤاد يسافر بمفرده على الطائرة؟ ويعيش بمفرده في مصر؟

- فؤاد أصبح رجلاً.

- رجلاً؟ لا يزال طفلاً في الثالثة عشرة.

- يا امرأة! هل يصغر ابنك أم يكبر؟ بعد قليل سوف يصل الى السابعة عشرة، ان لم يكن وصلها. هل نسيت انني تزوجتك عندما كنت أصغر منه؟

- ولكن يا أبا ناصر...

- الموضوع انتهى. سوف يسافر بمفرده.

- الله يفتحها في وجهك يا أبوي!

تسري الطمأنينة في عروقه. ما أجمل التعبير. «يفتحها في وجهك». يفتح ماذا؟ الدنيا. القاهرة. الدراسة. أبواب المستقبل. كل هذه الأشياء «ستفتح» في وجهه.

يطالع في الكتاب الذي ظلّ مُهملاً في يده. غير ان القراءة مستحيلة. لا تزال أفكاره في حالة استنفار. لم ينم طيلة الليل. وأقلع قبيل الفجر. يعرف انه من العبث أن يحاول النوم ومخّه خلية نحل لا تهدأ. النوم مشكلة عنده منذ أعوامه الأولى. لا بُدّ أن يقضي بعض الوقت على فراشه يتقلب ويفكر. نصف ساعة، أحياناً تصل الى ساعة، وربما وصلت ساعتين. يعجب من الذين ينامون بمجرد القاء رؤوسهم على الوسادة، ويغبطهم. ألا يوجد ما يقلقهم؟ ألا يفكرون في شيء؟

قائد الطائرة يعلن نتيجة المسابقة. ويصاب فؤاد بخيبة أمل. الرقم الفائز أعلى بكثير من الرقم الذي كتبه، أضعافاً مضاعفة. ويعلن قائد الطائرة ان الجائزة مجموعة من حقائب السفر. ويتسم. ما لديه من حقائب السفر يكفي ويزيد. ويشعر بشيء من الخوف. لقد قرّر أن يعتبر المسابقة فال الرحلة - ورسب بجدارة. نظر الى الساعة. الثامنة إلا دقائق. الطائرة تنحدر شيئاً فشيئاً. الصحراء! الصحراء الغبراء القاحلة على مدّ البصر. أين النيل؟ أين الأهرام؟ أين «جاردن سيتي»؟ كيف تنزل طائرة في القاهرة من غير أن يتمكن ركابها من رؤية النيل؟ أو حديقة الأندلس؟

فُتح باب الطائرة. ودخل رجل يرقور يرتدي بدلة رسمية سوداء ويحمل

والرقبة. لا يمكن أن تُستغل الطاقة الروحية القصوى للدماغ إذا اكتفى المرء بالوقوف. الركوع يحرك القوة الروحية الكامنة في منتصف الرأس. والسجود يحرك القوة الموجودة في الرقبة. والوقوف من جديد يعيد التوازن الى المناطق الثلاث. لو شاهدتم رجلاً يُصلي في غرفة مظلمة وكانت لديكم موهبة روحية لرأيتهم كيف تتركز الاشعاعات حول رأسه خلال الصلاة، لرأيتهم أشعة تدخل وأشعة تخرج. والأشعة في حالة الوقوف تختلف عن الأشعة في حالتي السجود والركوع، حتّى الألوان تختلف. يتكلّم الدكتور عثمان خليل عثمان:

- ولكن يا ميرا الركوع والسجود من خصائص الصلاة في الاسلام، ماذا عن الأديان الأخرى؟

ويردّ الوسيط على لسان ميرا (أو ميرا على لسان الوسيط):

- سؤال وجيه يا دكتور. في كل دين صلاة، وفي كل صلاة حركات. لو تأملتم الصلاة في كافة الأديان لوجدتم أنها تتطلب تحريك الرأس بحيث تنكشف المناطق الثلاث أمام الأشعة.

يسأله الدكتور عثمان:

- ماذا عن الصلاة الصامتة الهادئة؟

- حديثي عن الصلاة الدينية. لا أتحدث عن التأمل.

يسأل الجراح:

- إذن فصحيح ما يقال من أن الروح تغادر الجسد عن طريق الرأس؟

- بكل تأكيد. لو استطعتم أن تبصروا الروح وهي تغادر جسد إنسان يوشك أن ينام، أو يوشك أن يموت، وظاهرة النّزَم لا تختلف عن ظاهرة الموت إلّا في أن الروح تعود الى الجسد عند اليقظة، لو أبصرتم هذا المشهد لرأيتم الجسد الأثيري يترك الجسد المادي من ناحية الرأس.

تجيب أسئلة أخرى وأجوبة جديدة. الكثير من الأسئلة والأجوبة يحتوي على مصطلحات لا يفهمها عبدالكريم. ثم يقول الأستاذ أبو الخير:

- يا ميرا! لدينا ضيف الليلة يودّ أن يسألك بعض الأسئلة.

- نعم. لاحظت. أهلاً بك يا عبد الكريم. قدمت من البحرين، أرض دلمون، من أكثر مناطق الأرض روحانية.

يكاد قلب عبد الكريم يتوقف من الذعر، ويتكلم بصعوبة:

- كنت في جلسة تحضير أرواح، وجاءت روح قالت انها روح جدتي التي توفيت وأنا طفل. كيف أعرف إذا كانت صادقة؟
يرد مير:

- الأرواح أرواح بشر، والبشر يكذبون ويصدقون. لا تقنع بالدعوى؛ اطلب الدليل.

- لقد سمّنتني اسماً لا يستخدمه سواها ولا يعرفه أحد في المجموعة غيري.

- هذا يكفي. يا دكتور عثمان! ألا يعتبر هذا دليلاً كافياً من الناحية القانونية؟

يضحك الدكتور عثمان ويجيب:

- قد لا يكون دليلاً قاطعاً ولكنه، بالتأكيد، قرينة قويّة.

تخف رهبة عبد الكريم بعض الشيء ويسأل:

- أودّ أن أستمّر في الاتصال بروح جدتي. ألا توجد طريقة غير السّلة؟

يضحك بعض الموجودين، ويجيب مير:

- أرى حولك هالة من «الأوكتوبلازم». لديك موهبة روحية لا بأس بها. لا تحتاج الى سلة. الكتابة التلقائية أفضل.

- الكتابة التلقائية؟!

- يمكن للأستاذ أبو الخير أن يشرحها لك.

توالت الأسئلة والأجوبة. ثم بدأ الوسيط يتململ ويتأوّه. ثم أفاق، وانتهت الجلسة.

شرح له الأستاذ أبو الخير طريقة الكتابة التلقائية. لا تحتاج الى أكثر من ورقة بيضاء وقلم رصاص. تضع القلم في يدك وتجعلها تسترخي تماماً حتى لا تكاد تشعر بها. «البروتوبلازم» المنبثق من اليد يمكن الروح من الإمساك بها وتحريك القلم. وهكذا يدور الحوار. أضاف الأستاذ انه من الأفضل أن تتم التجربة في غرفة هادئة، من غير متفرجين، وفي ضوء خافت.

دخل عبد الكريم عالم الروح ولم يستطع الخروج. وجد فيه كل ما افتقده في العالم المادي: الحبّ والتفهم والإثارة والمعرفة. انغمس في حوار ليلي طويل مع روح جدته. سألها عن كل شيء: الموت، الحياة بعد الموت،

علاقة الموتى بالأحياء، وطبيعة عالم الروح. وأجابت روح جدته على معظم الأسئلة، وقالت انها لا تعرف الاجابة على بعضها، وأضافت انه من «غير المسموح» أن تتطرق الى موضوعات معينة. رفضت أن ترد على أي أسئلة تتعلق بالقبر أو بالجنة أو بالنار. رغمًا عنه، وجد عبد الكريم نفسه يسألها عن فريدة، وأجابت:

- الابليسة! عملت لك سحراً!

- ولكنني أحببتها قبل أن تعرف أنني أحبها.

- عملت لك سحراً لكي تتزوجها، ثم تزوجت هي، وظل سحرها يعمل حتى أبطلته أنا.

- كيف أبطلته؟

- تصارعت مع الجن وغلبتهم. وشفيت أنت.

- ومن الذي عمل السحر؟

- ساحر في امبابة.

- تعرفين امبابة جدة؟!

- طبعاً كريمي!

منذ أن يصحو وهو يتطلع الى الموعد الليلي الممتع مع جدته. في كل مرة، تمتلئ عشرات الأوراق، ويتعلم عشرات الأشياء الجديدة. أخبرته جدته انها تسهر على حمايته منذ أن وصل القاهرة. قالت له انها هي التي منعت من القاء نفسه في النيل. وهي التي حالت بين والده وبين طرده من المنزل في البحرين. قالت له انها ستجعله أسعد إنسان في العالم. ستحقق كل طلباته. سوف تأتي له بأسئلة الامتحانات. سوف توصل اليه كل ما يريد من أموال. سوف تجعل أي فتاة يريد لها مغرمة به. وفي المقابل، لا تريد منه سوى أن يخصص لها ساعتين كل ليلة، لتستطيع أن تتكلم معه عبر القلم.

لم يطلب عبد الكريم من روح جدته تقديم أي دليل على صدق ما تقول. إلا أن الأدلة جاءت تترى. يرن التيلفون ويكتب القلم «التيلفون لك»، ويتبين، بالفعل، ان المكالمة له. يذق جرس الباب ويكتب القلم، «جاء الأستاذ شريف يحمل كيساً كبيراً»، ويدخل الأستاذ، بالفعل، يحمل كيساً مليئاً بالفاكهة. يكتب القلم «غداً تصلك رسالة من ابنتي فيها

أربعون جنيهاً»، ويجيء مسافر من البحرين في الغد ويعطيه رسالة من أمه فيها المبلغ بعينه. يشعر عبد الكريم انه أصبح انساناً جديداً، يختلف عن بقية البشر، إنساناً يستطيع قراءة المستقبل.

لاحظت المجموعة انزواء عبد الكريم الليلي في غرفته. لاحظت الكتب الروحية التي أصبح لا يقرأ غيرها. لاحظت السواد المتراكم تحت عينيه نتيجة السهر المتواصل حتى الصباح. لاحظت كميات الورق الهائلة المستخدمة كل ليلة. خشيت المجموعة أن ينتهي عبد الكريم في مستشفى الأمراض العقلية. واستقرّ الرأي على عقد محاكمة شبيهة بمحاكمة يعقوب في الصيف الماضي. إلا أن يعقوب، هذه المرة، تحول الى ممثل الادعاء: - يا كريم! منذ أسابيع وأنت في وضع غير طبيعي. منذ خروجك من المستشفى. هل أثر المرض على دماغك؟

يردّ عبد الكريم بغضب:

- غير طبيعي؟! ماذا تقصد؟! هل رأيتني أضرب الناس بالعصا؟! - لم تصل الى هذه المرحلة. ولكنك في الطريق.
- أعدك انك سوف تكون أول من أضربه.

يتدخل فؤاد:

- نحن لا نمزح يا كريم. بالنّا مشغول عليك. ما قصة الأرواح هذه؟
- الروحية حقيقة علمية، أداة تدرس في جامعات أمريكا وأوروبا.
- تقفل على نفسك الباب كل ليلة وتقضي الليل وأنت تشخبط على الأوراق. هل تصدق انك تتحدث مع جدتك؟
- نعم. بكل تأكيد.

يصرخ قاسم:

- يا كريم! جدتك في قبرها. في رأس رُمان!
- جسدها هناك، وروحها هنا.

يقول يعقوب:

- هذا عقلك الباطن يا رجل! عقلك الباطن هو الذي يسأل وعقلك الباطن هو الذي يجيب. هل تعرف مصير الانسان الذي يتحدّث مع نفسه؟ العباسيّة!

- قالت لي أشياء كثيرة لم أكن أعرفها. كيف يحدث هذا لو كنت أتحدث مع نفسي؟

يسأله يعقوب:

- مثل ماذا؟

- مثل الرسائل التي تخبرني عن محتوياتها قبل وصولها. مثل الأشخاص الذين أعرف هويتهم قبل دخولهم. مثل المكالمات التي أعرف من أجراها قبل أن أرفع السماعة.

ساد صمت عميق بدّده يعقوب:

- لا حول ولا قوّة إلاّ بالله! كنت أتصوّر أن المسألة مجرد احياء نفسي ولكن يبدو انها أخطر من ذلك. لا بدّ أن تذهب الى طبيب نفسي يا كريم. وفي أقرب فرصة.

يضيف قاسم:

- وأنا من هذا الرأي.

ويقول فؤاد:

- وأنا.

يقلّب عبد الكريم نظره في وجوه زملائه. ثم ينهض غاضباً ويدخل غرفته، ويقفل الباب بالمفتاح.

يجري الى القلم والورقة. وتغم أمامه الدنيا ويعود طفلاً صغيراً ضئيلاً يلقي بنفسه في أحضان جدته التي تضمّه وتقبله، ويتحرك القلم:

- أعرف! سمعت ما قالوه. هؤلاء الأبالسة! هؤلاء ليسوا أصدقاءك! انهم أعداؤك! شاركوا في عمل السحرا! والآن يريدون قتلك!

يعود عبد الكريم من أوهام الطفولة الى القلم الذي ينزلق الآن على الورقة بسرعة هائلة لا يكاد معها يتبيّن الكلمات:

- سيدخلون الآن ويقتلونك! بالسكين! مثل الخروف! سيكسرون الباب الآن! ولكن لا تخف! أنا معك! افتح الشباك واقفز منه. سأحملك بين ذراعي. اقفز الآن!

تنطلق صرخات حادة من الغرفة ويتدافع الرفاق. يسمع عبد الكريم الدقات. ولكنه لا يستطيع أن يتحرك. وتمر الثواني. والدقات تعلو.

۱۱

دیسمبر ۱۹۵۹

في يده بخاخة «فليت». لم يكن في الطائرة قبل دخوله ذبابة واحدة. مشى الرجل بهدوء بين الصفوف ينفض «الفليت» في وجوه المسافرين مثيراً موجة من العطاس مع كل نفثة. وخلفه تطير تشكيلة من الذبابات التي دخلت معه والتي تتمتع، على ما يبدو، بمناعة ضد «الفليت». ثم خرج رجل اليخاخة. ودخل ثلاثة ضباط في بدل عسكرية أنيقة وعلى أوجههم عبوس صارم. أحس فؤاد، فوراً، بالذنب. ربما لأنه أحضر معه راديو. وجاء من دون تأشيرة. وأخفى في جيبه بنطلونه خمسين جنيهًا مصرياً مخالفاً التعليمات التي تمنع دخول النقد إلى مصر. سرعان ما استبعد هذه الخواطر السوداء. تذكر أنه في بلد ثورية يحكمها جيش ثائر. وأن هذه البلد تمر بمخاطر عظيمة من صنع الاستعمار. والطائرة التي تقله تحمل اسم قبرص ولكنها، في الحقيقة، ملك شركة بريطانية. وهؤلاء الضباط، بلا شك، هم حرس الثورة من المؤامرات القادمة على الطائرات الاستعمارية. وارتاح إلى هذا الخاطر. طاف الضباط على الركاب. يتأملون في كل وجه. وكأنهم يقارنون به بصورة فوتوغرافية غير منظورة. وعندما مرّوا به ابتسم. ولكن أحداً لم يزد على ابتسامته. بعد فترة من التحديق الصامت الغاضب في الوجوه سمح الضباط للركاب بالنزول.

القاهرة؟! تسارعت دقات قلبه. هذه، إذن، هي القاهرة. بداية المغامرة الرائعة. أول انطباع قفز إلى ذهنه هو أنه لم ير مطاراً بهذا الحجم من قبل. رأى مطارات الظهران والكويت ودمشق وبيروت، غير أن أيّاً منها لم يكن بهذه الضخامة. ولم يضم أعداداً بشرية كهذه التي تموج الآن من حوله، والبعض يرتدي ملابس رسمية، والبعض ملابس عادية، والجميع يتكلمون في وقت واحد.

وجد نفسه في الطابور الطويل أمام مكتب الجوازات. وانتابه السرور عندما رأى الضابط الجالس وراء المكتب يتسم وينهي كل جواز في لحظات. وجد نفسه أمام الضابط. كان ينوي أن يشرح له بالتفصيل أنه قدم بلا تأشيرة نظراً لعدم وجود قنصلية مصرية في البحرين وأنه يود الحصول على تأشيرة اضطرارية. إلا أنه لم يجرأ على الكلام. بصمت، قدّم جوازه إلى الضابط الذي قلب الصفحات ثم قلبها مرة أخرى وسأله بشيء من الضيق:

- أين التأشيرة؟

- لقد قدمت من البحرين...

ضروبُ الناسِ عُشاقٌ ضروبا فاعذرهم أشفهم حبيبا
المتنبي

«توقع راشد ان يكون موسم الغوص الماضي موسمه الأخير. شعر أكثر من مرة، وهو تحت الماء، بالدوار، قبل ان تنقضي دقيقة. اضطر إلى ان يهزّ الحبل قبل ان يجمع القدر المألوف من المحار. يدرك راشد انه يندر ان يستطيع الغواص الاستمرار في مهنة الغوص بعد سن الأربعين التي يوشك ان يصل إليها. حاول في فترة ما بين الموسمين ان يحصل على عمل آخر. ولكن أين؟ الغوص هو عمل الجزيرة الوحيد. حازرًا مع النوخدة ان يحوله من «غيص» إلى «سيب»، الملاح الذي يبقى على ظهر السفينة ويسحب «الغيص» بمجرد ان يهتز الحبل. إلا ان «الנוخذة» رفض بإصرار. يحتاج «السيب» إلى ذراع قوى وعضلات شابة. رجع راشد قبل المرسوم ليسجل اسمه مع الغواصين. وتلقى السلفة المعتادة. وتطأيرت في أيام. كالعادة، لا يدري راشد هل سيتمكن من سداد الدين بعد الموسم أم يبقى في ذمته شيء «للنوخذة».

حياة الغوص مقننة بكل تفاصيلها. «النوخذة» هو المسؤول المباشر عن السفينة زمن فيها. يأتي الغواصون بالمحار. تذهب الحصيلة، أولاً بأول، إلى «النوخذة». كل اسبوع يمر بالسفينة مركب «الطواش»، التاجر الصغير الذي يشتري اللؤلؤ ثم يبيعه للتاجر الكبير في المحرق والمنامة. تذهب اللآلئ إلى التاجر الكبير، ولا يعرف إلا الله أين تنتهي. هناك من يتحدث عن بلاد بعيدة، فرنسا، إنجلترا، وأمريكا. وهناك من يقول انها تذهب إلى مهرجات الهند. ويسمع راشد الأسعار الخيالية التي تباع بها بعض اللآلئ، ولا يصدق. لؤلؤة بلك، مائة ألف روبية! وأخرى بلكين. عالم الغوص مليء بالأساطير، والحقائق والأكاذيب.

كل هذه اللكوك لا يصل منها إلى راشد إلا ما يكفي لسداد السلفة، بالاضافة إلى مبلغ تافه. في نهاية الموسم «يكسّر» «النوخذة» الحساب،

كان الموسم رديفاً. وقد تقفز إلى اربعمائة، في الموسم النادر.

تتعلق به الدانة، ابنته ذات السنين السبع، قبل الإبحار. تقول له إن البنات في الحي كثيراً ما يسألنها «يا الدانة! وين دانتك؟». ترجو أباهما أن يحضر لها معه دانة تتباهى بها بين البنات. يضحك راشد وهو يضمتها. لا يوجد في تقاليد الغوص ما يسمح للغواص بتلقي نصيبه عيناً. ولكنه يعدها خيراً.

تبحر السفينة في الخلجان الزرقاء وفي روتينها المعتاد. الرز والسملك. التمر الذي ينخر فيه السوس. الماء الرمادي. «النهام» وأهازيج الغوص الجماعية. وفي المساء، القهوة وقصص البحار. يروي كل رجل مغامراته. هنا بخار يقسم انه رأى «أبو درياه»، جنّي البحر الذي يشبه القرد، مراراً. يؤكد انه رآه بعينه وهو يدخن «الكدو». يتدخل بحار ثانٍ ليقسم، بدوره، انه رأى «أبو درياه». يثور نقاش حول حجم الجنّي. يؤكد الأول انه بحجم القرد الصغير ويصرّ الثاني انه بحجم الرجل الضخم. ثم يثور سؤال عن نوايا «أبو درياه». ويجمع البحارة على انه جنّي ظريف لا يؤذي أحداً. ويجمعون على ان الوسيلة الوحيدة للتخلص منه هي قرع الهاون. بمجرد سماع الصوت، يذعر «أبو درياه»، ويقفز إلى الأعماق، تاركاً «الكدو»، يتصاعد منه الدخان.

ثم يتطرق الحديث إلى «الهامة»، الحوت الهائل الذي يتلع السفن بمن فيها. أكثر من بحار يزعم انه رآه، أكبر من سفينة الغوص، بمرتين أو ثلاث. لكن أحداً لا يذكر انه ابتلع أي سفينة. هناك من يؤكد ان الأمواج الهائلة التي يحدثها قد أغرقت العديد من السفن. ثم يجيء ذكر «النهم»، الحوت الضخم الآخر. ويثور جدل عنيف. البعض يقسم أن «النهم» هو «الهامة» والبعض الآخر يقسم ان «النهم» مخلوق آخر يتميز عن «الهامة» بحبه الشديد للأجساد البشرية.

تختفي من الحوتان من مخافة راشد متطرفة صلبة الدانة. انه

الدانة؟ يفرجها الله! هناك إشاعات عن شركة أجنبية قادمة لاستخراج البترول من الجبل. من يدري؟ قد يحصل على عمل في الشركة.

تمر أيام الغوص رتيبة مثاقلة. يدرك راشد، بالغريزة، ان كل مرة يغوص فيها تدنيه من أجله. الدوار الذي يبدأ بمجرد ملامسة القاع. الدماء التي توشك ان تغادر عروقه. الصداع العنيف الذي يمزق رأسه. ولكنه يتجلد. ويبقى تحت الماء. ويجمع الكمية المتوقعة، وأكثر منها، ضعفها. ويمنحه «النوخذة» ابتسامة تشجيع. ويزداد أمله في الحصول على الدانة.

ها هي ذي هناك! مخارة عملاقة. ملكة المحارات! يدنو راشد وينزعها. يدهشه ثقلها. يضعها في الكيس المتدلي من عنقه. ثم يغلبه الدوار. ويهزّ الجبل. ويصحو وهو على السطح. ويرى المخارة العملاقة وقد فُتحت. ويرى الدانة الرائعة. أجمل ما رآه في حياته من لآلىء. يأخذ الدانة. ويدنو من «النوخذة» بخطى مترنحة ويهمس:

- نوخذة! الدانة للدانة!

ويسقط. ويتراكمز البحارة. وترتفع الأصوات:

- لا إله إلا الله! مات راشد! رحمة الله عليه!

- مات؟ توه كان يغوص.

- طلع من البحر داخ.

- لا إله إلا الله!

يُلفّ الجسد النحيل بإزارين ويؤخذ إلى مؤخرة السفينة.

يلتفت «النوخذة» إلى بحار بقربه ويسأله:

- ماذا كان يقصد؟ الدانة للدانة؟!

- استجنّ يا نوخذه! استجن قبل ما يموت! رحمة الله عليه».

* * *

ينظر إليه عبدالرؤوف مبتسماً:

- مرحباً بك في نادي الواقعيين. هل اقتنعت بآراء ميشيل عفلق؟

ويرد فؤاد:

- مجرد مشهد كما تقول أنت. مشهد حقيقي من فترة الغوص.

سمعت القصة من والدي الذي بدأ حياته غواصاً.

- أبوك أنت بدأ حياته غواصاً؟!
- نعم. لم الاستغراب؟ كان صبيّاً مراهقاً وقتها إلاّ انه كان عصامياً. ترك الغوص وتعلم القراءة والكتابة. واشتغل مع الطواويش، ثم أصبح طوّاشاً. ثم جاء الكساد العالمي واللؤلؤ الصناعي الياباني وسقطت امبراطورية الغوص. وبقيت آثارها لدينا في المتجر.
- كان، إذن، من المستغلين؟ من البورجوازيين؟
- رأى الحياتين. حياة الغواص وحياة الطواش.
- وكيف كانت الحياتان؟
- حياة الغواص بائسة. معاناة وفقر وديون. ولكن لم يكن هناك بديل. البديل الوحيد للبحر كان الجوع والتسوّل. حياة «النوخدة» أفضل نسيياً، لا سيما إذا كان يملك السفينة. الطوّاش كان ميسوراً. ما نسميه اليوم الطبقة المتوسطة. أما التجار الكبار فقد كان عددهم قليلاً. لم يكن في البحرين أكثر من أربعة أو خمسة.
- والآن؟ حلّ البترول محلّ البحر؟
- نعم. لا أدري هل كانت أيام الغوص أفضل أم أيامنا هذه.
- على الأقل لا يوجد الآن جوع.
- هذا صحيح. ولكن هل عامل المصفاة اليوم أسعد من الغواص؟ علم هذا عند ربي.
- اسمع يا فؤاد! هذه القصة ذكرتني. منذ فترة وأنا أفكر في مشروع أدبي مشترك.
- ماذا تقصد؟
- ان نؤلف كتاباً يضم مجموعة قصص قصيرة نصفها بقلمك والآخر بقلمي.
- فكرة طريفة. هل سبق أحد إليها؟
- لم أر مجموعة قصصية بقلم كاتبين من قبل.
- توكل على الله. عشر قصص منك، وعشر قصص مني.
- والأسم؟ نريد اسماً يلفت الأنظار. اسماً يجمع بين مصر والبحرين.
- فكرة طريفة ثانية.

العيون، عيون الفضوليين وعيون بوليس الآداب الذين يسميهم ماجد «مطاوعة مصر».

كانت القبلة الأولى في سينما «الكورسال». لم يتوقع قاسم رد الفعل العنيف الذي أعقب لقاء الشفاه القصير. أخذت شيرين ترتعش، وبدأت تتأوه، وكادت، حسب تعبيرها، «تسخسخ». طراً ببال قاسم ان في الأمر مبالغة. لا يمكن ان تؤدي «حبة» واحدة إلى كل هذه التداعيات. إلا ان رد الفعل كان حقيقياً، وأدرك قاسم انه يتعامل مع فتاة سريعة الاشتعال. كل مرة يصلان فيها إلى مرحلة القبل، وهما لم يتجاوزا أبداً هذه المرحلة، تبدأ الأعراض الغريبة. وتهمس شيرين: «مش قادرة!» «مش طايقة!»، ثم تجيء الدموع كالأنهار.

يصعب على قاسم ان يشخص طبيعة مشاعره نحو شيرين. لا شك انه يشاق إليها عند غيابها. ولا شك انه يستمتع بصحبته عندما يكونان معاً. ولا شك ان القبلات التي تفجر كيانها تلمس كيانه ولكنه لا يستطيع ان يدعي انه يحبها. تخبره في كل لقاء انها تحبه ويعجز عن ان يقول لها الشيء نفسه. ثم جاءت التلميحات. «مش ناوي تتعرف على بابا؟». «امتي تيجي تزورنا في البيت؟». أسئلة تبدو بريئة وطبيعية ولكنها ليست بريئة ولا طبيعية. وراء الأكمة ما وراءها. ماذا سيقول لآبيها بعد التعرف عليه؟ ماذا سيفعل عند زيارة البيت؟ خطوبة! شبكة! زواج! حبس! اشرد يا ولدا! اشرد!

بكل ما أوتي من لباقة يشرح لشيرين ان فكرة الزواج غير واردة على الإطلاق. لا يزال طالباً أمامه سنتان قبل الليسانس وستتان أو أكثر قبل الماجستير. ثم بعد هذا عليه ان يعمل ويكون نفسه. ثم يمكن التفكير في الزواج. وتقول شيرين انها تفهم ذلك جيداً، وانها لا تريد شيئاً، ولا تتوقع شيئاً. ويجيء اللقاء، وتجيء القبلة. وتنفض. وتتأوه. «مش قادرة!» «مش طايقة!»، و«حرام عليك!». ويصاب قاسم بالبلبل. غير قادرة على القبلة، أو غير قادرة على الوقوف عندها؟ ولماذا تقول له «حرام عليك!»؟ هل أذنب؟ وتعود التلميحات بشكل مختلف. «ماما عاوزة تشوفك». «ماما عارفه الي بينا». ماما! اللي بينا! اشرد يا ولدا! اشرد!

يدق جرس التيلفون ويرفع قاسم السماعة. يجيبه صوت أنثوي مثير لم يسمعه من قبل:

- حضرتك الأستاذ قاسم؟

- نعم.

- أنا إلهام. أم شيرين.

- أهلاً وسهلاً، ست إلهام. تشرفنا.

- أهلاً بلك. ضروري أشوفك.

- تحت أمرك.

اتفقا على اللقاء في «جزوي» عدلي باشا. صعي قاسم عندما رأى الحسنة التي دخلت. كانت نسخة من شيرين، إلا أنها نسخة أنضج وأشهى. لم يستطع قاسم أن يكتف استغرابه، ولاحظت إلهام. شرحت له أنها تزوجت في السادسة عشرة، وأنجبت شيرين في السابعة عشرة، وأن الفارق، بالتالي، بينهما بسيط. لم يستطع قاسم أن يزحزح عينيه عن وجهها إلا إلى قوامها. لم يسبق له أن شعر برغبة جنسية قوية بمجرد النظر إلى امرأة. لم يسبق له أن أحس تياراً جارفاً من الشهوة بمجرد القرب من امرأة. استعاذ بالله، في سريره، من الشيطان الرجيم. احمر وجهه، وبدأ عليه الاضطراب. ما هذا الشعور الشاذ؟ هذه زوجة! هذه أم! هذه أم صديقتي! من أين جاءت هذه النزعة المسعورة؟ من أي مكان موبوء في العقل الباطن لا يعرفه سوى إبليس وفرويد ويعقوب؟!

وتكلمت إلهام طويلاً. لا يتذكر الكلمات، ولكنه يتذكر أنها أعربت عن قلقها على ابنتها الوحيدة التي أصبحت متعلقة به إلى حد الهوس. لم تعد تأكل، أو تنام، أو تذاكر. يتذكر أنها قالت أنه إذا كان يحب ابنتها فعليه أن يخطبها، أو يتركها فوراً. أوضح لها قاسم أن الخطبة غير ممكنة. قال أن والده سيقطع عنه المصروف وسيضطره إلى قطع دراسته والعودة إلى البحرين. قال إنه يحتاج إلى سنين قبل أن يصبح مستعداً للزواج. واستغرق اللقاء أكثر من ساعتين. وانتهى بوعده قاطع من قاسم بأنه سينهي علاقته بشيرين ولن يتصل بها، ولن يسمح لها بالاتصال به.

الأيام التي تلت كانت قاسية عصبية. عشرات المكالمات التليفونية من شيرين وعشرات الأعذار من رفاقه. اضطر يعقوب، في النهاية، إلى أن يعترف لها أن قاسم موجود ولكنه لا يرغب في الحديث معها. ولكن شيرين لم تيأس، ولم تنقطع محاولاتها لمقابلته في الأماكن المعتادة. وأحس قاسم بتأنيب الضمير. ألم يكن هو الذي بدأ العلاقة؟ ألم يكن هو الذي

- لا أستطيع يا نشأت. علاقة مع بنت وأمها؟! أنا لست وحشاً.

- إذن انس الاثنين. الدنيا مليانة نسوان.

- سأحاول! سأحاول!

إلا أن محاولة النسيان تُجَهَض عندما تتصل به إلهام طالبة ان يلتقيا مرة أخرى. واتفقا على المكان نفسه. ذهب قاسم متوقفاً ان يسمع تفاصيل المأساة. شيرين لا تأكل ولا تنام ولا تذاكر. شيرين تعيش في عذاب. لا بد ان يغير رأيه، ويعيد العلاقة، ويخطبها. ويذهب مستعداً بكل الأجوبة. وجاءت إلهام مرتدية فستاناً مثيراً من موضحة «الشؤال». بدت أجمل من المرة السابقة. وفوجيء بتطور الحديث. اكتفت بعبارتين عن شيرين وقالت إنها بدأت تفهم الوضع. ثم بدأت تتحدث عنه. شكرته على توضيحته بسعادته في سبيل سعادة ابنتها. قالت إنها فكرت فيه. ثم أخذ الحديث مجرى جديداً مذهلاً. شكت إلهام رتابة الحياة مع زوجها الذي يكبرها بعشرين عاماً. تحدثت عن شبابها الضائع. أسهبت في وصف الملل الذي يفترس أيامها وهي بمفردها في الشقة الكبيرة. وقالت انها تحتاج إلى صديق يفهمها، وتفهمه. ارجع على قاسم. تركها تتكلم من غير ان يرد، حتى افترقا.

تستدير «البعكوكة» قبل الوصول إلى هضبة الأهرام وتدخل الشارع المؤدي إلى المطار السري، الشارع الذي لا يطرقه أحد في المساء. القمر في منتصف السماء. تقف «البعكوكة» على جانب الشارع. إلهام بجانبه. صوت أم كلثوم ينطلق من راديو السيارة محملاً بكل الرغبات الأرضية، بكل شهوات التراب، بعذابات قرون من الجفاف والظما والجوع:

«لقيت نفسي في عز جفاك .. بافكر فيك.. وأنا ناسي» تقترب منه إلهام. ويقتلها. وتتأوه: «مش قادرة!». القمر يطل عليهما، وهو يطل على إلهام. وتهمس: «حرام عليك!» يغيب القمر ثم يعود. ويتأمل الوجه: ويذعر. تحول الوجه إلى وجه شيرين. كيف جاءت شيرين إلى هنا؟ يعود وجه إلهام. يغيب القمر ثم يعود. وأم كلثوم تصرخ: «بافكر فيك، بافكر فيك»، بافكر فيك»، بافكر فيك»، يجد شيرين على يساره وإلهام على يمينه، البنت والأم تغامزان وتضحكان. ثم تهمس البنت. «مش قادرة!» وتقوم الأم «مش طايقة!» وأم كلثوم، بغتة، تغني: «حرام عليك! حرام عليك، حرام عليك!».

وقاطعه الضابط:

- ارجع آخر الطابور.

عاد الى المؤخرة. ووجد أمامه صفّاً أطول. بعد نصف ساعة رجع الى الضابط الذي بدأ يقلّب صفحات الجواز من جديد. اندفع فؤاد بلا تفكير:
- لا يوجد في الجواز تأشيرة لأنني جئت من البحرين. والبحرين لا توجد فيها قنصلية مصرية. سبق أن وقفت هنا وأرجعتني الى آخر الصف.
أريد تأشيرة اضطرارية. من فضلك!

يبدو ان الضابط كان على وشك إعادته الى آخر الطابور مرة ثانية عندما انفجرت «من فضلك!» تحمل من التوسّل الذليل ما لم يكن يقصده. لعلّها أثّرت في الضابط الذي نظر اليه مستغرباً ثم قال:

- تفضل هنا في الغرفة. انتظر حتى أفرغ من بقية المسافرين. كانت «الغرفة» مجرد فتحة لا تسع إلا مكتباً صغيراً ومقعدين. مرت عشر دقائق. وثانية. وثالثة. وبدأ يشعر بالقلق. هل نسيه الضابط؟ هل سيرفض اعطاءه التأشيرة؟ هل سيعيده من حيث أتى؟ قرر، بينه وبين نفسه، أنّه لو حدث شيء مؤسف كهذا فسوف يرسل برقية شديدة اللهجة الى جمال عبدالناصر. ولا شك انه سيوقع أشدّ العقوبات على المتسببين. أخيراً، جاء الضابط، وجلس وراء المكتب، وأخذ منه الجواز. أخرج ختماً من الدرج وختم به صفحة من الصفحات. ثم وقع بحبر أخضر. وأعطاه الجواز وهو يقول:

- تأشيرة أسبوعين. جدّدها في المجمّع. وسجّل في أقرب قسم للبوليس خلال ثلاثة أيام.

انصرف الضابط. وتركه في حيرته. المجمّع! ما هو المجمّع؟ وأين يقع؟ وماذا عن التسجيل في قسم البوليس؟ ثم ماذا يسجّل؟ نفسه؟ أم جوازه؟ أم تأشيرته؟ خطر بباله انه من المستحيل أن يكون جمال عبدالناصر على علم بهذه التعقيدات التي تنتظر صغار الناصريين العرب في مطار القاهرة.

خرج فابتلعت الحشود التي تموج وتمور وتدور. استوقف أحد الذين تبدو عليهم الصفة الرسمية:

- لو سمحت؟ أين أجد أمتعتي؟

- في الجمر.

ثلاث مرات، ويُحسّ بطمأنينة عميقة تتغلغل في جسده. وينام كما لم ينم منذ شهور.

* * *

كاد يعقوب ان يفقد الأمل في اتصال عزت به. كل مرة يتصل فيها بعزت يرد، باختصار، ان عليه ان ينتظر. في المرة الأخيرة طلب منه عزت الا يعاود الاتصال. ومرت الأسابيع والشهور، ولم يحدث شيء، ثم جاءت المكالمة. وطار يعقوب إلى الشقة الصغيرة في العباسية. وكم كان سروره عظيماً عندما اكتشف ان المقابلة ليست تمهيدية ولا روتينية. وجد عزت، ومعه ثلاثة شبان، في انتظاره. أدرك، من قراءاته، انه على وشك الالتحاق «بخليته».

تحدّث عزت:

- استغرق الأمر بعض الوقت. كان لا بد ان نتحرّى عنك. كما ان الظروف كانت سيئة للغاية. بدأت الآن تتحسن. خرج معظم الرفاق من المعتقلات.

الرفاق؟! الرفاق!! للكلمة وقع أعذب من زخات المطر. أصبح يعقوب الآن عضواً في الأسرة العالمية، أسرة المناضلين ضد الاستغلال والظلم، أصبح واحداً من «الرفاق».

واستطرد عزت:

- من الآن فصاعداً لن يكون لك أي اتصال بي، على الإطلاق. وأقصد ذلك حرفياً، على الإطلاق. سيقصر اتصالك على الرفاق هنا: «رامز»، و«رمسيس»، و«اسكندر». هذه بطبيعة الحال، أسماء حزبية. تكفيك الآن. فيما بعد، سوف تعرف الأسماء الحقيقية. واسمك الحزبي أنت «شبلي».

ويسارع يعقوب:

- «شبلي»؟! ما هذا الاسم؟ ألا أستطيع اختيار اسمي بنفسي؟

- لا. هذا اسمك. انتهى الموضوع. عليك ان تتعوّد على الانضباط. والآن، سوف أترك لكم الشقة. أترككم مع «رامز»، المسؤول عن الخلية.

تحدّث «رامز» عن ضرورة اتخاذ أقصى درجات الحيلة ثم تحدّث عن المنوعات. ممنوع ان يحتفظ أي منهم في بيته بكتاب له صلة بالشيوعية من بعيد أو قريب. وعلى الذين يحتفظون بكتب كهذه ان يتخلصوا منها

وتجنيدته. الدفء الذي يتسرب إلى عروقه وهو يقرأ ما بين سطور المقالات في الصحف نزعاً ماركسية لا يفهمها سوى خاصة الخاصة، «شيلي» ورفاقه.

* * *

وافقت المجموعة، وُعدّل الدستور، وأصبح ماجد الزبير ساكناً تبعياً في شقة الحرية. اقترح عبد الكريم إقامة حفلة صاخبة بهذه المناسبة، ولم يتحمّس أحد. نشأت مشغول بهيلدا التي أصبحت «الفلاحة السويسرية». فؤاد، بعد تجربته مع شاهيناز، يرفض حتى مجرد الحديث عن الفتيات. قاسم مذهول ضائع بين الأم والبنت، رغم أنه يرفض أن يقابل أياً منهما. ويعقوب يتنقل من كتاب إلى كتاب.

احتفل قاسم بـماجّد على طريقته:

- ماجد! عندنا في الكلية بعض السعوديين. عجائب وغرائب!

- ماذا تقصد؟

- واحد يقول إنه من جمعية «نجد الفتاة»، التي تطالب باستقلال نجد. والثاني يقول إنه من حزب «الحجاز الحر» الذي يطالب باستقلال الحجاز. ما هذه البلاوي؟

- هذه نزعات اقليمية انفصالية سوف تزول بمجيء الوحدة العربية الكاملة.

- تزول؟!!

- نعم. ألم تدرس نشوء الأمم؟ تبدأ العملية بالأسرة التي تتطور فتصبح عشيرة، ثم تكبر فتصبح قبيلة، ثم شعباً ثم أمة. كل هؤلاء لا يزالون يعيشون مرحلة القبيلة. عندما ندخل مرحلة الأمة ستزول كل هذه الفوارق.

- ومتى تدخلون مرحلة الأمة؟

- عندما ينتهي الحكم الذي يقاوم الوحدة العربية.

- تقصد أنه لو زال آل سعود فسوف تتحد المملكة مع بقية العرب؟

- بكل تأكيد.

- في المشمش! اسمع! سوف أخبرك ما سيحدث لو ذهب آل سعود. سوف يستقل الحجاز بقيادة حزب «الحجاز الحر». وسوف تستقل نجد

شقة الحرية

ومضى من دون مزيد من الايضاح. استوقف فؤاد أحد الباعة الجائلين وسأله:

- لو سمحت؟ أين أجد الجمرك؟

نظر اليه البائع بدهشة وهو يشير بيده ويقول:

- هناك!

عندما التفت فؤاد أدرك سر الدهشة. كانت في آخر القاعة لافتة هائلة كتب عليها بحروف ضخمة (الجمرك). عندما وصل الى الجمرك وجد منصّات خشبية تمتد الى ما لا نهاية. وأمتعة المسافرين مكوّمة في منتصف القاعة. يمرّ المسافر ويحمل حقائبه الى أقرب منصّة وينتظر المفتش. ولكن كيف يستطيع أن يحمل حقائبه وهو ينوء بحمل الحقيبة اليدوية؟ بصعوبة، زحزح الحقائب الأربع وجمعها في مكان واحد. ووقف يسترد أنفاسه. ويفكر في كيفية عبور الهوة التي تمتد بينه وبين المنصّة.

أنقذه من ورطته شخص في بدلة رمادية لم تغسل ولم تكو منذ سنين، يرتدي ابتسامة تطفح بالرضا عن النفس، وعن الكائنات عموماً:

- شيّال يا ييه؟

وبلهفة لم يستطع كتمانها ردّ فؤاد:

- نعم! نعم! رجاء!

بسهولة متناهية، حمل الشيّال حقيبتين وسار بهما الى المنصّة، وعاد فأخذ الحقيبتين الباقيتين. طلب من فؤاد أن يتبعه فمشى ورائه وقلبه يكاد يطير من الحفققان. الله يستر! الله يستر! ذهب الشيّال الى أحد المفتشين وهمس في أذنه ثم قاده الى الحقائب. وبلهجة حاسمة قال:

- البيه مستعجل. أعمل معروف خلصنا بسرعة. من غير سؤال أو جواب، أشرّ المفتش على الحقائب بالطيشور.

كان الشيّال، بلا منازع، سيّد الموقف. شكر المفتش، ونادى شيّالاً آخر يساعده على حمل الحقائب، وقاد فؤاد الى خارج القاعة. وفؤاد في ذهول لا يصدّق ما يدور حوله. الجمارك المرعبة التي ظلّ طيلة الرحلة يحسب حسابها كيف انتهت بهذه السهولة؟ لا بدّ أن دعوة أمّه قد استجيبت وبدأت الأبواب تنفتح في وجهه. أدرك، لحظتها، ان الشيّال كنز ثمين لا بدّ من المحافظة عليه:

- أرجو أن تبقي معي لتساعدني في العثور على الرجل الذي سيستقبلني. اسمه الأستاذ شريف حسين وهو بدين، قصير القامة، يلبس نظارة طبية...

قبل أن يستمع الى بقية الأوصاف، انطلق الشئال في الجموع يشقها شقاً وهو يصيح:

- الأستاذ شريف حسين. أوعى يا محترم! عن إذنك يا سيد! الأستاذ شريف حسين. لا مؤاخذه يا أستاذ! الأستاذ شريف حسين يتفضل هنا. دار الشئال في كل مكان. وجئت ثلاثة من باعة المرطبات لمساعدته. ثم أبلغ فؤاد بالحقيقة التي كانت راضحة منذ الدقيقة الأولى:

- ها فيش هنا حد اسمه الأستاذ شريف حسين.

طلب منه فؤاد أن يختار سيارة التاكسي. كان هناك أكثر من عشرين سائقاً يعرضون خدماتهم ويتدافعون. اختار الشئال أكبرهم سناً، في السبعين أو نحوها. وضع الحقائق في سيارته وأوصاه:

- يا أسطى محتجوب. اتوصى باليه. لحسن ضيف عندنا.

قبل أن يركب السيارة التفت فؤاد الى الشئال وسأله بقلق حاول اخفاه:

- كم الحساب من فضلك؟

- خمسة جنيه. اتنين لمحسوبك. والباقي بقشيش.

وضع فؤاد في يده ورقة نقدية من فئة خمس جنيهات وهو يكيل عبارات الشكر بلا حساب. وابتسم الشئال:

- العفو يا بيه. شرفتنا. أهلاً وسهلاً. مصر نورت.

في السيارة كان ذهن فؤاد مشغولاً بمشكلتين. الأولى، أنه، على ما يبدو، ارتكب جريمة الرشوة. صحيح ان كل شيء قد تم بسرعة خاطفة لم تدع مجالاً للتفكير. وصحيح انه لم يكن هناك اتفاق مُسبق على شيء. إلا أن الرشوة دُفعت واستُلمت. أم أن البقشيش يختلف عن الرشوة؟ وكيف يختلف؟ وهل سيدرسونه الفرق في كلية الحقوق؟ إلا أن المشكلة الثانية كانت أكثر إلحاحاً وسرعان ما استأثرت بكل تفكيره. لماذا لم يستقبله الأستاذ شريف في المطار؟ ماذا سيفعل الآن؟ كيف سيتصرف لو لم يجد الأستاذ شريف في شقته؟ وأين سيقضي الليلة؟

- أخرجه من خواطره صوت الأسطى محجوب:
- أهلاً وسهلاً. شرفت يا بيه. حضرتك منين؟
- من البحرين.
- ألف مرحبا. إنما لا مؤاخذه يعني البحرين تجي فين؟
فكر فؤاد في جواب بسيط يمكن أن يستوعبه السائق:
- قرب السعودية. الساحل الشرقي للسعودية.
تهللت أسارير الأسطى محجوب:
- السعودية؟ الحجاز! ما شاء الله. اللهم صل على النبي. مكة والمدينة.
أوعدنا يا رب.
بشيء من الحذر حاول فؤاد الإيضاح:
- البحرين بعيدة عن الحجاز.
إلا أن حقائق الجغرافيا لم تستطع إقحام الحلم اللذيذ الذي لف السائق العجوز:
- ربنا يوعدنا. نيجي عندكو. ونزور الحبيب.
صمت فؤاد. وصمت السائق مستسلماً للنشوة الروحية الغامرة التي أثارها ذكر الحجاز. بعد دقائق، فوجيء فؤاد بالسؤال:
- انت عارف يا بيه ان الرئيس أتم القنال؟
- طبعاً. كان هذا عملاً بطولياً تاريخياً.
تجاهل السائق العبارة الأخيرة وأعلن ببساطة:
- حتقوم حرب.
بوغت فؤاد بالنبوءة. صحيح ان طول الحرب تدق في كل مكان.
صحيح ان التهديدات مستمرة والأساطيل تحشد. إلا أن حرباً لن تقوم.
المستعمرون أجبن من أن يحاربوا مصر الثورة ومن ورائها الأمة العربية بأسرها. واستطرد الأسطى محجوب:
- الأنجليز حتحاربنا. والفرنساوية. لكن احنا مش خايفين. كانت لهجة الأسطى محجوب خالية من الإنفعال وكأنه يتحدث عن حرب خيالية في فيلم سينمائي:
- عارف مش خايفين ليه؟ عشان الروس معانا.

شعر فؤاد بخيبة أمل. كان يتوقع أن تكون الشجاعة نابعة من الروح المعنوية العالية التي أحيها جمال عبد الناصر. ومضى السائق يشرح الموقف.

- أصل الروس عندها صواريخ. خروشوف قال كده...

قبل أن يكمل حديثه قاطعه فؤاد:

- ما رأيك في جمال عبد الناصر؟

- الرئيس؟ جدع. زي سعد باشا. بس سعد باشا أجدع.

سعد باشا؟ السائق يتحدث عن سعد زغلول. لا بُدَّ أنه خرّف. من الأفضل تغيير الموضوع:

- هل وصلنا الى القاهرة؟

- لا يا بيه. دي مصر الجديدة.

قبل أن يتمكن فؤاد من إغراق ناظره في الشوارع الواسعة والقصور الرائعة المنتصبة على الجانبين، باغته الأسطى محجوب:

- إنما لا مؤاخذه حضرتك بتشتغل ايه؟

- طالب.

- في كلية إيه؟

- الحقوق.

شعر فؤاد بتأنيب ضمير خفيف على الكذبة. ينبغي أن يُصدم الأسطى محجوب إذا اكتشف أن الزبون الذي يسأله عن السياسة الدولية لم يصل الى التوجيهية بعد.

مرت المشاهد بسرعة والأسطى محجوب يشرح. العباسية. باب الحديد. ميدان التحرير. النيل! النيل أخيراً! ثم الدقي. وقف طويلاً عند شقة الأستاذ شريف يقرع الجرس من دون جدوى. طلب من الأسطى محجوب أن يأخذه الى مكان يستطيع فيه استعمال التليفون. أخذه الى أقرب بقالة، وبحثا عن رقم الأستاذ في الدليل حتى وجداه. أدار فؤاد الرقم إلا أن أحداً لم يرد. وكّرر المحاولة. النتيجة نفسها.

أسقط في يد فؤاد. طلب من السائق أن يأخذه الى مقر المؤتمر الإسلامي لعله يستطيع هناك أن يعثر على عنوان أصدقائه. لم يكن

الأسطى محجوب يعرف المحلّ. قضيا أكثر من ساعة في السؤال والبحث. وصلا في النهاية الى قصر جميل في الزمالك تحيط به حديقة غناء. لم يجدا هناك سوى الحارس الذي أخبرهما أن فترة العمل قد انتهت.

أحسّ فؤاد، بغتة، بالجوع. كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة. إلّا أنه لم يشأ أن يأكل قبل أن يعرف مصيره. طلب من الأسطى محجوب العودة الى الدقي. وقف على باب شقة الأستاذ يضرب الجرس وينتظر. بعد قليل، خرجت خادمة من الشقة المقابلة وأخبرته أن الأستاذ سافر منذ شهر الى الأسكندرية، وهي لا تعرف عنوانه هناك، ولا تعرف متى سيعود.

أحسّ الأسطى محجوب أن زبونه في ورطة. وكان لديه المخرج: - أنا أعرف بنسيون في الزمالك إنما لركس. «حورس هاوس». كله ذوات. ومش غالي قوي. ايه رأي حضرتك أوديك هناك؟

في الطريق، رقتا يتناولان ساندويتشات الفول التي يراها فؤاد لأول مرة في حياته. كانت ألد من أي ساندويتشات أخرى أكلها من قبل. وأصرّ الأسطى محجوب على الدفع:

- أنت ضيفنا يا بيه. لما ربنا يوعدنا ونزور الحجاز تبقى تعزمننا هناك. عندما وصل الى «حورس هاوس» كان يشعر بامتنان عميق نحو الأسطى محجوب رغم آرائه السياسية العجيبة. دفع له ضعف المبلغ الذي سجّله العدّاد. وطلب منه أن يحضر في التاسعة من صباح الغد. على باب البنسيون استقبلته سيّدة عجوز تتكلّم بلكنة يونانية واضحة: - من أي سفارة أنت؟

تلثم وهو يوضح انه لا ينتمي الى أيّ سفارة، وانه جاء الى القاهرة ليدرّس، قالت بسرعة:

- ومين أرسلك هنا؟

- لم يرسلني أحد.

- عرفت البنسيون إزاي؟

- أحضرني سائق التاكسي.

- جنيه في اليوم، للأوضة والأكل.

وأضافت على الفور:

- وأجرة أسبوع مُقدّماً من فضلك.

شعر فؤاد أن السيدة لم تستقبل في بنسيونها طالباً قبله. وشعر أن قاعدة الدفع المقدّم قد اخترعت الآن لمواجهة الوضع الجديد.

أخذته العجوز الى غرفة واسعة يغمرها النور. وبينما كانت حقائبه تنتقل الى الغرفة كانت تتلو التعليمات وكأنها تقرأها من ورقة:

- العشا من ستة لثمانية. الفطور من سبعة لتسعة. الغدا من وحدة لتلاثة. متأسفين، مفيش أكل في الأوضة. متأسفين، ممنوع الخروج من الأوضة بالبيجامة. متأسفين، ممنوع التدخين في البلكونة. متأسفين، الضيوف في الصالون بس. متأسفين...

عندما تركته مدام تانيا بمفرده في الغرفة شعر بكآبة سوداء تحتل أعماقه. شعر بالغرابة تطحن عظامه طحناً. شعر أن المدينة الجميلة الكبيرة ليست سوى فراغ هائل مفزع. أحسّ بشوق عنيف الى أمه والى بيته في البحرين. هل ارتكب أعظم خطأ في حياته عندما ترك أهله وجاء بمفرده الى القاهرة؟ ألم يكن هناك بديل آخر؟ دُعر عندما أحسّ بالدموع تتساقط في صمت على خديّه. مسحها وهو يشعر بالحجل. هل ييكي الرجال؟ سأل المدام عن أقرب طريق يوصله الى النيل. أخذته الى البلكونة وشرحت له كيفية الوصول. لم يكن بينه وبين النيل سوى شارعين. توقّف في الطريق واشترى علبه سجائر. كان قد جرّب التدخين مرّة أو مرّتين في المدرسة الثانوية إلا انه لم يتعلق به علي خلاف معظم زملائه. يشعر الآن ان الموقف قد اختلف. الموقف، الآن، يتطلب التدخين. لقد أصبح رجلاً يواجه مشاكل الرجال بأسلوب الرجال. «دخّن عليها تنجلي». تذكر العبارة التي يرددها المدخنون من أصدقائه.

أحسّ بدوار خفيف مع النفس العميق الأول من السيجارة، سرعان ما تلاشى. جلس على المقعد الحجري يتأمل النهر الخالد. كانت المياه رمادية كالحلّة على خلاف ما كان يتصوّر. كان يعتقد انها زرقاء كميّاه البحر في البحرين. خطر بباله ان الأحزان المتراكمة في قلب النيل عبر العصور لوّنت ماءه. النهر أوسع بكثير مما كان يظن، وأجمل بكثير. الحياة على ظهر النهر لا تنقطع. أشكال وألوان من السفن والقوارب تروح وتجيء. أصدقاء أغنية هنا، وضحكة هناك. شعر انه يلتحم بالتاريخ. لا يجلس بقرب مجرى ماء وإنما على عتبة الحضارة. عندما انسكبت ضفائر الشفق تحوّلت المياه

مادية، في لحظات، الى قرمزية. شعر بطمأنينة غريبة تزحف الى أعماقه
طرده مشاعر الوحشة. عاد الى البنسيون بخطى متثاقلة. انقضى يومه
ول في القاهرة.

* * *

مع الإفطار، تعرّف فؤاد على جيرانه في السكن. كانوا ثمانية.
يكيان يعملان في السفارة الأمريكية وقيمان في البنسيون حتى يعثرا
على المسكن المناسب. ثلاثة افغانين قدموا للإشراف على معرض تقيمه
بافغانستان في القاهرة. سويسريان من رجال الأعمال جاءا الى القاهرة
بحثا مع الحكومة المصرية مشروع فندق جديد. ويوناني مُسنّ يقيم في
بنسيون، بصفة دائمة، منذ عشرين عاماً، لا يكلم أحداً، ولا يكلمه أحد.
ير فؤاد أحداً من افغانستان من قبل. ويشكّ أن الأفغانين قد رأوا أحداً
من البحرين. كانت هناك أسئلة كثيرة متبادلة وأخيراً وصل الى السؤال
الذي حيّره منذ البداية:

- ماذا تعرض افغانستان في القاهرة؟

بحماسة، رد رئيس الوفد:

- أشياء كثيرة. كثيرة جداً. هناك السجاد الأفغاني الذي لا يقل في
ودته عن السجاد الإيراني. والفواكه المجففة. والمنسوجات بأنواعها. لماذا
تزور المعرض؟ أنّه هنا في الزمالك. في مبنى السفارة الأفغانية.
ثم بدأ أحد السويسريين يشكو:

- قضينا الآن أسبوعين في القاهرة. ولم نعر على أحد نبحت معه
بموضوع الفندق. يحيلوننا من جهة الى جهة، من وزارة الى وزارة. ان
ركتي تطلب منا العودة. كيف نعود قبل أن نتحدّث مع أحد؟

يعلّق أحد الأمريكيين:

- هذا هو الروتين المصري. ألم تسمع عنه من قبل؟ المصريون هم الذين
يترعوا الروتين. حظاً سعيداً! سوف يستغرق بناء فندقك مُدّة أطول من
مدّة التي استغرقها بناء الأهرام. وضحك الأمريكي على نكتته السخيفة.
ير فؤاد بالامتعاض. إذا كان هؤلاء الأجانب لا تعجبهم الأوضاع في
مصر فلماذا يجيئون اليها؟ لماذا لا يبنون فنادقهم في سويسرا أو أمريكا؟
يرون لإستغلالنا ويسخرون منا.

استقبله الأسطى محجوب بشوق وبابتسامة كبيرة:

- صباح القشطة يا فؤاد ييه. صباح الفلّ. على فين ان شاء الله؟

شرح له فؤاد أن عليه أن يسجل في أقرب قسم للبوليس. قرّر الأسطى محجوب ان أقرب قسم هو قسم بولاق. كانت هذه هي المرة الأولى التي يدخل فؤاد فيها قسم بوليس. ذهل لما شاهده. متشاجرون تسيل الدماء منهم بغزارة. نساء يتعلقن برقاب أزواجهن. أطفال صغار موقوفون. عشرات البشر في جحر ضيق. عندما وصلا الى «حضرة الضابط» وشرحا له سبب القدوم أجاب ان البنسيون لا يقع ضمن اختصاص قسمه. وانه لا يعرف القسم المختص.

بعد تفكير عميق، قرّر الأسطى محجوب أن القسم المعني يقع في المعجزة. وتكررت القصة. جربا قسماً ثالثاً، ورابعاً. ملّ فؤاد وطلب من الأسطى محجوب أن يأخذه الى مبنى المؤتمر الإسلامي. هناك، سأل موظف الإستعلامات:

- لو سمحت؟ أريد أن أعرف عنوان الطلبة البحرينيين الذين يدرسون على نفقة المؤتمر.

- أفندم؟!

لم يسمع الموظف عن طلبة من البحرين يدرسون على نفقة المؤتمر. وأجرى عدة اتصالات تليفونية لم تنته الى نتيجة. ثم قرّر:

- لازم غلطان يا أفندم.

أكّد له فؤاد انه واثق من معلوماته. وان المؤتمر الإسلامي يستأجر عدة عمائر في القاهرة يسكن فيها طلبة من جميع البلاد الإسلامية، ومن ضمنهم طلبة البحرين. أجرى الموظف المزيد من الاتصالات. في النهاية، قال له:

- اسأل في قسم الطلبة الشرقيين في وزارة التربية والتعليم.

قسم الطلبة الشرقيين؟ هل يبحث عن طلاب من الصين واليابان؟ إلّا أنه ذهب الى القسم. وطاف بالمكاتب يسأل بأدب. ويواجه النظرات المستغربة نفسها. لم يسمع أحد بزملائه. تطوع موظف فاقترح عليه مراجعة قسم البعثات. وكان هذا القسم في مبنى منفصل بعيد. هناك

- أخبره يا استاذ فؤاد.

استاذ فؤاد؟! طه حسين يسميه استاذ فؤاد؟!!

تردد فؤاد لحظة ثم تكلم:

- عندما بويح شوقي أميراً للشعراء أهدته البحرين نخلة من الذهب،
رطبها من الفضة. جاء بعض اللؤلؤ من متجر أبي الذي لا يزال يذكر
النخلة جيداً.

قال الدكتور صابر:

- لم أسمعك من قبل تستشهد بشعر شوقي يا باشا.

ردّ طه حسين:

- رحم الله شوقي. كان شاعراً فحلاً. آخر الشعراء الفحول.

قال عبدالرؤوف:

- ولكنك هاجمته يا دكتور طه.

ضحك طه حسين ضحكة طويلة صافية:

- هاجمتُ الجميع وهاجمني الجميع. شأني شأن بشار:

ألم ترَ أنني منذ ستين حجة أكيد شياطين العدا... وأكاد
ثم تنهد، وأضاف:

- كان هذا في الماضي. أما الآن فلسان حالي:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس «كيف ليبد؟»

سأل عبدالرؤوف:

- يا دكتور طه! لقد كتبت كل أنواع الأدب. فما هو أقربها إلى قلبك؟

- قد لا تصدق. أقربها إلى قلبي الشعر ولكن حاله معي كحال مع

الخليل بن أحمد، «يأباني جیده، وأبی رديته»، ولهذا طلقته بلا رجعة.

- لم الشعر بالذات يا دكتور طه؟

- لأنه قمة التركيز. في بيت واحد تجمع خلاصة عمر كامل. بوسع

المرء ان يؤلف كتاباً كاملاً عن بيت المعري:

تشتاق أيار نفوس الوری وإنما الشوق إلى ورده

يقترّب سكرتير الدكتور طه حسين منه ويقول:

- موعِد المحاضرة يا معالي الباشا.
 قبل ان يخرج طه حسين، يضحك وهو يصافح فؤاد ويقول:
 - ما هي أخبار ابن مالك يا استاذ فؤاد؟
 وضحك فؤاد بدوره:
 - بخير، يا دكتور، بخير. يسلم عليك!
 يغادر المؤلفان الناشئان المكتب وهما لا يكادان يُصدّقان انهما قضيا
 قراءة ربع ساعة يتحاوران مع عميد الأدب العربي.
 يسأل فؤاد:

- ما هي حكاية «معالي الباشا»؟
 - كان طه حسين وزيراً، وباشا. هل نسيّت؟
 - ألم تلغ الألقاب؟
 - لا يا باشا! من هو ابن مالك؟
 - سرّ بيني وبين الدكتور. لقد سماني الاستاذ فؤاد!
 ألم تسمعه؟
 - من هو ابن مالك يا أستاذ فؤاد؟
 - لا تسأل عما لا يعنيك.
 - من هو؟ يكاد الفضول يقتلني.
 - اقرأ مُعلقة طرفة بن العبد.

وجاءت المفاجأة الكبرى الثانية في الشهر نفسه: مقابلة الاستاذ عباس
 محمود العقاد. حقاً إن الكتاب غير مجرى حياتهما. تفتح، الآن أمامهما
 الأبواب، ويريان وجهاً لوجه، أولئك العباقرة الذين كانوا لا يرونهم إلا
 صوراً على صفحات الجرائد والمجلات. اصطحبهما الاستاذ عبد الباري إلى
 صالون العقاد الشهير، الذي يفتح أبوابه ظهر كل جمعة. كان الصالون
 الصغير يُغص بالرواد، وكان الاستاذ العقاد في الصدر يرتدي بيجامه
 صفراء أكل الدهر عليها وشرب، ويلف على رقبته شال الصوف المشهور،
 ويضع يده اليسرى تحت البيجامه ويتركها هناك. عندما رأي فؤاد وجوه
 المعجبين والمعجبات تذكر على الفور مجلس الاستاذ ميشيل عفلق. لم
 يعرف من الحاضرين سوى انيس منصور وصالح جودت. قدم الاستاذ

عبدالباري المؤلفين الشاين، وقام العقاد وصافحهما، وما ان رأى عنوان الكتاب حتى بادر فؤاد:

- «ورقه من بردى دلمون»؟ الكتاب عن جلجامش يا مولانا؟

احمرّ وجه فؤاد، وتلعثم:

- لا يا استاذ. اخترنا العنوان رمزاً يدل على كل من مصر والبحرين.

سأل أحد الموجودين:

- من هو جلجامش يا استاذ؟

وضحك العقاد:

- ما سمعتش عنه يا مولانا؟ ده مطرب مشهور.

وضحك مرة أخرى. وروى للحاضرين ملحمة جلجامش بكل تفاصيلها. وذهل فؤاد. لا يمكن ان يكون في مصر بأكملها، أكثر من عشرة أشخاص سمعوا، مجرد سمع بجلجامش. وهو ذا الآن يستمع إلى العقاد يروي القصة كما لو كانت من تأليفه. ما ان انتهى العقاد من سرد أحداث الملحمة حتى جاء سؤال آخر:

- لماذا يخلو الأدب العربي من الأساطير يا استاذ؟

وردّ العقاد بحدة:

- جبت الكلام الفارغ ده منين يا مولانا؟

استغرب فؤاد هذا الردّ الجارح، إلّا ان السائل لم يستغرب، ولم يستغرب أحد من الحاضرين. يبدو ان تعليقات كهذه تتكرر، بانتظام، في الصالون العتيد. ثم انطلق العقاد يتحدث عن الأساطير في الأدب العربي، بدءاً بأسطورة خرافة وانتهاءً بأسطورة علي الزبيق. وجاء الكلام متناسقاً وكأنه محاضرة أعدت بعناية على مدى أيام طويلة.

استجمع فؤاد كل شجاعته وقرر ان يتحمل أي ردّ جارح برجولة، وسأل العقاد:

- يا استاذ! العالم العربي يعج بالتيارات الفكرية هذه الأيام. ونحن الشباب ضائعون. أريد أن أسألكم عن رأيكم في العلاقة بين القومية العربية والاسلام.

رققه الاستاذ بنظرة غامضة المدلول. وقال:

- ما احنا عرب يا مولانا! ومسلمين برضه يا مولانا!

استطرد فؤاد:

- ولكن ألا يوجد تناقض بين الإيمان بالقومية العربية والإيمان بالإسلام؟
أجاب العقاد على الفور:

- اسمع يا مولانا! التناقض الوحيد هو بين العبودية والحرية، بين الاستبداد والعدالة، بين الديكتاتورية والديمقراطية. أما الشعارات يا مولانا فهي مجرد شعارات، لا توّدي ولا تجيب.

قبل ان يفيق فؤاد من صدمة هذه الصراحة، استمرّ العقاد هادراً:

- لا بديل عن الحرية. كل ما يطرح بديلاً عن الحرية هو ديكتاتورية. إذا طرحوا الاسلام بديلاً عن الحرية فاعرف انهم يطرحون إسلاماً مزيفاً. إذا طرحوا الاشتراكية بديلاً عن الحرية، فاعلم انهم يطرحون عدالة كاذبة. وإذا طرحوا القومية بديلاً عن الحرية، فاعرف انها مجرد شوشرة ايديولوجية. تسألني عن القومية يا مولانا؟ شوف هتلر عمل إيه باسم القومية! شوف موسيليني!

استمرت الأسئلة والأجوبة، والعقاد يتكلم في كل موضوع كما لو كان لا يحسن غيره. وفي تمام الثانية نهض، ونهض الجميع.

في الطريق يقول عبدالرؤوف:

- كنت أسمع من قبل عن جرأة الاستاذ العقاد. ولكني لم أكن أتصور انها تصل إلى هذا الحد. لم يكن العقاد يتكلم عن هتلر أو موسوليني. الجميع أدركوا المقصود. لو قالها شخص غير العقاد لبات الليلة في السجن.

نظر فؤاد إلى الساعة:

- فالتنا صلاة الجمعة اليوم بسبب العقاد. على فكرة ألا يصلي العقاد الجمعة؟

نظر إليه عبد الرؤوف بمكر:

- ما بلاش أسئلة سخيفة يا مولانا!

- وماذا تفعل يد العقاد تحت البيجامة؟

- مش قلنا بلاش أسئلة سخيفة يا مولانا؟! *

يجلس يعقوب وراء عجلة القيادة، وتقف «سالم الخطر» في شارع جانبي ضيق يتفرع من باب الحديد. ينظر يعقوب إلى الساعة، بمعدل مرتين في الثانية. تجيء التاسعة، ولا يحدث شيء. وتمر خمس دقائق، ولا يحدث شيء. ثم يفتح باب السيارة، ويطل وجه نسائي، وتطالعه عيون تختفي تحت نظارة طبية سميكة:

- شيلي؟ ميرفت!

يتأملها يعقوب بحذر، ويسأل:

- معاكي الجورنال؟

- هنا. أخبار الجمعة.

يهدأ يعقوب. «الجورنال». «أخبار الجمعة». اكتملت كلمة السر.

- تفضلي.

تجلس ميرفت بجانبه، وتنطلق «سالم الخطر».

كانت هذه مهمته الحزبية الأولى، توزيع منشور يدين الإقطاع الذي عاد إلى الريف رغم الإصلاح الزراعي. يتحدث المنشور عن معاناة الفلاحين، وعن أوضاعهم المتردية، ويطلب بحل الجمعيات التعاونية، وإعطاء الفلاحين الحق في إنشاء نقابات، وتأمين ما تبقى من ملكيات الاقطاعيين. قرابة ألف نسخة من المنشور تقبع في حقيبة ميرفت اليدوية المنتفخة التي تسيل منها، للتمويه، خيوط التريكو. أعطيا أربع نقاط للتوزيع: الأولى في الجيزة، والثانية في بولاق، والثالثة بقرب ميدان التحرير، والرابعة في شبرا الخيمة. لم تنص التعليمات، لحسن الحظ، على لصق أي أوراق. نثر المنشورات من السيارة عملية سريعة نسبياً، وسليمة من المخاطر التي تكتنف عملية اللصق على الجدران. اختار يعقوب شارعاً قريباً من الهدف وراقب كل الاتجاهات بعناية، وهمس:

- الآن!

امتدت يد ميرفت وألقت بحزمة من الأوراق. وانطلقت «سالم الخطر» إلى النقطة الثانية. وتكرر المشهد. قبيل منتصف الليل كانا قد أنهيا المهمة وعاد يعقوب بميرفت إلى المكان الذي التقيا فيه.

وجد يعقوب صعوبة بالغة في النوم بعد عودته. تصوّر ماذا سيحدث عندما يجيء الصباح، وتزدحم المناطق وتُكتشف المناشير. تصور غضب

رجال الأمن وهم يرون الأوراق الطائرة على الأرصفة. تخيل مؤتمراً يُعقد على الفور في وزارة الداخلية، ويحضره وزير الداخلية بنفسه. تابع رحلة المنشور وهو يصل، قبل انقضاء النهار، إلى جمال عبدالناصر. تخيل فرحة المسحوقين وهم يقرأون العبارات التي تشد أزهرهم. وابتسم وهو يفكر في الذعر الذي سيشملك الاقطاعيين الجدد. كل نسخة من هذا المنشور ضربة توجهها الجماهير إلى أعدائها. كل نسخة من هذا المنشور خنجر تغمده الجماهير في صدور جلاديهـا. بدأت مرحلة النضال الحقيقي في حياة يعقوب. ويقسم يعقوب، قبل ان ينام مع الفجر، انها ستدوم ما دامت حياته.

* * *

يدق عبدالكريم باب النرفة، ويدخل:

- فؤاد! هناك موضوع شخصي أرد ان أبحثه معك. وسيتك وحدك. لا أريد ان يعرف الآخرون. هل تعذني بكتمان السر؟
- أعدك. خير؟

- أفكر جدياً في الزواج بريري، وأحب ان أتناور معك قبل الوصول إلى قرار نهائي. ما رأيك؟

صمت فؤاد محرجاً، وألح عبدالكريم:
- تكلم! ما رأيك؟

احمرّ وجه فؤاد وظل ساكناً، ومضى عبد الكريم:
- أرجوك يا فؤاد. من الضروري ان أسمع رأيك.

- ماذا تريد مني ان أقول يا كريم؟ إذا كنت قد اتخذت قرارك فلماذا تطلب رأيي؟ أعتقد انك تعرف رأيي جيداً.
- أريد ان أسمعك منك.

يتنهد فؤاد:

- حسناً. كل ما أرجوه هو ان تستمع بهدوء ولا تغضب. أولاً، سوف تتخرج بعد شهر، وبإمكانك ان تفتح مكتب محاماة وتعتمد على نفسك. هذه ليست هي المشكلة. سيغضب والدك وسيقطع علاقته بك، وربما تبرأ منك. وهذه، أيضاً ليست هي المشكلة.

يدو على وجه عبدالكريم ارتياح واضح:

- إذن فأنت موافق؟!
- لم أكمل بعد. أنا لا أعترض على ريري. بنت طيبة ومهذبة، وتحبك. ولكنني أعتقد أنك تظلمها لو تزوجتها، وتظلم نفسك.
- كيف؟
- لا داعي لأن نلف وندور يا كريم. أعرف انها الآن تعمل في صالون حلاقة، وإن لم تعد «تشتغل» أعني لم تعد «تلعب»، كلمة «تلعب» أفضل. هذا صحيح، ولكن ماذا عن الماضي؟
- لقد غفرت لها الماضي.
- الموضوع ليس موضوع غفران. هل تستطيع ان تنسى هذا الماضي.
- لقد نسيتته بالفعل.
- أشك في هذا. ولكن لنفترض، جديلاً، أنك نسيتته. الآخرون لن ينسوا.
- ما دخل الآخرين؟ هذه حياتي الخاصة!
- منذ متى احترم الآخرون حياة أحد الخاصة؟! هل احترمتهم انتم حياتي الخاصة مع مديحة؟!
- الموضوع يختلف.
- ربما. ولكن الفكرة هي ان الناس لا يرحمون. أتعرف ماذا سيقول الناس لو تزوجت ريري؟ سيقولون تزوج... لا تكمل! لا تكمل!
- لقد فهمت، إذن، ما أقصد! لا تود ان تسمع الكلمة. ولكنها سوف تقال. شئت أو لم تشأ.
- لن ألقى بالاً لكلام الناس. سعادتي فوق كل شيء.
- ولكن هذا الزواج لن يجلب لك السعادة.
- لماذا تقبل هذا؟ لا تتصور مدى سعادتي مع ريري.
- سوف يختلف الوضع في المستقبل.
- ولماذا يختلف؟
- سوف يكون هناك دائماً ما يذكرك بماضيها. ومن يذكرك به.

- ذهب الماضي إلى غير رجعة.
- اسمح لي ان أكون قاسياً. هل تعرف عدد الزبائن الذين تعاملت معهم ريري خلال فترة عملها، خلال فترة لعبها؟
- لا أعرف. ولا أريد ان أعرف.
- بإمكاننا ان نفترض انها تعاملت مع مئات.
- لا تكن سخيلاً يا فؤاد!

- يا كريم! تستطيع ان تهرب من الناس. ولكن كيف تهرب من نفسك؟ سوف تظل دائماً وأبداً في برائن الأسئلة المزعجة. هل عرفت فلان؟ هل انبسطت مع فلان؟ هل أرضاها فلان في الفراش؟ كيف أضمن انها لا تخونني؟ كيف أعرف انها لن تعود إلى اللعب؟ سوف تتحول حياتك إلى جحيم، وسوف تحول حياتها إلى جحيم. سوف تكون هي الضحية.

- لن تخطر هذه الأسئلة ببالي. ثقتي فيها مطلقة.
- في رأيي انها لن توافق على الزواج حتى ولو طلبت إليها ذلك.
- ينظر إليه عبد الكريم بدهشة:
- كيف عرفت؟! هل بحثت الموضوع معها؟
- لم أبحث معها شيئاً. هذا ظني. مجرد ظن.
- لقد تحدثت معها، بالفعل، أكثر من مرة. وفي كل مرة ترفض فكرة الزواج. وترفض بشدة.
- ترفض لأنها ذكية يا كريم. أذكى منك!

* * *

لم يتوقع قاسم ان تحظى المغامرة التجارية الأولى في حياته بكل هذا النجاح. لم يكد المكتب يبدأ أعماله، حتى انهالت عليه الطلبات. رُقي الموظف الذي جاء من «الهيلتون» مديراً، ووصل عدد الموظفين إلى خمسة. سرعان ما أصبح دخل المكتب الشهري في حدود خمسمائة جنيه، بربح صافٍ يعادل ثلث المبلغ. شعر قاسم بنشوة من نوع جديد وهو يعدّ النقود التي حصل عليها من عرق جبينه. فوق النشوة، يشعر بنحو هذا المال بشعور تملك غريب يمنعه من انفاقه. كيف يبعثر الانسان مالا تعب في الحصول

عليه؟ فتح قاسم حساباً خاصاً، لأرباح المكتب - لم يصرف منه مليماً واحداً.

والشعور نفسه، أو شبيهه، يراود نشأت. رغم انه تعود على ان يحصل من أبيه على كل ما يحتاج إليه، فالمال الذي يجيء من المكتب، الآن، له مذاق خاص. يجد نشأت، هو الآخر، ان من الصعب عليه ان يتفق قرشاً واحداً من دخل المكتب. توطدت العلاقة أكثر فأكثر بين الصديقين وهما يلتقيان في المكتب، في الرابعة من بعد ظهر كل يوم، ولا يغادرانه إلا مع الثامنة. ومع تجربة المكتب، جاءت تجارب أخرى من كل صنف ونوع. تعلم الصديقان من فنون العلاقات العامة دروساً لا يمكن تلقاها في أي كلية. تعلّما الفرق بين التعامل مع المريض والتعامل مع المعافى؛ بين التعامل مع الغنى الارستقراطي والتعامل مع محدث النعمة؛ بين التعامل مع المرأة والتعامل مع الرجل. وكثيراً ما وجد الاثنان نفسيهما في فوهة المدفع، أمام زبون ثائر أو زبونة منفعة. واكتشف نشأت في أعماقه، من المواهب التجارية ما لم يكن يخطر له ببال. اقترح فتح فرع صغير في المطار، مجرد طاولة مع موظف، وضاعف هذا الفرع نشاط المكتب. واقترح توظيف سكرتيرة تتولى الاستقبال والرد على المكالمات، وكانت هذه، بدورها، إضافة فعالة.

بحث الصديقان مستقبل المكتب:

- اسمع يا نشأت. بعد سفري، سوف يكون المكتب كله لك. سوف أبيعك حصتي بسعرها الأساسي، سبعمائة جنيه.

- لا. لماذا لا تحتفظ بحصتك؟

- ماذا سأفعل وأنا في أمريكا بالجنهات المصرية؟

- لا تستعجل. دعنا نفكر في الموضوع.

- انتهينا. سوف يكون المكتب لك. هل تنوي ان تستمر في إدارته بالطريقة نفسها؟

- لا. أعتقد انني سأحتاج إلى شهادة ميلاد رسمية. لا بد من تسجيل المكتب رسمياً، ومن اعطائه اسماً.

- ماذا عن الضرائب؟

- لا تكاد تذكر. مائة جنيه في السنة، أو نحوها.

شقة الحرية

أحيل، من جديد، الى مقر المؤتمر الإسلامي. واستقبله موظف الاستعلامات ببرود واضح. ولكنه أجرى المزيد من الاتصالات وأخيراً قال: - راجع إدارة العلاقات الدولية بالمؤتمر. ليست بعيدة من هنا. راجعهم بكره فقد انتهى الدوام.

عاد الى البنسيون وهو غاضب. ضاعت عدة ساعات هباء. لم يستطع أن يسجل ولا أن يعثر على أصدقائه. كان يشرح للمدام ما حدث عندما تدخل الأمريكي ثقيل الدم:

- ألم أقل لكم؟ هذا هو الروتين المصري. سوف يستغرق تسجيل جوازك مدة أطول من المدة التي استغرقها بناء الأهرام.

يبدو ان هذه نكته الوحيدة. وهي نكتة سمجة لا يزيدنها التكرار إلا سماجة. نظر اليه فؤاد بحنق ولم يرد. وتطوعت المدام بحل مشكلة التسجيل. أخبرته انها ترسل جوازات الزبائن بصورة منتظمة الى البوليس وان هذه مسؤولية الفندق لا الساكن. شعر ان عبثاً ثقيلاً ينحط عن عاتقه فهو لا يريد أن يبدأ حياته في مصر بمخالفة قوانينها.

مع حلول المساء، عاوده الشعور الأليم بالوحشة. ورأى أن أفضل طريقة للتنفيس عن مشاعره هي أن يكتب رسائل الى ذويه. وبدأ في كتابة رسالة طويلة الى أبيه، ثم رسالة أطول الى أمه، ثم رسالة الى ناصر ورسالة الى خليل. عندما انتهت كانت الساعة تدنو من منتصف الليل وكان قدر من الوحشة قد غادر جسمه وانتقل الى الرسائل. قرّر قبل أن ينام انه لا بد أن يلتقي غداً بأصدقائه ولو قضى اليوم بأكمله بحثاً عنهم.

تعرف على أصدقائه في سن السادسة، في أول حديقة، كما كانت السنة الأولى الابتدائية تُسمّى وقتها، ومشوا معاً، سنة بعد سنة، حتى جمعتهم القاهرة. عبد الكريم ويعقوب وقاسم. عبد الكريم ينحدر من عائلة دينية عريقة، فأبوه شيخ وجدّه شيخ، الى الجد السابع على أقل تقدير. بل ان أحد جدوده يعتبر من الأولياء الصالحين وله مزار في البحرين يقصده العوام، وبالذات النساء الراغبات في الإنجاب. وكان عبد الكريم يتلقى التعليقات اللاذعة عن فحولة جدّه حتى بعد موته بابتسامة الفخر. عبد الكريم طيب القلب الى حد السذاجة، كريم الى حد السفه، وفيّ الي أبعد الحدود. إلا أن مزاجه سريع التقلب. بينما تراه سعيداً يضحك من الأعماق تفاجأ به، بعد دقائق، وقد دخل موجة من الكآبة السوداء تستغرق أياماً.

- ولكن كيف ستجمع بين عملك في مجلس الدولة وعملك في المكتب؟

ارتسمت على وجه نشأت علامات رعب مصطنع:

- صحيح! صحيح! القانون يمنع الجمع بين الوظيفة العامة والعمل الخاص! ماذا سأصنع؟

- لديك في مجلس الدولة أعظم العقليات القانونية في مصر. لماذا لا تستأنس برأيهم؟

- فكرة! مكتب مجلس الدولة للخدمات!

ومع عالم المكتب، تكشفت أمام الصديقين عوالم مليئة بالبنيات: البنيات العاملات في مكاتب السياحة، البنيات الموظفات في البنوك، البنيات العاملات في الفنادق. اكتشف كل من قاسم ونشأت، بما يشبه الصدمة، ان التحدي الحقيقي الذي يواجههما الآن ليس العثور على البنيات بل البقاء بعيداً عنهن! كيف تغيرت الأمور؟! كيف أصبح الصياد هو الطريدة؟! البيزات؟! البيزات!

تردد قاسم قبل ان يفتح نشأت، ثم أقدم:

- عفواً يا نشأت! لا أود ان أتدخل في شؤونك الخاصة. ولكن منذ عودتنا من الإجازة لم أرك مع الفلاحة السويسرية. ماذا حدث؟
رد نشأت بانفعال:

- فلاحة فعلاً! أتدري ماذا قالت لي بعد عودتي من البحرين؟
- ماذا قالت؟

- إما ان تتزوجني، وإما ان تتركني.

- وما وجه الغرابة؟ هذا ما قالته فريدة. وما قالته شيرين.

- كنت أعتقد ان هذا يقتصر على الفلاحات المصريات. هذا الحرص الغريب على الزواج. ولكن هذه بنت سويسرية. تعرف انه من المستحيل ان أتزوجها.

- يبدو ان قضية الزواج مغروسة في أعماق كل بنّية، سويسرية كانت أو صعيدية. ماذا قلت لها؟

- قلت لها في ستين داهية!

- حرام عليك! بعد هذا كله؟
- قلت لها إني لا أستطيع أن أتزوجها. إذا كانت تقنع بالصدقة فأهلاً وسهلاً. وإذا كانت مصرة على الزواج فعليها أن تبحث عن خواجة سويسري.
- حتى أنت يا نشأت؟!
- ماذا تريدني أن أفعل؟ أتزوجها؟
- لا يتزوج الشرقي امرأة نام معها قبل الزواج، إلا إذا كان مجنوناً.
- وأنا شرقي. ولست مجنوناً. لم أضحك على أحد ولم أخدع أحداً.
- فرفشة؟ «أو كي»! زواج؟ يفتح الله!
- والآن لديك «جو» جديد؟ موظفة «الميناهاوس»؟
- ما رأيك؟
- تحفة؟ ولكن انتبه! عليها علامات الرغبة في الزواج.
- لن أتزوج بنتاً ألب معها.
- هل أوضحت لها ذلك؟
- yes sir.

* * *

كل الجهود التي بذلها موظفو المكتب، وكل محاولات قاسم ونشأت، وكل الدعم الإضافي الذي جاء من الاستاذ شريف ومن الباشا، كل هذا لم يفلح في العثور على السجادة الايرانية التي أحضرها قاسم معه من البحرين. يلعن قاسم، الآن، الساعة التي قرّر فيها أن شقة الحرية تحتاج إلى سجادة أصفهاني. ويلعن الساعة التي اشترى فيها السجادة الصغيرة بثلاثمائة روبية. ويلعن الساعة التي اصطحب فيها السجادة معه على الطائرة. كان مستعداً لدفع الرسوم الجمركية، وكان يعرف أنها سوف تكون ١٠٠٪ من الثمن الأصلي، وجاء مزوداً بالفاتورة والمبلغ وكل التصديقات الرسمية الضرورية.

نظر إليه موظف الجمرك في المطار ببرود، وأعلن:
- دي سجادة!

وحاول قاسم أن يجابه بروده ببرود مماثل:

- ما أنا عارف!
- قال الموظف:
- الرسم على السجاد ما يندفعش هنا!
- أمال يندفع فين؟
- في جمرك السبتيه.
- ليه بقى؟
- التعليمات! راجع السبتيه بعد اسبوع.
- أخذ فؤاد الوصل. وراجع، جمرك السبتيه بعد اسبوع. إلا أنه لم يجد السجادة. وعاد بعد اسبوع آخر. ولم يجد جديد. قال له أحد الموظفين:
- شوف الجمرك الكبير في الجيزة. يمكن راحت هناك بالغلط.
- وفوجيء فؤاد:
- الجمرك الكبير؟
- هنا جمرك المطار بس. جمرك المديرية في الجيزة.
- في الجيزة لا يعرف أحد شيئاً عن السجادة. ولا في السبتيه. ولا في المطار.
- صرخ قاسم في وجه فؤاد وكأنه المسؤول عن ضياع السجادة:
- طاسة ضايعة! فوضى! هذه إدارة زعيمكم العظيم!
- سرقوا سجادتي!
- ردّ فؤاد بشماتة واضحة:
- مال المستغلين للمحرورين. مجتمع الكفاية والعدل.
- ويزداد صراخ قاسم:
- لصوص وحرامية! لصوص وحرامية!

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرملِ وهذا الذي يضني.. كهذا الذي يبلي
المتنبي

۱۶

دیسمبر ۱۹۶۰

بنا منك فوق الرمل ما بك في الرَّمْلِ وهذا الذي يضني.. كهذا الذي يبلي
المتنبي

۱۶

دیسمبر ۱۹۶۰

جاء الصوت عبر التليفون هادئاً رقيقاً:

- فؤاد؟ اشلونك يا ولدي؟

على الفور صرخ فؤاد:

- استاذ ابراهيم؟! أهلاً وسهلاً. أنت في القاهرة؟

وردّ الصوت الهادىء:

- نعم يا ولدي. وعندي لك رسالة من الوالد. هل تمرّ وتأخذها؟ أم أمرّ أنا عليك؟

- لا يا استاذ. أمرّ عليك أنا. أين تقيم؟

- فندق ناشونال.

- هل يمكن ان آتي الآن؟

- تفضّل يا ولدي.

الاستاذ ابراهيم العريض! كل من في البحرين يسميه «الاستاذ». لا يوجد سوى استاذ واحد. أشهر شعراء المنطقة، وأشهر أدبائها. فؤاد، منذ طفولته، يعرف الاستاذ الذي يسكن الحي نفسه، والذي يمرّ بمتجر أبيه كل يوم تقريباً. ألقى الاستاذ عدة محاضرات في الثانوية عندما كان فؤاد طالباً. وقرأ الاستاذ قصص فؤاد المنشورة. وشجّعه على الاستمرار. خطّ فؤاد اهداء طويلاً علي نسخة من «ورقة من بردى دلمون»، وقفز في أول تاكسي، متجاهلاً تعليمات الاستاذ شريف الاقتصادية.

في بهو الفندق استقبله الاستاذ بقامته الفارعة، بابتسامته الكبيرة، وبعينيه الواسعتين الصافيتين، واحتضنه بحرارة:

- أهلاً وسهلاً يا ولدي. اشلونك عزيزي؟
- بخير يا استاذ. اشلونك أنت؟
- الحمد لله. هذا مكتوب لك من الوالد.
- شكراً يا استاذ. نورث القاهرة. عمل أو زيارة؟
- عمل يا ولدي. جئت أمثل البحرين في مؤتمر الأدباء العرب.
- قرأت عنه في الجريدة. هل جاء معك أحد؟
- لا يا ولدي. أنا الوحيد الذي دُعي.
- وكيف برنامج المؤتمر؟
- كالعادة يا ولدي. كلمات وتوصيات. غداً وبعد غد. ثم نلتقي بالرئيس.
- بجمال عبد الناصر؟! متى؟!
- الخميس ظهراً. بعد انتهاء المؤتمر.
- أين؟
- البرنامج يقول القصر الجمهوري.
- في القبة.
- لمعت الفكرة، بغتة، حادة كالسيف، في رأس فؤاد:
- استاذ ابراهيم! هل من الممكن ان أتقدم إليك بطلب؟ أرجوك؟
- بدت غمامة حذر على محيا الاستاذ:
- طلب؟ حاضر يا عزيزي.
- استاذ ابراهيم! أعظم أمنية في حياتي هي ان أقابل جمال عبدالناصر.
- وهذه فرصة لن تتكرر. أرجوك! سجل اسمي معك في الوفد. وخذني معك لمقابلة جمال عبدالناصر.
- انطبعت على وجه الاستاذ علامات حيرة واضحة. ولم يتكلم.
- واستطرد فؤاد:
- أرجوك! أرجوك يا استاذ ابراهيم! لقد ألفت عشرات القصص وأصدرت كتاباً. ها هوذا أمامك. ولقي الكتاب ترحيباً من كبار النقاد.
- يمكن اعتباري أديباً. أليس كذلك يا استاذ ابراهيم؟

- صحيح يا ولدي. أنا أعتبرك أديباً من دون شك.

- إذن، يا استاذ، ساعدني. سجل اسمي معك في المؤتمر. قل لهم ان هذا عضو انضم إلى وفد البحرين في آخر لحظة.

تصطرع المشاعر على وجه الاستاذ الذي لا يحسن اخفاء مشاعره. من الواضح انه ممزق بين رغبته في تحقيق أمل هذا الأديب الصغير، ابن صديقه، وبين الانضباط الصارم الذي يتحكم في حياته والذي لا يسمح بتصرفات عفوية مفاجئة:

- ولكن يا ولدي فات الأوان. المؤتمر يبدأ غداً.

- يا استاذ! المسؤول عن المؤتمر هو يوسف السباعي. وهو صديقك. أعرف انه صديقك. كلمة واحدة منك ويدخل اسمي ضمن الأعضاء. أرجوك يا استاذ ابراهيم! هذه فرصتي الوحيدة لرؤية جمال عبدالناصر. سوف أغادر القاهرة هذا الصيف وإذا لم أراه الآن فمتى أراه؟ أرجوك يا استاذ ابراهيم!

يقوم الاستاذ من مقعده:

- سأحاول يا ولدي. انتظرنى هنا.

اتجه الاستاذ إلى مكتب الاستقبال. رفع سماعة التليفون. واستغرق في حديث طويل. على خلاف عادته، كان يشير بيده بين الحين والآخر. ثم وضع السماعة. وأقبل على فؤاد مبتسماً:

- وافق يوسف السباعي وأصبحت ضمن وفد البحرين. نلتقي هنا الثامنة من صباح الغد.

يقف فؤاد ويعانق العملاق المبتسم:

- كيف أشكرك يا استاذ ابراهيم؟ كيف أشكرك؟

مرت وقائع المؤتمر بفؤاد مرور الحلم العابر. بدأ المؤتمر في قاعة الاجتماعات بمبنى الجامعة العربية. ألقى يوسف السباعي كلمة الافتتاح. ثم توالى كلمات رؤساء الوفود. في المساء، كان هناك حفل عشاء في نادي الضباط بالزمالك. ورأى فؤاد كثيراً من المشاهير، نزار قباني، عبدالوهاب البياتي، سليمان العيسى، نازك الملائكة، يوسف ادريس، حمد الجاسر، وتحدث مع بعضهم. في الصباح التالي بدأت اجتماعات اللجان ووجد فؤاد نفسه في لجنة الصياغة حيث انصبت كل التوصيات. يدين المؤتمر.

وكثيراً ما تكون كآبته مرتبطة بالوسوسة والخوف من المرض. كل شهر يكتشف عبد الكريم داء جديداً في جسمه. ويسهر خائفاً من الموت. ويفقد الثقة في أي طبيب يخبره أنه سليم معافى. وعبد الكريم يعاني صراعاً هائلاً في أعماقه. ذلك أن تربيته الدينية الصارمة جعلته يميل إلى المسالمة والهدوء. إلا أنها أعطته، في الوقت نفسه، رغبة كامنة في التمرد والعصيان تنفجر، بين الحين والحين، مروعة في حدتها. بدأ ثورته حين رفض أن يذهب إلى النجف لدراسة العلوم الدينية كما أراد والده. وواصل الثورة عندما قرّر أن يدرس الحقوق في القاهرة رغم معارضة الشيخ الذي اعترض على دراسة «قوانين وضعية». أصرّ عبد الكريم وأصرّ. ولم يستطع والده ثنيه عن عزمه. حتى اضطر إلى الموافقة على مضض.

أما يعقوب فشخصية مختلفة تماماً. ينحدر يعقوب من عائلة فقيرة عانت، في البداية، الكثير من شظف العيش. وقد وُلد بطاقات لا تنضب من الغضب. وكان غضبه يتخذ أشكالاً مختلفة تنتهي كلها بالثورة العارمة والرغبة في نسف المجتمع بأكمله. كان يعقوب لا يميل اعتناق القضايا، ولا يميل تغييرها. وكان قارئاً مدمناً يقرأ كل ما يقع تحت يده ويتأثر به. قرأ عن الصوفيين فاعتكف في المسجد. وقاده أيقور إلى اللذة. وديكارت إلى الشك. وجمال عبد الناصر إلى القومية العربية. كان يعتقد كل رأي باقتناع تام، وينافح عنه بشراسة. ثم يعتقد رأياً مخالفاً يدافع عنه بالحماسة نفسها. ولا يرى أي تناقض. ويبقى هدفه الدائم ثورياً: اقتلاع المجتمع القديم وإقامة مجتمع جديد يختلف باختلاف النظرية التي تحتل ذهن يعقوب. وفوق هذا كله فليعقوب مواهب عديدة، الرسم والغناء والشعر والخطابة.

أما قاسم فهو نقیض يعقوب. ولد قاسم من أسرة تنتمي إلى فئة «البورجوازيين الجدد». كان أبوه في أول شبابه عاملاً بسيطاً في شركة البترول، «بابكو»، ولكنه كان عصامياً، وقد انتهى به المطاف مليونيراً. وضع قاسم المبادئ الرأسمالية مع الحليب. كان الطالب الوحيد في المدرسة الثانوية، وربما في مدارس البحرين كلها، الذي يكره جمال عبد الناصر، ابن البوسطجي. لم يكن قاسم يتصور أن ابن بوسطجي يمكنه أن يقود مجتمعا بطريقة أفضل من طريقة ملك ابن ملك. المذاهب الاشتراكية، في رأي قاسم، مجرد أحقاد يعتنقها الموتورون من الطبقات الدنيا. وانقسام العالم إلى أغنياء وفقراء هو النظام الطبيعي الذي لا يحاول تغييره سوى مجنون أو موتور. وقاسم لا ذع اللسان، قوي الحجّة، لا يخفي

يشجب المؤتمر. يحيي المؤتمر. يناشد المؤتمر. قُرئت التوصيات وأقرت في الجلسة الختامية. وألقى الاستاذ ابراهيم العريض كلمة باسم الوفود شكر فيها حكومة الجمهورية العربية المتحدة.

ثم حانت الساعة! توجه الأدباء إلى القبة في موكب ضخم من أربعين سيارة تتقدمه سيارات النجدة وصفارات الأنداز. الناس في الشوارع يلتفتون ويحيون. وفؤاد في السيارة بقرب الاستاذ. جمال عبدالناصر! سوف يلتقي الآن بجمال عبدالناصر. وجاء صوت الاستاذ خافتاً كما لو كان قادماً من قارة أخرى:

- أبو المتنبي يا ولدي ليس لغزاً. كل ما يحتاج إليه الباحث هو بعض الذكاء.

أبو المتنبي؟! نحن في الطريق إلى رائد القومية العربية والاستاذ يتحدث عن أبي المتنبي؟! واستمر الاستاذ:

- تنبه الاستاذ شاكر إلى هذه النقطة. ولكن الدكتور طه حسين، مع الأسف، ضلّ الطريق.

جمال عبدالناصر! جمال عبدالناصر! جمال عبدالناصر! وأنا الآن يا ولدي بصدد إعداد كتاب عن المتنبي. وسوف أوضح هذه المسألة.

جمال عبد الناصر! جمال عبد الناصر! جمال عبد الناصر! وصلنا يا استاذ.

استقبلهم موظفو التشريرات على مدخل القصر وقادوهم إلى الصالة الكبرى. اصطف الادباء في انتظار الرئيس. أحسّ فؤاد باللهفة تتجمع في الجو ثم تتحول إلى كتلة صلبة تضغط على الصدور. بغتة، دبّ تيار كهربائي في الصالة. دخل عدد من الضباط. ثم دخل الرئيس وبجانبه يوسف السباعي. ضجت الصالة بالتصفيق. وابتسم الرئيس. ومرّ على كل وفد، يصافح كل عضو، ويتبادل جملة أو جملتين مع رئيس الوفد. وارتشف فؤاد بعينه، ووجدانه، كل التفاصيل. الوجه الأسمر الذي يبدو، الآن، أوسم مما يبدو في الصور. البريق النفاذ الذي يشع من العينين. البقعان الرماديتان تحت العينين. الشيب في الفؤرين، أكثر بياضاً من

الصور. البدلة الزرقاء الداكنة. الكرافة الزرقاء المخططة بالأحمر (يزعم قاسم ان كل كرافات جمال عبدالناصر من ماركة «سولكا»، وانه أحصى ما لا يقل عن أربعمئة كرافة مختلفة من صورهِ). جرح الحلاقة الصغير على الذقن.

وقف الرئيس أمام الأستاذ، وقال يوسف السباعي:

- سيادة الرئيس! هذا الأستاذ ابراهيم العريض. أديب البحرين الكبير.

ابتسم جمال عبدالناصر، ومدَّ يده:

- أهلاً وسهلاً. أهلاً بك في بلدك.

إلا أن الأستاذ الذي تحرر الآن من سجن المتنبى لم يكتف بالمصافحة. هجم الأستاذ على جمال عبدالناصر واحتضنه ثم قبَّل جبهته. أخذ جمال عبدالناصر، ثم قال:

- سمعت أنك كتبت ملحمة هائلة عن فلسطين.

وردَّ الأستاذ بصوت لا يكاد يسمع:

- «أرض الشهداء». سوف أرسل لفخامتكم نسخة. فخامتكم؟! واستطرد الأستاذ:

- يا فخامة الرئيس! أقدم لكم فؤاد الطارف. أديب شاب من البحرين. ويدرس هنا في القاهرة.

جمال عبدالناصر أمامه الآن! أمامه تماماً! وجهاً لوجه! عيناً لعين! في طوله تقريباً. يا للمفاجأة السعيدة!

يد جمال عبدالناصر تشدَّ على يده:

- أهلاً وسهلاً. بتدرس فين؟

- كلية الحقوق. جامعة القاهرة.

- شد حيلك. واتخرج!

بحركة عفوية كرَّر فؤاد ما فعله الأستاذ. هجم على جمال عبدالناصر واحتضنه وقبَّل جبهته. ابتسم جمال عبدالناصر، الذي كان مستعداً هذه المرة، وقال:

- أهلاً بك في بلدك.

ومضة واحدة في عمر الزمان، ثم اختفى جمال عبدالناصر. انتقل إلى

الوفد المجاور. شعر فؤاد بدوار مفاجيء. خشي أن يغمى عليه أمام الجميع. تمسك بذراع الاستاذ الذي أدرك ما يدور. ابتسم الاستاذ وهمس في أذن فؤاد:

- لو كان المتنبي هنا يا ولدي هل تعرف ماذا كان سينشد؟
ردّ فؤاد بين الصحوّة والاعماء:
- ماذا يا استاذ؟
- كان سينشد:

فَدَى لَكَ مِنْ يَقْصُرُ عَنْ مَدَاكَ فَلَا مَلِكٌ، إِذَنْ، إِلَّا فِدَاكَ

* * *

استيقظ عبدالكريم على رنين التيلفون. فتح النور ونظر إلى الساعة. الثالثة صباحاً! من يتكلم في هذا الوقت؟ أي سخيّف! واستمر الرنين. وقام عبدالكريم متذمراً متثاقلاً، ورفع السماعة.

- سي كريم؟ سي كريم؟

وردّ بصوت متخم بالنوم:

- نعم؟ مين؟

- أنا أم عنايات يا سي كريم.

في البداية لا يعرف من هي أم عنايات. ثم يتذكر اسم ريري الحقيقي.

- الحق يا سي كريم! الحق! عملوا عملية لعنايات وحالتها خطر! الحق يا

سي كريم!

أصيب عبدالكريم بما يشبه الشلل. وعجز عن الكلام. وجاءت المعلومات متناثرة من التيلفون:

- إحنا هنا في القصر العيني. عنبر خمسة. والنبى تلعّق يا سي كريم. يا

رب استرها معانا يا رب.

وضع عبد الكريم السماعة وأدار رقم ماجد. ورن التيلفون عدة دقائق

قبل ان يجيب ماجد:

- هَلّوا!

- ماجد؟ أنا كريم!

- خير؟ الفجر لم يطلع بعد.

- أعرف يا ماجد. آسف على الازعاج. ريري في القصر العيني. عنبر خمسة. عملوا لها عملية. وحالتها خطيرة.

- تعال الآن. أراك عند المدخل.

وقف عبد الكريم وماجد والأم بقرب سرير ريري في طرف العنبر. بغتة، فتحت ريري عينيها وابتسمت، وهمست:

- ازيك يا سي كريم؟

قبل ان يجيب عبد الكريم انطبقت الجفون وعادت إلى نومتها العميقة. طلب إليه ماجد ان ينتظره في العنبر وذهب لاستقصاء ما حدث. مرت الدقائق كسيحة جريحة. وريري تتكلم في نومها. وهو يضع أذنه على فمها ليسمع ما تقول. والمرضات يقسن الضغط والنض كل ربع ساعة، ويرفضن الأجابة عن اسئلة عبدالكريم والأم في دعاء مستمر:

- يا رب استرها معانا. يا رب دعوة وليه ساعة الفجرية يا رب لطفك يا رب.

سألها عبد الكريم عن تفاصيل ما حدث وانفجرت:

- يا ابني دي جت من الشغل على العصر. وقالت انها تعبانة وعازرة تستريح. بعد شوية، قامت تستفرغ. يا ضنايه! وتصرخ، «بطني، يا ماما، بطني!» قلت لها: «بيننا نشوف الدكتور يا حبيبتى». قالت: «لا يا ماما. ما لوش لزرم. حاخف دلوقتي» قعدت تبكي وتستفرغ. وبعدين داخت. ما بقتش توعي عليه. قمت يا ابني جيت الدكتور بطرس. عيادته قدام عمارتنا. أول ما شافها قال: «القصر العيني، طوالي!» جبنها يا ابني على المغرب. شافوها الدكاترة وقالوا: «زايدة! عملية على طول» ودوها أوضة العمليات. قعدوا يجي أربع خمس ساعات. وجابوها زي ما أنت شايف كده. مش واعيه على حاجة. قلت للدكتور: «خير؟». قال: «ربنا يلطف يا ست!». يا رب استرها معانا يا رب.

جاء ماجد وطلب إلى عبد الكريم ان يرافقه في جولة على الأقدام خارج المستشفى. غادرا القصر العيني، وأضواء الصباح تتسلل من بعيد، والقاهرة على وشك ان تبدأ يوماً جديداً.

- لم أشأ ان أتحدث أمام أمها. الحالة ميئوس منها يا كريم. التهاب في الغشاء البريتوني.

نظر إليه عبد الكريم بילהة، واستأنف ماجد:

- آسف. سوف أشرح لك. أصيبت بالتهاب حاد في الزائدة الدودية. وانفجرت الزائدة قبل وصولها إلى المستشفى بساعات. عندما أجروا العملية وجدوا السموم منتشرة في الامعاء. هذا ما أقصده بالتهاب الغشاء البريتوني.

- ولكنهم أجروا لها عملية يا ماجد. قالت لي أمها ان العملية استغرقت أكثر من أربع ساعات. لماذا لم تنقذها العملية؟

- تحدثت مع الجراح الذي أجرى العملية. قام بكل شيء يمكن عمله. حاول تطهير الامعاء إلا ان السموم كانت قد تسربت إلى الدماء. وهي الآن في غيبوبة لا يتوقع الأطباء ان تفيق منها.

- ولكنها فتحت عينيها، وكلمتني. رأيتها بنفسك!

- صحوة الموت! يحدث هذا أحياناً. لا تتعلق بالأمل الكاذب. وطن نفسك على قبول الحقيقة الأليمة.

- يا ماجد! ماذا تقول؟ هذه فتاة في العشرين. كيف تموت في عملية زائدة؟ هل هذا معقول؟ أين طبكم؟ أين جراحتكم؟

- إرادة الله فوق كل شيء. لو جاءت إلى المستشفى فور ظهور الأعراض لكانت العملية روتينية وبسيطة. جاءت بعد فوات الأوان. أمر الله. أجل مكتوب.

عندما عادا وجد عبد الكريم الأم بانتظاره على المدخل. ضمته إلى صدرها بعنف، واختلطت العبرات بالصرخات بالكلمات:

- عنايات تعيش انت يا سي كريم! ماتت البت يا كريم! ماتت في عز شبابها! يا ريتني أنا يا سي كريم! في عز شبابها! لا تجوزت ولا خلفت! ماتت عنايات يا سي كريم!

احتضنها عبد الكريم، وحاول ان يصرخ معها، ولم يستطع ان يصرخ. وحاول ان ينوح معها ولم يستطع ان ينوح. وحاول ان يبكي، ولم تسلك الدموع.

وجد قاسم وفؤاد ويعقوب في انتظاره. يا الله! كيف تنتشر الأخبار السيئة بهذه السرعة؟ ضمه كل واحد منهم، بشدة، وبصمت. ولم يقل

أحد منهم شيئاً وقبّلهم واحداً واحداً، بصمت. واتجه إلى غرفته، يتبعه ماجد، وقبل أن يدخل التفت إلى أصدقائه وتمتم:

- ترتيبات ...

وقاطعه قاسم.

- سوف نتولى كل شيء.

دخل معه ماجد. وأعطاه قرصاً منوماً. وغادر الغرفة.

شعر عبدالكريم بالخدر يتسلل إلى رأسه. وتقلصت أجفانه. ولكن النوم لا يجيء. على الطاولة الصغيرة بقرب السرير صورة ريري في جنيّة الحيوانات، الصورة التي أرسلتها إليه في الصيف الماضي عندما كان في البحرين. صورتها وهي تضحك للحياة، وللناس، وللحيوانات أيضاً. لم تكن تعرف، وقتها، أن حياتها سوف تنتهي بغتة في هذا الفجر الرمادي من ديسمبر. بالتهاب في الغشاء البريتوني. ماتت من غير أن تسمع بالغشاء البريتوني. من غير أن تعرف سبب موتها. ماتت قبل أن تتزوج وتنجب. والفضل يعود إليك أنت. أيها البطل الشجاع! عبدالكريم الشيخ! تخاف من كلام الناس. ماذا سيقول الناس الآن؟ لا! الآن، اختلف الوضع تماماً. الناس يذكرون محاسن الموتى. لن يقول أحد أنها كانت تلعب. «مسكينة!» «ماتت شباب!» حتى الزبائن القدامى سوف ينسون الآن أنهم عرفوها. من يتذكر جثة؟ ريري! ريري مين؟! لا أعرفها. لا أتذكرها. جاءتنا مرة. متى؟ متى؟ نسيت. لا. غلطان. لا أذكر واحدة اسمها ريري. لا أحد يتذكر جثة. إلا أم الجثة. وانت يا سي كريم؟ سوف تنساني! أليس كذلك؟ سوف تتعرف على واحدة ثانية! أليس كذلك؟

فُتح باب الغرفة، ودخل ماجد. سأله عبد الكريم:

- كم الساعة؟

وردّ ماجد:

- نام الحين! ارتاح!

أحس بوخز الحقنة. وذهب ماجد. ونام عبد الكريم وصحاً. ونام وصحاً. هل سيراه في الصباح؟ يخرج وتصيح المجموعة «العبيط أهو! أهو!» «ضحكنا عليك يا الثور!». «صدقت يا حمار أنها ماتت؟» «مجرد مقلب». «هل يموت أحد من الزائدة يا «مغفل؟» كابوس من كواييس كريم

المشهورة. تعرفون كوايس كريم؟ عقد نفسية مترسبة من الطفولة. تتسرب إلى العقل الباطن. وتسبب هذه الكوايس. مجرد كابوس من نوع مختلف. ماتت ريري؟ ماتت؟! في العشرين؟! لا يا جماعة! تجاوزت العشرين. البنات يكذبون. تجاوزت العشرين بسنتين أو ثلاث. مجرد كابوس. هل يتعاطى صاحبكم الحشيش أو الأفيون؟ البيرة؟ آه! البيرة! البيرة تسبب الكوايس إذا أسرف الإنسان في شربها. وهذا الكابوس من صنع البيرة. كابوس موت ريري. التي بطلت شغل. والتحقت بدورة الخلاقة. وحصلت على دبلوم. وأصبحت ربة بيت درجة أولى، زوجة من غير زواج. ريري التي تطبخ له وتنسج له البلوفر الأزرق. وتشتري مناديله وشراباته. ريري التي جبن عن زواجها. كلام الناس يا كريم! عيب يا كريم! ماذا سيقول الناس؟ تزوج.. لا! لا داعي للكلمة. الكلمة معروفة، ولها مترادفات كثيرة. كانت «تلعب» هذه كلمة أحسن. شكراً! شكراً! «تلعب» البنت عندما «تلعب» يا اخوان تتحول إلى... الكلمة المعروفة يا اخوان التي تبدأ بحرف الشين أو حرف القاف. الكلمة إياها. والرجل عندما «يلعب» يا اخوان. آه! لحظة! الرجل؟ الرجل يختلف وضعه تماماً. الرجل عندما يلعب يصبح «زكري» دوان جوان. روميو. لا يصبح الرجل عاهراً، ولا غانياً، ولا مومساً. يصبح الرجل زير نساء. الزير سالم. الزير كريم. الزير فؤاد. الزير يعقوب. الزير قاسم. وها هو ذا الآن الزير ماجد أمامه:

- كم الساعة يا ماجد؟

- ارتاح! نام!

وخز الحقنة. الراحة. الراحة مطلوبة. ريري الآن مرتاحة. تولّى الاخوان كل شيء. كافة المصاريف. كل شيء بحسابه يا ولّه! الميلاد بحسابه، والموت بحسابه. هيه فوضى يا ولّه؟ وهنا في مصر لا يدفنون الموتى، بل يضعونهم في غرف صغيرة ويفلقون عليهم الباب. عادة فرعونية قديمة. لا! الأغنياء وحدهم هم الذين يملكون منازل في القرافة. والفقراء! الفقراء يسكنون التراب. مثل موتى البحرين. في المنامة مقبرتان. واحدة للشيعة في رأس رمان. وواحدة للسنة في القضيبية. أمة عربية واحدة. إلا في الموت. تخاف ان يتنجس أموات السنة من أموات الشيعة. والعكس بالعكس. السني ما يغش. والشيعي ما يصفى. ها ها ها! ماي غش! وماي صافي! أفهموها بقى! لقاء في الحياة. وفراق في الموت. والموعد الجنة إن شاء الله.

الجنة؟! هل يدخل السنة الجنة؟ نسأل فضيلة الوالد «يا شيخ»! ويش رأيك في السنة؟» لا يجيب الشيخ على أسئلة كهذه، حتى في الحلال. حيث يعزمه القرويون على الغداء، ويطبخون له اسمن دجاجاتهم. ويحتفظون بالماء الذي يتوضأ به. ويشربونه للبركة. نسأل فضيلة الوالد عن ريري. «ويش رأيك يا شيخ؟ ماتت في المستشفى يا شيخ! التهاب في الغشاء البريتوني» يحار الوالد. «ويش هو الغشاء البريتوني؟» «الله أعلم يا شيخ. شيء لا نعرفه، لا نحن ولا أنتم. سنية يا شيخ! عدوة المذهب! وتلعب يا شيخ! ويش رأيك يا شيخ؟ تروح الجنة هادي؟» الشيخ لا يجيب، أبداً، على أسئلة كهذه. دبلوماسي، فضيلة الوالد. أين درس القانون الدبلوماسي؟ على يد الدكتورة عائشة راتب؟ لا! الشيخ لا يدرس على يد النساء. الشيخ يتزوج النساء. الزواج العادي، وزواج المتعة. آه! زواج المتعة! راحت عن البال حكاية المتعة! لماذا لم يتزوج ريري بالمتعة؟ يتمتعها! أنكحتك نفسي. ساعتين! ساعتين بس يا كريم! اخص عليك! صحيح. ساعتين مش كفاية. اصبري حتى أخرج وأرجع واتزوج بنت خالتي وتنتهي مشكلتي الجنسية وعندها تصبحين طالقاً. تلقائياً. ترتيب مريح! أحسن من الزنا. ألم يقل الإمام علي: «لو لم يحرم عمر المتعة ما زنا إلا شقي»؟ فكرة ممتازة. نتزوج بالمتعة، بأثر رجعي. يجوز ان ينص القانون على سريانه بأثر رجعي، باستثناء قانون العقوبات. لن يعترض الوالد على المتعة. منك نستفيد يا شيخ. كم واحدة تزوجت بالمتعة يا فضيلة الوالد؟ بالله عليك! كم زائدة؟ حوالي أربعين؟ برافو! زواج المتعة. سوف اقترح الفكرة على ريري وسوف توافق فوراً. بأثر مباشر. وبأثر رجعي. الرجعية عميلة الاستعمار. إيش جاب لجاب؟! أنكحتك نفسي. إلا أنكحتك! عيب يا سي كريم! بلاش أنكحتك دي! «ويصخّ العقد بثلاثة ألفاظ، أنكحتك وزوجتك ومتعتك، نفسي، كما نص عليه شيخ الطائفة». الشيخ الصدوق؟ أم الطوسي؟ أم فضيلة الوالد؟ زوجتك نفسي أحسن والنبي يا سي كريم. ماجد يغضب عندما يحلف أحد بالنبي. وهابي يدعي انه قومي تقدمي. رجعي، بأثر رجعي. لا تحلفوا بالنبي. شرك! لا تقولوا «عبدالنبي». كفر! زوجتك نفسي يا سي كريم؟ دقيقتين؟! مش كفاية؟ يا طماع يا أبو عين فارغة! خمس دقائق؟ خمس دقائق حنة واحدة؟!!

دخل ماجد ومعه رجل لم يره عبد الكريم من قبل، ووصلته أصداء الحديث:

- يا دكتور حسني، هذا اليوم الرابع. حالته طبيعية، النبض والضغط والقلب والحرارة، وكل شيء، ولكنه، كما ترى، في عالم ثانٍ.

- الصدمة يا دكتور ماجد. الصدمة.

- أعطيته بعض الحقن والأقراص المنومة. كنت أخشى أن ينتحر. سبق أن هدد بالانتحار.

- لا ما تخفش! مجرد صدمة عصبية قوية. كلها يومين ويفوق.

دكتور ماجد؟! متى تخرج ماجد وأصبح دكتوراً؟ يا حلاوة يا ولاد! ده احنا كبرنا واتخرجنا أهوه! وبقينا مريشين وبهوات، ودكاترة ومحامين. مكتب الشيخ للمحاماة. لا والنبى! خليه مكتب سي كريم للمحاماة. ما انت تخرجت يا سي كريم. وبقيت محامي قد الدنيا. دقي يا مزبكة! البيه المحامي. المحامي! والجدعان. الجدعان! وأهل الحقة. أهل الحقة! وأنا وأنت. أنا وأنت! هيّه العروس اسمها ايه يا استاذ كريم؟ العروس يا شيخ اسمها غنايات. واسم الدلع ريري. الاسم الحركي. أفهموها بقى! اسم الدلع يا شيخ. أصلها دلوعة يا شيخ. هل تقبلين أن تتزوجي هذا المحامي يا دلوعة؟! قابله يا سيدنا الشيخ. هو حدّ طایل؟ محامي قد الدنيا! إحنا غلابه يا سيدنا الشيخ. لعبنا يا سيدنا الشيخ. وبعدين تبنا يا سيدنا الشيخ. ما تبناش قوي يعني! تبنا على قد حالنا. وبطلنا لعب يا سيدنا الشيخ. إلا مع سي كريم. ما أنا زوجته نفسي يا سيدنا الشيخ. ساعتين، ثلاثة، أربعة. ما تدقش بقى يا سيدنا الشيخ. أهو قدامك أسأله. مش زوجتك نفسي يا سي كريم؟ وانت برضه مش زوجتي نفسك لغاية ما تتخرج وتتجوز بنت خالك. وكل واحد يروح في حاله بقى. هي شغلانة؟! أهل البحرين يرجعوا البحرين. المحامين يروحوا المكاتب. الدكاترة على العيادات. وريري؟! ريري ترجع عند المدام. هيّه فوضى يا وله؟ ولا هيّه فوضى؟ بس ريري تابت يا شيخ. والله العظيم تابت. سمعتها في المستشفى بنفسي سمعتها تقول: «لا إله إلا الله. محمد رسول الله». سمعتها تقول: «سامحني يا رب». سمعتها تقول: «تبت يا رب». سمعتها بودني دي اللي حياكلها الدود. هي مين دي اللي حياكلها الدود يا وله؟! مش تحسن ملافظك؟! ما تقولش كلام زي ده قدام ريري. لحسن تخاف. دي لسه صغيرة يا ضناية. لا نجوزت ولا خلفت.

فتح عبدالكريم عينيه، وسمع صوت الرجل الغريب:

- ما أظنّ فيه داعي للمستشفى يا دكتور ماجد.

وصرخ عبد الكريم بأعلى صوته:

- مستشفى؟! لن أذهب إلى المستشفى.

وعاد إلى النوم. المستشفى؟ لماذا يتحدثون عن المستشفى؟ هل أصابه

إلتهاب في الغشاء البريتوني؟ لا يوجد في الطب إلا غشاء بعد غشاء.

غشاء البكارة. الغشاء الحاجز. وأخيراً الغشاء البريتوني! أخطر الغشاءات.

من لم يمت بالسيف مات بالغشاء البريتوني!

- لا يا دكتور ماجد. كلها يومين ويخف.

من هو الذي سيخف بعد يومين؟!

ما تصحى بقى يا سي كريم؟! زودتها حبتين! قوم بقى. لحسن أزعل

منك. اجمد أمال يا سي كريم! ما تكسفينش قدام الميتين! ما تبقاش خرع

أمال! شد حيلك وقوم بقى! ده أنت قدها وقدود، يا بتاع البحرين! خليك

جدع واصحى بقى! قوم بقى يا سي كريم! عشان خاطري! قوم يا ريمو!

قوم يا يبي! طب ده أنا مخلصماك! والنبي لتقوم! عشان خاطري يا ريمو.

عشان خاطري يا حبيبي.

فتح عبد الكريم عينيه ورأى المجموعة حول السرير وسأل:

- يا جماعة انتو تغديتو؟!

زاسبب لم يرفه، انفجر اصدقاؤه في ضحكة طويلة سعيدة.

* * *

قاعة المحاضرات في بيت الكويت بالدقي تغصّ بالحضور. هذه الأمسية

الأدبية، على خلاف العادة، اجتذبت أكثر من مائتي طالب وطالبة،

وجاءوا من مختلف الأقطار والكليات. والنجم الذي جاء الجميع من أجله

هو الشاعر سليمان العيسى. غير ان منظمي الحفلة الأذكىاء أبقوه حتى

النهاية. لو بدأوا البرنامج به لما بقي أحد بعد انتهائه. تحدث الاستاذ

عبدالعزیز حسين. ثم الاستاذ عبدالرزاق البصير. وألقى الشاعر أحمد

عبدالمعطي حجازي مجموعة من قصائده. قوبلت بتصفيق مؤدب. ثم جاء

دور فؤاد وقرأ قصة الدانة. تصفيق أقل من مؤدب. ثم وقف سليمان

العيسى. واشتعلت القاعة بالتصفيق قبل ان يفتح فمه. وبدأ «حملت في

شفتي النار والألم». وضجت القاعة من جديد. «شما جناحاي في الزحف

آراءه ولا ينكرها. كان أصدقاؤه يتخوفون المصير الذي ينتظر هذا الرجعي الصغير في مصر الثورة. كان قاسم هو الوحيد بينهم الذي يتحدث الإنجليزية بطلاقة، ويستمع الى إذاعة لندن بانتظام، ويقرأ «التايم» و«النيوزويك». كان يريد أن يدرس في الولايات المتحدة ولكن والده رفض وقرر إرساله الى مصر. ينوي قاسم أن ينتهي من دراسة التجارة في أسرع وقت ممكن ليبدأ دراسته الحقيقية في أمريكا.

كثيراً ما تساءل فؤاد كيف أمكن لهذه الشخصيات المتنافرة أن ترتبط بصداقة عميقة. وتوصل الى أن كل واحد في الشقة كان يكمل الآخرين. ثورية يعقوب تكمل رجعية قاسم. واندفاع قاسم يكمل مهادنة عبد الكريم. وماذا عنه هو؟ يتصور فؤاد نفسه مزيجاً عجبياً من شخصيات أصدقائه، ركبته صيدلي غشيم. أخذ من يعقوب قسطاً من الثورة، وأخذ من قاسم قدراً من المحافظة، وأخذ من عبدالكريم التوجس والتردد.

في صباح اليوم التالي توجه الى إدارة العلاقات الدولية. كان يتوقع أن تتكرر مشاهد أمس بكل رتبتها. إلا أن مفاجأة لا تُصدق كانت في انتظاره. مع ثالث موظف، وجد قائمة كاملة بأسماء الطلاب الذين يدرسون على نفقة المؤتمر. خلال دقائق عثر على أسماء أصدقائه. قفز فؤاد الى السيارة وطلب من الأسطى محجوب أن ينطلق بأقصى سرعة الى العنوان: عمارة في ميدان باب الخلق. لم يكن قد مضى على فراق أصدقائه سوى أسبوعين ولكنه يشعر انه لم يلتق بهم منذ سنين. كان أول من شاهده يعقوب الذي أخبره ان عبد الكريم وقاسم سوف يعودان بعد قليل. اقترح أن يذهبوا الى «كازينو قصر النيل» لتناول الغداء هناك احتفالاً باجتماع الشمل. بعدها بساعة كان الفرسان الأربعة يحتلون طاولة يكاد يلمسها النيل بأصابعه. لم ينقطع الحوار ثانية واحدة. كان فؤاد حريصاً على أن يستمع الى قصص زملائه عن الفترة الماضية. وكان كل واحد منهم متشوقاً الى أن يفضي بما لديه.

بدأ قاسم فانتقد القاهرة جملة وتفصيلاً. الشوارع قذرة. والناس يمشون بالبيجامات. والجو جحيم لا يطاق (ونسي قاسم ان الجو في البحرين أشد حرارة). ولا يوجد من يحسن الإنجليزية. و«النيوزويك» و«التايم» تتعرضان لرقابة تقطع الكثير من المقالات. وإذاعة لندن لا تُسمع إلا بصعوبة بسبب التشويش. أما إذاعة الشرق الأدنى فلا تُسمع إطلاقاً بسبب التشويش ذاته. والطعام المصري لا يؤكل. وصب قاسم جام غضبه على السكن. وأعلن

الكبير.. هما». وعلا التصفيق. وجاءت قصيدة أخرى: «أنا عائد لأشم عطر بلادي». وارتفعت الهتافات: «وحدة! تحرر! ثار!» وما كادت تهدأ حتى علت هتافات في جانب آخر من القاعة: «وحدة! حرية! اشتراكية!» و«ابتسم سليمان العيسى وأكمل «أمة البعث لن تموت».. وجئت الهتافات. سليمان العيسى بعثي، لا شك، أخبرته سعاد بنفسها. سعاد التي تصفق الآن بحماسة.

عندما كان فؤاد يقرأ قصته لاحظ في الصف الثاني فتاة جذابة لم يرها من قبل. طويلة، بيضاء على نحو يندر في فتيات المنطقة، ولها شعر طويل تضمه ضفيرة واحدة، على الطريقة الهندية، بخلاف الموضة الدارجة. وعينان عميقتان. كيف تكون العينان عميقتين؟ عينان عسليتان. كان يقرأ. ويقلب نظره بين الورقة وبين الجمهور. ويحاول ان يتجنب الفتاة الطويلة الجذابة. ابتسم لسعاد. وابتسمت له. وعاد إلى قصة الغواص الذي مات وفي يده الدانة التي كان ينوي ان يقدمها للدانة.

أحاط المعجبون والمعجبات بسليمان العيسى الذي انهك في التوقيع على دفاتر المحاضرات. واقتربت الفتاة الطويلة ذات اللون الأبيض والصفيرة السوداء من فؤاد:

- أنا ليلي الخزيني. من الكويت.

- ليلي الخزيني؟ الشاعرة؟

بدت على وجهها علامات سرور واضح:

- كيف عرفت؟

- قرأت لك قصيدة في مجلة البعثة. وقصيدة في «المصور».

- وما رأيك؟

- بصراحة، مررت عليهما مرور الكرام. ما كنت أظن اننا سنلتقي وتطلين رأبي.

- عندي بعض الملاحظات على قصتك.

- ملاحظات؟!

- ملاحظات فنية.

- الحمد لله. شبع من الملاحظات العقائدية.

- ذكرت في القصة ان راشد أفاق فوجد المحارة مفتوحة. كم من الوقت مضى قبل ان يفيق؟

- لا أدري. هذه قصة قصيرة والتفاصيل...

قاطعته مبتسمة:

- التفاصيل مهمة في هذه الحالة. المحارة لا يمكن تفتيح وهي حية. لا بد ان تترك ليلة كاملة حتى تموت. ولا تفتح إلا في الصباح التالي.

- وكيف عرفت هذا؟

- كان جدي يعمل في الغوص.

جدها يعمل في الغوص؟! وجاء هذا البياض المشرب بحمرة من سلالة الجد الغواص؟! كل شيء جائز.

- وأبي أيضاً كان غواصاً.

- إذن، أسأله إذا لم تصدقني. ثم ما هي حكاية التمر الذي ينخره السوس والماء الرمادي؟

- هذا ما يقال.

- من يقول هذا؟! المياه العذبة التي تتبع من قاع البحر متوفرة في كل المغاصات. ألم تسمع عن «ماي شريية»؟ لماذا يشرب البحارة ماء رمادياً؟

- هذا ما يقوله الأدباء الملتزمون.

- يكفي الغواصين ما لقوه من غير ان نخترع الماء الرمادي والتمر الذي أكله السوس. يقول جدي ان التمر كان من أجود الأنواع.

- لا بد ان جذك كان غواصاً ارستقراطياً.

ضحكت ليلى، وافترقا. أخذت عنوانه ورقم تيلفونه. وتركت في يده رقم تيلفون بيت الطالبات الكويتيات حيث تسكن. وضع الرقم في جيبه ووعد نفسه أن لن يستخدمه. لسبب لا يعرفه، قرر انه لن يتعلق بهذه الكويتية ذات اللون الأبيض والقامة الممدودة والصفيرة الهندية، ولو كانت شاعرة، ولو كانت حفيدة غواص ارستقراطي، ولو كانت كل ملاحظاتها الفنية صحيحة.

* * *

مهمة يعقوب هذه المرة أخطر من مهماته السابقة. إستلام المعلومات من

رفيق يعمل في مجمع حلوان للحديد والصلب، ثم صياغة البيان واعطاء المسودة لرفيق آخر يتولى مهمة الطباعة. كلما ازداد الخطر ازداد شعور يعقوب بالسعادة. متى تجيء ساعة القنابل؟ أو على الأقل ساعة «المولوتوف»؟

في محطة حلوان المزدحمة وقف يراقب الوجوه. وجاء رجل يرتدي قبة ويحمل في يده مظلة. اقترب من الرجل وسأله بصوت خافت «معاك بطيخ؟» ورد الرجل «على السكين». أخذ الظرف الصغير، وأسرع إلى المترو الذي عاد به إلى القاهرة. دخل الغرفة وأخذ يكتب، ويمزق، ويعيد الكتابة. ولم ينته المنشور إلا مع الفجر. «أيها الكادحون الشرفاء.

تحدث الصحف المأجورة عن الإنجاز العظيم الذي حققته الحكومة بإقامة مجمع حلوان للحديد والصلب. ولكن الدعاية المضللة شيء، والواقع الأليم شيء آخر. الواقع الأليم هو ان المجمع تحول إلى معتقل رهيب يعاني العمال فيه كافة أنواع البطش والقمع والإرهاب. في الاسبوع الماضي، تم سجن ثلاثة عمال لا لشيء إلا لأنهم تدمروا من كثرة الدخان الملوث الذي يسبب المرض في الصدور. ومدير المصنع، العقيد أكرم شبراوي، رجل مخابرات فاشيستي متخصص في التعذيب. ومهمته الوحيدة هي القضاء على أي بادرة يقوم بها العمال لتحسين أوضاعهم. هل تعلمون أيها الكادحون الشرفاء كم يتقاضى العامل في المجمع؟ خمسة عشر جنيهاً في الشهر...»

قبيل الظهر، استقل يعقوب سيارة تاكسي وذهب إلى ميدان الأزهار في باب اللوق. وقف أمام بقالة البركة في انتظار الرفيق الذي سوف يأخذ منه مسودة المنشور. وقف أمامه كهل رث الثياب وسأله «بضاعة اسكندرية وصلت؟» كلمة السر! ورد يعقوب: «في قطر الصبح» جواب كلمة السر. أعطاه يعقوب الورقة. في تلك اللحظة أحاط بهما أربعة أشخاص وقال أحدهم:

- تفضلوا معانا.

وجد يعقوب نفسه والرفيق في بوكس أسود أسرع إلى مكان مجهول.

لجنيّة؟ أم غادة؟ زُفَع السَّجُف؟ لوحشيّة؟ لا.. ما لوحشيّة شنفُ
المتنبّي

۱۷

فبرایر ۱۹۶۱

لجنيّة؟! أم غادة؟ زُفَع السَّجْف؟
لوحشيّة؟ لا.. ما الوحشيّة شنفُ
المتنبّي

لم يطل تصميم فؤاد على تجنب ليلي. بمجرد ان رأى الظرف الأزرق الصغير والخط الأنيق أدرك ان الرسالة قادمة من ليلي. وأدرك ان تصميمه سيتبحر، يروح ملح كما يقول أهل البحرين وأهل الكويت، بمجرد قراءة الرسالة. أصرّ على تأجيل القراءة. وضع الظرف في جيبه. ذهب إلى الجامعة، كالعادة. واستمرّ في روتينه اليومي. ومع ذلك، فقد كان يشعر ان الرسالة قد تحولت إلى كائن حي ينبض في جيبه، إلى قلب صغير من الورق. وقاوم الإغراء. ولم يفتح الظرف إلا قبل النوم. وكانت المفاجأة تامة. كان يعرف انها تكتب الشعر ولكنه لم يتصور انها ستكتب شعراً عنه، وبعد أيام قلائل من لقاء عابر. تعود ان يجعل الآخرين مادة لأدبه، وهذه هي المرة الأولى التي يجد فيها نفسه مادة لأدب الآخرين.

«إلى ف:

أيتها المانع حتى النظرات؟	ألقبي أنت؟ أم للأخريات؟
وصبايا الحبيّ هنّ الزهرات	تتأشاني .. كأني شوكة
أو للمقهور غير العبرات؟	وأنا في دمعتي.. مقهورة

«ل

متى كتبت هذا الشعر؟ لا بد انها كتبت بعد انتهاء الأمسية الأدبية. وماذا تقصد؟ هل كانت تشير إلى محاولاته الفاشلة ان يتفادى النظر إليها؟ هل كانت تعرف عنه قبل الأمسية؟ هل قرأت المجموعة القصصية؟ هل جاءت مستعدة بملاحظات الفنية؟ شعور عميق يسري في أعماقه وهو يرى نفسه محور قصيدة، أو، على الأصح، معزّر أبيات؟ هل سيدخل التاريخ عن طريق ليلي وشعرها؟ أليس الأولى ان تدخل التاريخ هي عن طريقه

وطريق قصصه؟ من الظلم المقارنة بين القصيدة والقصة. الشعر كما قال الدكتور طه حسين خلاصة مركزة. كبسولة يسهل حفظها وتداولها وابتلاعها. والقصة، طويلة كانت أو قصيرة، نسيج مُعقد لا يسهل حفظه ولا تداوله ولا ابتلاعه. وجبة ثقيلة عسيرة الهضم. من سمع بشخصية دخلت التاريخ عن طريق قصة؟ في الشعر يختلف الأمر. يجيء ذكرك في بيت شائع واحد، وتضمن الخلود، حتى لو كان بيت هجاء.

ولكن الذي جذبته إلى ليلى لم يكن شرها. لم يكن يعرف عندما تُخطفت أنظاره نحوها، انها شاعرة. جذبته ذلك اللون الحليبي النادر، الضفيرة الكثة السوداء، العيون النسلية العميقة، والقامة الفارعة. نخلة من الكويت! امرأة من الرمال! جذبته إليها روائح اللؤلؤ (هل للؤلؤ رائحة يا فؤاد؟ بالتأكيد!) والبحر، وذكريات الأسمار والأهازيج. والآن تجيء هذه الأبيات. يتحول كل بيت إلى نصل حاد من الشوق يتغلغل في قلبه. يسرع إلى التليفون ثم يتردد. أليس من الأفضل ان يكون الجزء من جنس العمل؟ ان يجيء رد الأديب أدباً؟ من يدري، لعلها تفضّل ان تبقى عواطفها رهينة الشعر. قد تتجامل كل شيء عندما يتحدث إليها مباشرة. من يدري كيف يتصرف الشعراء والشاعرات؟ قرأ مرة في مكان ما ان كل شاعر لا بد ان تكون فيه لمسة من جنون. والقاعدة، فيما يظن، تنطبق على الشاعرات. لعل هذا الجنون مما ورثه الشعراء من شياطين الشعر.

«إلى ل.

يسرح بخياله كلما وقف على البحر، متصوراً ألف شيء وشيء. متصوراً اللائحة في أحضان المحار. متصوراً قطعان الجراجير المفترسة. متصوراً غابات المرجان. متصوراً أسراب حوريات البحر الحسان. ومعرفته بالبحر وثيقة، بدأت منذ طفولته. لم يكن يبتعد عن السيف غير دقائق. قبل ان يبلغ عامه الرابع كان يعرف دورات السقي والثر. صاد سمكه الأولى، زمرور، في الخامسة. صاد بالسّم في السادسة. صاد بالقرقور في السابعة بدأ يغير على الحظور في الثامنة. دش البحر، بمفرده في البانوش، في العاشرة. دخل مدرسة البحر وتدرّج فيها فصلاً بعد فصل، سنة بعد سنة. يقف أمام المياه الزرقاء التي تناديه إليها. يبدأ في الخوض ثم يبدأ في السباحة. يأخذه التيار بعيداً. يشعر بنشوة رائعة والتيار يدفعه إلى جزر صغيرة لم يرها من قبل. ثم يحس بتعب لذيذ. يمتصه التيار الآن. يجذبه إلى الأعماق. ويفتح عينيه، فيرى كل العوالم التي كان يحلم بها.

الجراجير و غابات المرجان والخوريات. ويتمشى على القاع. لا بد ان يكون هذا حلمًا. ثم يرى نخلة مُحَمَّلة بالرتب. نخلة في الماء. وتبتسم النخلة. ثم تتكلم وتقول: «أنا ليلي... من الكويت..»

«ف»

أرسل الرسالة بالبريد، ولم يطل انتظاره. جاء الظرف الأزرق الصغير مُورِقاً بالخط الأنيق ولم يستطع الانتظار هذه المرة. فتحه على الفور. «الى ف.

يا شَبَّحَ القُلُوعُ!
يا أيها الغَوَاص في الأعماق
يا مَنْ غَسَلَتَ البحرَ بالدماء
يا أيها المعذَّب المَوجُوعُ
قالوا بأن اللؤلؤَ البِزَاقُ
ينبثُّ في مَحَارِه
من دَمعة المطر.
لكنني أعرف انه
من دَمعة البشر.

«ل»

ويرد:

«ل.

عندما جئت الى القاهرة، قبل سنوات، لم أكن أتطلع الى شيء تطلعي الي أن تكون لي صديقة، تحبني وأحبها، أسير معها في ضوء القمر، وأسامرها في زورق ضائع على النيل، على طريقة الملاح النائه!
وجاءت تجارب، ليس هذا مجال ذكرها، فيها ما يسعد وفيها ما يوجع، تركتني، في الحادية والعشرين، أشعر أنني أحمل قلباً مرهقاً بالشيخوخة، وبالأحداث.

لم يكن في حسابي، في هذه الشهور الأخيرة، قبل أن أحزم حقائبي راحلاً الى بلاد أبعد، بلاد من الغرباء، أن يلقي بي قدرتي أمام شاعرة رائعة

انه لا يستطيع البقاء في زريبة. كيف يسكن ثلاثة طلاب في غرفة صغيرة واحدة؟ ماذا عن الجرائيم والعدوى؟ وختم قاسم ملحمة الانتقادية بالقول انه سينتقل في أقرب فرصة للسكن في شقة. وعلي الراغبين في الانتقال معه أن يحملوا حقائبهم ويتبعوه. أما الباقون فهنئاً لهم زريبتهم.

تحدث بعده يعقوب. العمارة التي يسكنون فيها لا تبعد سوى خطى قليلة عن دار الكتب، مكتبة مصر الرسمية التي تضم ما يزيد على نصف مليون كتاب. هناك، أخذ يعقوب يمضي معظم ساعات النهار، وبعض ساعات الليل. اكتشف مجموعة من روايات تولستوي مترجمة الى اللغة العربية. قرأها جميعها، وتعلق برواية «الحرب والسلام». قال انه عثر على ملاذه الفكري الأخير. سوف يكون تولستوي الى الأبد. صرح انه لو لم يستفد من القاهرة شيئاً سوى التعرف على تولستوي لكفاه. واقترح على فؤاد أن يبدأ فوراً، في قراءة كتب تولستوي، ووعد فؤاد بالتفكير في الموضوع.

أما عبد الكريم فلم يكن لديه جديد أو مثير. قضى معظم وقته منذ وصوله الى القاهرة مشغولاً بترتيبات السكن والدراسة منتقلاً من قسم الى قسم ومن إدارة الى إدارة في المؤتمر. هذا هو عبد الكريم! يتفرغ قاسم للانتقاد، ويتفرغ يعقوب لتولستوي، ويسقط العبء بأكمله على رأسه. ومن دون تدمير، يتقبل عبد الكريم الوضع. يطارد الأوراق، ويرجو المسؤولين، ويملاً الاستمارات.

ظل الأصدقاء يتحدثون الى ما قبل الغروب. ثم قاموا يتمشون بقرب النيل لا يملكون النظر اليه. واقترح قاسم أن يتعشوا في «الأوبرج» (كان قاسم الوحيد الذي سمع عن «الأوبرج» في البحرين). ولم يجد الاقتراح من يؤيده. واقترح يعقوب أن يقضوا بقية السهرة في مقر السكن يناقشون أفكار تولستوي. ووجم الجميع. ثم استقر الرأي على أن يذهبوا الى «التابعي الدمياطي»، أشهر مطاعم الفول والطعمية في القاهرة، لتناول العشاء. عندما غابت الشمس، كان الأصدقاء الأربعة لا يزالون يتمشون على الكورنيش وأصداء ضحكاتهم تسمع من بعيد.

* * *

بعد أسبوع من قدوم فؤاد وصل الأستاذ شريف من الاسكندرية. اعتذر بحرارة لأنه لم يستلم البرقية ولم يتوقع وصول فؤاد في هذا الوقت المبكر.

الجمال (قلتها الآن واسترحت: أنت رائعة الجمال!)، تتحدّث عن دموع الغواصين التي تتحوّل الى لآلىء في المحار.
أليس من غرائب الدهر، وغرائبه لا تنقضي، أن يلتقي شاب من البحرين وفتاة من الكويت في الدقي؟!
أما كان الأولى أن يتمّ اللقاء على ظهر سفينة مبحرة في المياه الزرقاء، تحمل السندباد الجديد وأميرة البحار الى جزر الواق واق؟
أريد أن أقول: أليس الأولى ألا يكون هناك لقاء؟!
«ف»

وجاء ردّها:

«ف.»

لا تتوقع أن تكون كل رسائلي شعراً. قصائدي ليست تحت الطلب.
ولا تتوقع أن أعينك على الابتعاد عني. أنت رجل لا تحتاج الى من يتخذ القرار نيابة عنك، خاصة وأنه لم يبق أمامك، لم يبق أمامنا، سوى شهور قليلة.

«ل»

وأرسل رداً أشبه ما يكون بالبرقية:

«ل.»

أين؟ ومتى؟

«ف»

وفتح الظرف الأزرق الصغير بلهفة:

«ف.»

في منتصف شارع الهرم مكان لا يعرفه سوى القلّة، مكان يتوارى عن الأنظار، اسمه «العش الصغير». سأنتظرك هناك، لنقضي معاً آخر يوم من أيام السنة، لنحتفل بوداع هذا العام.

«ل»

كتب لها فوراً:

«ل.»

كيف عرفت بوجود «العش الصغير»؟

«ف»

وجاء الظرف الأزرق، وأطلت الورقة الزرقاء تحمل أصداء شاحبة من
عطر «شانييل ٥»:

«ف».

هو في أحلامها ضوء النهار
وسنى البدر.. وموسيقى الهزار
والأساطير... وأشواق البحار
عجباً.. تعطيه هذا ويغاز؟!

«ل»

يجزم فؤاد أن المهندس الذي صمم هذا المكان لا بُدَّ أن يكون عاشقاً
أزعجه أن تظل القاهرة بلا أعشاش يأوي إليها العشاق. أسف فؤاد على
الأعوام التي ضاعت قبل أن يعرف «العش الصغير». في المنتصف حديقة
جميلة، وعلى جانبيها تمتد الأعشاش، الحواجز الخشبية، وفي داخل كل
«عش» طاولة ومقعدان. لا يرى أحد في الخارج ما يدور داخل «العش»
المحاصر بالشجيرات، ولا يرى أحد في داخل «العش» ما يدور في الخارج.
والجرسون لا يأتي إلا إذا ضغط الزبون على الجرس، ثم يأتي بالطلب
ويختفي. شعر فؤاد انهما الآن بمنأى عن العالم كله.

جاء الجرسون، وقالت له ليلي ببساطة:

- اثنين ييره من فضلك.

بدت الدهشة على وجه فؤاد. ثم فتحت حقيبة يدها وأخرجت علبة
«كنت» وقدمت له سيجارة، وأشعلتها، ثم أشعلت سيجارتها، ونفثت
الدخان. لاحظت دهشته فضحكت:

- ايش فيك؟ ليكون اخوانجي؟!

هل أصبح كل الذين لا يدخنون ولا يشربون هذه الأيام من
«الإخوانجية»؟! أجابها:

- لم أعود على السجائر ولا على البيرة.

ثم استدرك:

- إلا في المناسبات الخاصة.

- وهذه، بطبيعة الحال، مناسبة خاصة؟

- بطبيعة الحال!

سرعان ما اتضح لفؤاد أن الشاعرة التي تجلس أمامه تعتبر نفسها زعيمة التحرر النسائي في الكويت. وقد شاركت في حادثة حرق العباءات الشهيرة رغم صغر سنّها. تقول له، الآن، انها الفتاة الكويتية الوحيدة التي أوقفت في المركز مرتين، لتزعمها المظاهرات. وابتسم فؤاد:

- أنا محظوظ بالثوريات، من كل صنف وقطر.

- ماذا تقصد؟

- المعنى في بطن الشاعر.

- أنا الشاعرة.

- إذن فالمعنى في بطنك.

- ليس في بطني شيء. اطلب لنا الغداء.

ظل فؤاد، بذهول متزايد، يتأمل هذه المرأة الجميلة التي ترتشف البيرة وتنثف الدخان في وجهه. يرقب هذا المزيج الغريب من رقة الأنثى وعنف التمرّد، كيف تخفي هذه الملامح الوسيمة كل هذه الشحنات من الغضب؟ كيف استطاعت أن تجمع بين النقيضين: النعومة والخشونة؟ بين «شانيل ٥» والتوقيف في المركز؟ خطر بباله، بغتة في ما يشبه الصدمة، انه لم يتخذ أيّ قرار بشأن العلاقة بينهما، وانها اتخذت كل القرارات. هي التي بدأت الكلام، وهي التي بدأت المراسلة، وهي التي اختارت الزمان والمكان. هل تحول الى «صديق الست»، الست الشاعرة؟

لم يستطع مغالبة فضوله:

- كيف عرفت بهذا المكان؟

- اكتشفه زوجي السابق. كنا نجيء هنا قبل الزواج.

زوجها السابق؟! متفجرة صغيرة اندلعت من قلب الدخان. سألتها بيلاهة:

- زوجك السابق؟! كنت متزوجة؟

- نعم. هل كنت تظنني عذراء؟

احمرّ وجه فؤاد، واستطردت:

- هل تريد أن تعرف القصة؟
- إذا أردت أن تقولها.
- باختصار، أحببتُ شاباً فلسطينياً كان يدرس معي وتزوجته. ثارت
ثائرة العائلة، وهددوا بقتلي، ولم أعبأ بهم. عشت معه ستة شهور ثم مللت
منه وطلقته.
- تقصدين طلقك؟!!
- لا! أقصد طلقته!
- بهذه السهولة؟! يعجبك شاب فتتزوجينه ثم تملّين فتطلقينه؟
- أليس هذا ما يفعله الرجال طيلة الوقت؟ يتزوجون ثم يملّون فيطلقون؟
لم لا أفعل الشيء نفسه؟
- والأسرة؟
- رضيت، حتى إشعار آخر.
- وكيف عشت خلال المقاطعة؟
- تعني مادياً؟
- نعم.
- ألم أقل لك أنني غنيّة؟
- لم أسأل. ولم تخبريني.
- خرجت من الزواج بكثير من المال.
- من الشاب الفلسطيني؟!!
- لا. من زوجي الأول. الكويتي.
- متفجرة صغيرة أخرى. ونفثة أخرى من الدخان.
- أنت تمزحين يا ليلي! أكيد أنك تمزحين.
- لا. هذه هي الحقيقة. كنت في السابعة عشرة. وتقدّم لخطبتي رجل
من أغنياء الكويت، تجاوز الستين. قضى معي سنة. ثم تركني. وترك
لي قصرًا، أعني فيلا، وبعض المجوهرات وبعض السيارات وبعض المال.
- اتركي عنك السخافة! لا أصدّق كلمة واحدة!
- هل تريد أن ترى الوثائق؟ ووثائق الزواج ووثائق الطلاق؟

- هل تريد أن تعرف القصة؟
- إذا أردت أن تقولها.
- باختصار، أحببتُ شاباً فلسطينياً كان يدرس معي وتزوجته. ثارت
ثائرة العائلة، وهددوا بقتلي، ولم أعبأ بهم. عشت معه ستة شهور ثم مللت
منه وطلقته.
- تقصدين طلقك؟!!
- لا! أقصد طلقته!
- بهذه السهولة؟! يعجبك شاب فتتزوجينه ثم تملّين فتطلقينه؟
- أليس هذا ما يفعله الرجال طيلة الوقت؟ يتزوجون ثم يملّون فيطلقون؟
لم لا أفعل الشيء نفسه؟
- والأسرة؟
- رضيت، حتى إشعار آخر.
- وكيف عشت خلال المقاطعة؟
- تعني مادياً؟
- نعم.
- ألم أقل لك أنني غنيّة؟
- لم أسأل. ولم تخبريني.
- خرجت من الزواج بكثير من المال.
- من الشاب الفلسطيني؟!
- لا. من زوجي الأول. الكويتي.
- مُتفجرة صغيرة أخرى. ونفثة أخرى من الدخان.
- أنت تمزحين يا ليلي! أكيد انك تمزحين.
- لا. هذه هي الحقيقة. كنت في السابعة عشرة. وتقدّم لخطبتي رجل
من أغنياء الكويت، تجاوز الستين. قضى معي سنة. ثم تركني. وترك
لي قصرأ، أعني فيلا، وبعض المجوهرات وبعض السيارات وبعض المال.
- اتركي عنك السخافة! لا أصدّق كلمة واحدة!
- هل تريد أن ترى الوثائق؟ واثق الزواج ووثائق الطلاق؟

- كم عمرك الآن؟
- أنا في الثالثة والعشرين.
- وتزوجت مرتين؟ وطلقت مرتين؟
- والبقية تأتي! عرفت من هو زوجي الأول. أليس كذلك؟
- لا.
- كل الكويتيين يعرفونه.
- ليلي! أنا لست من الكويت. أنا من البحرين. الكمال لله وحده!
- ضحكت معاينة:
- هل تعرفون عيكم يا أهل البحرين؟
- لا.
- الغرور! تعتقدون انكم محور العالم. أوال! دلمون! عروس الخليج.
- وهل تعرفون عيكم يا أهل الكويت؟
- لا.
- عيكم انه لا عيب فيكم!
- مالت عليك!
- نعود اني زيجاتك. كان الزواج الثاني بسبب الحب. فهمنا. ماذا عن الزواج الأول؟
- بسبب التحدي.
- تحدي من؟
- تحدي كل فضولي قال لي: «لا تتزوجيه». قال لي: «هذا أكبر من أبوك». قال لي: «سوف يطلقك غداً».
- وثروته؟ ألم تدخل في الحساب؟
- لا.
- ولكنك لم تمنعي حين جاءك نصيبك منها؟
- ولماذا أمانع؟
- ألا تؤمنين بتحرر المرأة؟
- جزء أساسي من التحرر أن تكون المرأة مُستقلة مادياً عن الرجل.

- حتى لو جاء هذا الاستقلال عن طريق شرهة من ثري عجوز؟
- لماذا يهتمك موضوع زواجي الى هذا الحد؟
- لأنني أحاول فهمك.
- لا أظن أنني استعصي علي الفهم.
- تستعصين ونص! عندي، حتى الآن ثلاثة انطباعات. الأول، الشاعرة الرقيقة الرومانسية. الثاني، الثورية، زعيمة التحرر النسائي، هدى شعراوي الكويت. الثالث، الفتاة التي تتزوج رجلاً في سن أبيها، وتصبح غنيّة بسببه.
- كل هذه انطباعات صحيحة. وهناك المزيد.
- كلي آذان.
- اصبر. سوف تكتشف بنفسك.
- وصلا «العش الصغير» في الحادية عشرة صباحاً، وتناولوا الغداء غي الثانية، وتناولوا العشاء في التاسعة. نظرت الى ساعتها رتالت:
- الحادية عشرة! مرّ علينا يوم كامل هنا. لا بُدّ أن أعود الآن.
- لماذا؟
- تعليمات بيت الطالبات.
- المرأة التي تتحدى الأسرة والمجتمع والعالم تخضع لتعليمات بيت الطالبات؟!
- عندما تناسبني!
- تقصدين انك لو أردت البقاء أكثر لبقيت.
- طبعاً!
- أمام «العش الصغير» كانت تقف سيارتها «البيوك» الحمراء. جلست وراء عجلة القيادة وجلس بجانبها. وانطلقت السيارة، وانطلق فؤاد في ضحك مفاجيء. التفتت اليه:
- خير؟ ضحكني معاك!
- لذي صديق يعيش على أربعة جنيهات في الشهر. وهو مؤمن بأنني من أعظم أثرياء العالم لأنني أتلقّى من والدي خمسة وعشرين جنيهاً في الشهر. وبالفعل كنت أشعر أنني من أغني الأغنياء. كنت أحس بتأنيب

الضمير. كيف يستريح الغني وهو محاط ببحر من الفقراء؟ ثم تعرفت على فتاة تسكن، بمفردها، في روف من عشرة غرف. وأتعرّف الآن على فتاة تملك قصراً وتسوق سيارة «بيوك». على الأقل، زال تأنيب الضمير.

- ماذا حدث للفتاة التي تملك الروف؟

- لم أقل انها تملكه. قلت انها تسكنه.

- ومن يملكه؟

- لا أدري. أفترض انه مالك العمارة. «برج الزمالك».

- «برج الزمالك»؟ هل تعرف العمارة الضخمة التي تقابلها؟

- نعم «أضواء الزمالك». ماذا عنها؟

- يملكها زوجي السابق. أعني زوجي الأول.

- هل يمكن التعرف على بنت من بنات زوجك السابق؟

- لا. ولكن يمكن التعرف على مطلقته!

إثر عودته جلس وراء مكتبه وكتب لها الرسالة التالية:

«ل.

هل تصدّقين أنّي لا أعرف قيادة السيارة؟! لا شك أنّي الرجل الوحيد في العالم كلّ الذي يجلس، كاللوح، ويترك للمرأة «دفة القيادة». أشعر أنّي مُجبرّد مسافر، مجرّد متفرّج، مجرّد عابر، أما القرار ففي يد أخرى، في اليد التي تمسك بعجلة القيادة. أصارحك أنّي أجد في هذا الوضع ما يدعو الى القلق. هل جاء وقت الاعتراف؟ لا يوجد في تاريخي زيجات وطلاقات، وقصور وسيّارات. في البداية، كانت هناك فتاة أحببتها، ثم شعرت أنّي لست سوى جزء هامشي من اهتماماتها السياسية. شعرت أنّي مُجبرّد متفرّج. ثم أحببت فتاة أخرى، وتبيّن أنّها لا تعشق سوى مستقبلها وطموحها. ثم جاءت فتاة الروف. كانت بدورها، تقود سيارتها (ليست فخمة مثل سيارتك، ولكنها مكشوفة). كانت تأخذني وتعيدني. لا نلتقي إلا تحت سقفها، أو سقف فندق أيها. والآن، جاء موسم «البيوك» الحمراء، و«العش الصغير»، والشاعرة المنحرة التي تزوج عجوزاً ثرياً لكي تمارس حقّها في الحرية، وتقبل هدايا الطلاق لكي تمارس حقّها في الحرية، ثم تزوج شاباً فلسطينياً لكي تمارس حقّها في الحرية. ثم تطلّقه لكي تمارس

حقها في الحرية. الفتاة الجميلة المدللة التي تمتد أن الناس لم يُخلقوا إلا كي يستجيبوا لنزواتها: نزوة التحدي، ونزوة الزواج، ونزوة الطلاق.

وماذا عن شخصي الضعيف؟ أين موقعي في خارطة قلبك؟ هل نحن بإزاء نزوة أدبية تنتهي بعد القصيدة الثانية، أو العاشرة؟

الحق أقول لك أنني لا أرى أي جدوى في استمرار علاقة ولدت وهي تحمل كل مقومات موتها. لا أرى أي جدوى من حب يجيء بالأوامر. قلت لي، مرة، ان قصائدك ليست تحت الطلب. زشاعري أنا، أيضاً، ليست تحت الطلب.

كل عام وأنت بخير.

ف

صباح ١٩٦١/١/١

أرسل فؤاد الرسالة وأصيب بالفصام. أرجو أن ترد. أتمنى ألا ترد. أرجو أن تغضب وتختفي إلى الأبد. أرجو أن ترق وتعاود الاتصال. لم تكد ساعة من ساعات النهار تخلو من طيفها الذي يزور بلا موعد. أما في ساعات الليل فتكاد ذكرها تطغي على كتب القانون وعلى رهبة الامتحانات. يا للانسانة العجيبة! أين ذهبت تلك الصورة الشائعة عن الشاعرات؟ الخنساء. ليلي الأخيلىة. نازك الملائكة. فدوى طوقان. الحب الرزين الصامت. الكآبة العاشقة. الحرمان النبيل «لنا صاحب لا ينبغي أن نخونه». و«التفسير يقلل من طرافة الموضوع». و«هذي فتاتك يا مروج». فتاة المروج الحجلول. مختلف أمر هذه الشاعرة. مختلف تماماً. تدخن علبتي «كنت» وتشرب ست زجاجات من البيرة في يوم واحد. وتقود سيارة «بيوك» حمراء. وتتزوج رجلاً في سن جدّها تحدياً للعشيرة. ثم تتزوج شاباً فلسطينياً في القاهرة، تحدياً للعشيرة. وتعرف مطعماً صمّم خصيصاً للعشاق. وتقضي معه فيه اثني عشرة ساعة كاملة. وترفض أن تبقى ساعة إضافية للاحتفال بالسنة الجديدة. ولا تسمح ليده بالدنو من يدها. ولا تسمح لوجهه بالاقتراب من وجهها. ليتها تغضب ولا ترد. ليتها تذهب إلى الجحيم!

إلا أن الرد جاء بعد شهر كامل:

«ف.

فكرت فيك طيلة المساء

فازدانت السماء
وأزهر العالم بالنجوم
وجاءت الغيوم
تمطر في تفكير
قنابل العبير

لـ

قنابل العبير؟! كتب لها على الفور:
لـ.

نفس المكان. نفس الساعة. الخميس.

فـ

ذهب وأفكاره تضطرب وتضطرب. هل مستحي؟ أرجو أن تنجي؟
أرجو أن تنجي. أرجو ألا تنجي. ثم رأى «البيوك» الحمراء تبرق وتلمع في
الشمس كياقوتة حمراء في خاتم سليمان.

* * *

فتح الباب ودخل يعقوب. وقفز الأصدقاء المتجمعون في الصالون
وكأنهم قد أبصروا شبحاً. حقيقة الأمر أنهم أبصروا شبحاً لا تربط بينه
وبين يعقوب رابطة. ذبل الوجه الوميم، وغارت العينان، ونبئت تحتها
بقعتان من الليل، وانتشرت الشعيرات والدمامل في كل مكان. أصيب
الجسم بالهزال الشديد واعترت اليدين هزة عصبية دائمة. تلقفه أصحابه
بالعناق والقبلات. وانهال طوفان الأسئلة:

- عذبوك؟!

- ماذا فعلوا بك؟!

- ضربوك؟!

- قال لنا الأسناد شريف أنك في سجن المخابرات.

- قال لنا الباشا أنك في السجن الحربي.

- هل وجهت اليك تهمة؟!

جلس يعقوب:

- أريد أولاً، فنجاناً من الشاي وسيجارة. ثم أريد ساندوتش جبنة، ثم أحكي لكم كل شيء.

صرخ قاسم:

- عيشة! عيشة!

جاءت عيشة وأطلقت زغرودة عالية بمجرد رؤية يعقوب. وجاء الشاي والساندوتش. وبدأ يروي القصة:

- أخذوني في البوكس الى فيلا عادية في العباسية. فيلا سكنية صغيرة لا توجد على بابها يافطة، ولا يقف أمامها جندي. وضعوني في غرفة فيها سرير مريح وتركوني بعد أن أقفلوا الباب من الخارج. لم يكن في المكان سواي وسوى الحارس. يجيء الفطور في الثامنة. والنداء في الواحدة. والعشاء في الثامنة. طعام ممتاز يبدو انه من مطعم. إذا أردت الذهاب الى الحمام وقفت على الباب وجاء الحارس وأخذني راعادني. لا قيود، ولا ضرب، ولا إهانات، ولا تحقيق. مجرد سجن انفرادي. الراديو؟ ممنوع! الجرائد؟ ممنوع! التليفون؟ ممنوع! الزيارات؟ ممنوع! بعد أربعة أيام جاء نجار ووضع فوق الشباك لوحاً سميكاً من الخشب. لم يعد يرسمي أن أرى ضوء النهار. أخذ الحارس ساعتني. ووضع مصباحاً كهربائياً ضعيفاً بدل المصباح القديم. ولم يعد يسمح لي بالخروج الى الحمام. جاء بجردين طلب إلي تحويلهما الى دورة مياه. أصبحت فاراً في جحر مظلم. لا أعرف الليل من النهار، ولا الشروق من الغروب. فقدت عقلي تدريجياً، أو هكذا خيل الي. لا أدري هل أكلت وجبة الغذاء أم العشاء. والحارس لا يكلمني. بدأت أتحدث مع نفسي. بدأت أضحك وأبكي. ثم اختلطت الأمور. لم أعد أفترق بين الساعة والدقيقة، بين اليوم والأسبوع. وجدت نفسي عاجزاً عن الأكل، ثم عاجزاً عن النوم. صرت أقضي زمتي كله في المشي في الغرفة. أمشي وأبكي. ثم بدأت أرى وجوهاً في الظلام، لا أدري هل جاءت من ذاكرتي أو كانت موجودة بالفعل. ثم زاد الجنون. بدأت أرى جنوداً ملء الغرفة. وأبصر المشائق تتدلى من السقف. وأسمع الصراخ آتياً من كل مكان. ثم اليوم، أظن انه اليوم، جاء ضابط واصطحبني الى مبنى آخر لا يبعد عن المبنى الأول. عمارة عادية صغيرة. أخذني الى ضابط آخر وقال ان اسمه العميد مصطفى. رحب بي العميد ترحيباً شديداً وطلب لي فنجان قهوة. سألته عن «رامز» و«اسكندر» و«رمسيس»...

وعلى الفور، بدأ البحث عن السكن. ردّد فؤاد، على استحياء، اقتراح قاسم بشأن السكن في شقة. ولكن الأستاذ شريف رفض الفكرة على الفور. أبدى أسباباً مُعقّدة طويلة ولكن السبب الحقيقي، في رأي فؤاد، كان خوف الأستاذ من مغبة الحرية. قرّر الأستاذ أن الحل الأمثل هو أن يسكن فؤاد مع عائلة تتولّى معاملته كإبن من أبنائها، وتهتم بكافة شؤونه المنزلية، من طبخ وغسيل، ليتفرّغ هو للدراسة. قرّر قاسم أن ينضم إليه فراراً من «زريبة» المؤتمر. أما يعقوب وعبدالكريم فقد قرّرا أن هذه «الزريبة» تتيح من الحرية ما لا يتيحها السكن مع عائلة.

كان العثور على عائلة مناسبة أصعب بكثير مما توقع الأستاذ. عبر أسبوعين متواصلين، كانا يزوران عدة عائلات في اليوم. وكان الأستاذ يجد في كل عائلة عيباً أو أكثر. في هذه الشقة أطفال تتعذّر المذاكرة مع وجودهم. هذه العائلة أجنبية ولها عاداتها وتقاليدها المختلفة. في هذه العائلة بنات مراهقات. «وما الضرر من ذلك؟» - فكر فؤاد ولم يقل شيئاً. هذه العائلة تسكن في حي بعيد. هذه الزوجة متبرجة. كاد فؤاد يفقد الأمل عندما أعلن الأستاذ أنه عثر على المكان الملائم: مُطلّقة تؤجّر أربع غرف للطلبة وتتولّى السهر الكامل على راحتهم. لم تطلب مقابل السكن والطعام وكل النفقات الأخرى سوى خمسة عشر جنيهاً في الشهر.

تلقى فؤاد محاضرة طويلة عن قيمة النقود من الأستاذ. أخبره الأستاذ أنه اتفق مع أبيه على أن يُخصّص له خمسة وعشرين جنيهاً كل شهر، وأوضح أنه سيبقى لدى فؤاد بعد دفع تكاليف السكن والطعام عشرة جنيهات. وأضاف أن المبلغ ضخم جداً بالنسبة لطالب في سنه. وحذره من ركوب سيارات التاكسي (وداعاً أسطى محبوب!)، أو دخول المطاعم. كان فؤاد يبتسم في داخله وهو يستمع إلى المحاضرة. فقد وعدته أمّه أن ترسل له، بين الحين والآخر، مع أحد المسافرين مبلغاً سرياً لا يعرف أبوه، ولا الأستاذ شريف، عنه شيئاً.

في صباح اليوم التالي، حمل فؤاد حقائبه المتفخخة وألقى ركابه في شقة الست خيرية التي تقع في شارع المساحة، الذي يسمّيه الجميع شارع عبد المنعم، بالدقي. كانت الشقة في الدور الرابع، ولم يكن في العمارة مصعد. قال الأستاذ شريف إن هذه ميزة عظيمة لأنها تعني الرياضة الإجبارية كل يوم. وتلقته الست خيرية، وهي امرأة نصف، ممتلئة القوام، بشوش الملامح، بالعناق الحار وكأنها تعرفه، وتنتظره، من سنين. وتعرّف على زميلي

- يقاطعه قاسم:

- من هؤلاء؟

يضحك يعقوب بمرارة:

- سرّ! سرّ حزبي! راح وقت الأسرار! لا بُدّ انكم الآن عرفتُم أنني كنت في الحزب الشيوعي. هؤلاء أعضاء خلّيتي. على أية حال، رفض العميد أن يعطيني أية معلومات عنهم. ثم قال لي أنه يعرف كل شيء عني، وأنه لا يحتاج إلى تحقيقات أو اعترافات. وقال أنه يقدر أن الشباب عرضة للخطأ والانحراف. وأضاف أنه يقدر تطوعي للقتال مع الشعب المصري خلال العدوان الثلاثي. وأنهى كلامه بأن أخبرني أنه تقرّر إعفائي من العقوبة على أن أغادر مصر خلال ثلاثة أيام.

يسأله فؤاد:

- تغادر مصر؟ خلال ثلاثة أيام؟ والدراسة؟

- حاولت أن أتحدّث عن الدراسة. قلت للضابط أنه لم يبق سوى شهرين وأحصل على الليسانس فأجاب أنّ القرار نهائي ولا يمكن الرجوع عنه. صرخ قاسم:

- صدقتم الآن؟! صدقتم كلامي؟! إرهاب وسجن وإبعاد. يطلبون إلى الناس مقاومة الاستعمار وإذا استجاب أحد كانت هذه النتيجة. صدقتم كلامي؟!

بهدهوء ردّ يعقوب:

- لا يفيد الكلام الآن. وقعت الفاس في الرأس. سوف أبدأ في تحضير حقائبي.

عاد قاسم إلى الصراخ:

- ولكن ماذا ستقول لوالدك؟ لعائلتك؟ للناس في البحرين؟

نظر إليه يعقوب بحزن عميق:

- ألا تظنّ أن الأخبار قد سبقتنني؟ من الآن وحتى أموت لن يكون لي سوى اسم واحد: «الشيوعي»، راح «الشيوعي»، وجاء «الشيوعي».

سأله عبدالرؤوف بصوت يقطر بالإنعاطف:

- كانت تجربة رهيبة. أليس كذلك؟

- لا أستطيع وصفها. وأسوأ ما فيها أنني وصلت الى مرحلة الإنهيار الكامل من دون أن يسألني أحد سؤالاً واحداً. من دون أن يصفعني أحد صفعة واحدة، كنت مستعداً لأن أعترف بأي شيء. قتل جمال عبد الناصر، حرق مستشفى، نسف جسر، أي شيء. هذا هو المرعب. كيف ستكون حالتي لو انهم لجأوا الى التعذيب؟ الى الضرب والكهرباء والحرق بالسجائر وبقية الأشياء التي نسمع عنها؟ كنت أعتقد أنني من مادة صلبة. كنت أعتقد أنني أستطيع الصمود، ولكنني انهرت تماماً كأني طفل صغير.

قال عبد الرؤوف:

- ما تعرضت له أعنف بكثير من التعذيب الجسماني. التعذيب قد يثير الرغبة في العناد والتحدى، ولكن هذا الضغط النفسي لا يثير سوى المخاوف البدائية الغريزية. هذا هو أقسى أنواع التعذيب. أؤكد لك أن أي إنسان يتعرض له سينهار.

بعد سفر يعقوب الى البحرين بيومين، رن التيلفون ورفع فؤاد السماعة:

- فؤاد؟ أنا يعقوب. أكلّمك من المطار.

- المطار؟ أيّ مطار؟

- مطار القاهرة.

- القاهرة؟ ماذا حدث؟

- أعادوني من مطار البحرين. ويرفضون هنا أن يسمحوا لي بالدخول.

- سوف نكون عندك الآن.

ذهب الأستاذ شريف وفؤاد وقاسم الى المطار. وجدوا يعقوب في مخفر المطار، مع ثلاثة أشخاص يبدو انهم، بدورهم، ممنوعون من دخول مصر. شرح لهم يعقوب ما حدث في مطار البحرين. بمجرد أن رأى موظف الجوازات جوازه استدعى شرطياً أخذه الى سجن المطار. قضى هناك ليلتين ثم طلب إليه أن يعود الى القاهرة على أول طائرة. في مطار القاهرة طلب إليه ضابط الجوازات الانتظار ثم عاد وأخبره انه ممنوع من الدخول وبإمكانه أن يسافر الى الجهة التي يريد.

بدأ الأستاذ شريف في مناقشة الاحتمالات:

- سوريا؟ مستحيل! المنع يسري هناك. السعودية؟ مستحيل! الكويت؟
غير مضمونة. العراق؟ سيظنونه جاسوساً مرسلأ من مصر.
قاطعهم قاسم:

- يا أستاذ شريف! بيروت! لا يوجد سوى بيروت.
سرعان ما اتضح أن هذا هو الخيار الوحيد العملي. وتم الحجز له على
الطائرة المنادرة صباح اليوم التالي.
قدّم له قاسم ظرفاً متنفخاً وهو يضحك:
- من المكتب.

ثم همس:
- الرأسمالية تمّول الشيوعية.
وابتسم يعقوب رغماً عنه. وطارت الطائرة. مخلفة دمة صغيرة في
كل عين من السيرون التي تابعت مسارنا حتى تراءت وراء الأفق.

* * *

صرخ ماجد بانفعال:
- لا يمكنك أن تتجنّب القرار الى الأبد. أن الأوان. لا بُدّ أن تقرّر الآن.
وردّ فؤاد:
- الآن؟ لماذا؟
- عدت لتوي من مؤتمر خاص في دمشق، مؤتمر للمسؤولين القطريين
في الحركة.

- أصبحت الآن مسؤولاً قطرياً؟! الترفيات لديكم سريعة جداً.
- المفروض أن يكون هذا سراً ولكن لا أسرار بيننا. أنا الآن المسؤول عن
الحركة في السعودية، أو الجزيرة كما نفضّل أن نسميها. أتعرف لماذا
أصبحت المسؤول؟ لأنه لا يوجد سوى أربعة قوميين عرب من السعودية،
وأنا أقدمهم. في البحرين الصغيرة أكثر من هذا العدد.
- أهل البحرين مشاغبون. ماذا حدث في المؤتمر الخاص؟

- هذا ما يدعوني الى أن أطلب إليك أن تتخذ قرارك الآن. أقول لك
بكل صراحة إننا في الحركة نشعر أن الوحدة أصبحت في خطر. كل
المسيرة الوحدوية في خطر. نحس أن الزخم الجماهيري بدأ يضعف. هل

تصدّق أن البعثيين أصبحوا الآن أعدى أعداء الوحدة وأعدى أعداء جمال عبدالناصر؟ الحاجة ماسة الى دماء جديدة، والحركة تحتاج اليك يا فؤاد. - إليّ أنا؟! -

- نعم. بحثت هذا الموضوع، مطولاً، مع الدكتور أحمد الخطيب الذي يتفق معي أنك سوف تكون مكسباً للحركة. نحتاج الى شباب ناضج. - شباب ناضج؟! أنا؟! -

- يا فؤاد! دعنا من السخرية. أنت تختلف عن الآخرين. دخولك يجيء عن اقتناع وبعد تجربة فكرية غنيّة. أنا واثق أنك ستساهم في الحركة مساهمة فعّالة بعقلك وبقلّمك.

- بقلمي؟ هل ستطلبون إليّ كتابة قصص عن الثأر؟

- لن نطلب إليك شيئاً لا تود أنت أن تفعله. ماذا قلت؟

- اسمع يا ماجد! ما رأيك في حل وسط؟ أقبل بي الآن على أساس متعاطف مع الحركة، نصير كما يقول اخواننا البعثيون. سوف أتعاون معك الى أبعد الحدود، ولكنني سأفعل كل شيء عن طريقك. أما عن الانضمام الفعلي فدعه الى وقت آخر.

- حسناً. فترة انتقالية قصيرة، ثم تنضمّ رسمياً. هذه مهمتك الأولى. في القاهرة لاجيء بعثي عراقي اسمه صدام التكريتي، أحد الذين حاولوا اغتيال عبد الكريم قاسم. لا يزال شاباً صغيراً ومع ذلك يعتقد الإخوان في الحركة انه سوف يكون، في القريب، من ألمع القادة الحزبيين. من الضروري معرفة آرائه وميوله. وأنت أصالح من يتولّى هذه العملية لأن صدام صديق حميم لسعاد.

- عرضت أن أكون نصيراً ولم أعرض أن أكون جاسوساً.

- في العمل الوطني، جمع المعلومات عن العدو مهمة نبيلة وليست جاسوسية.

- العدو؟ حزب البعث؟! -

- نعم. للأسف الشديد! للأسف الشديد!

كانت سعاد بمفردها على طاولة منزوية في بوفيه الكلية تكتب باستغراق كامل عندما اقترب منها فؤاد:

- صباح الخير. تقرير حزبي؟

- أهلين! لا. مجرد رسالة شخصية.
- لن أزعجك طويلاً. هناك خدمة أودّ أن أطلبها منك.
- على راسي.
- يسلم راسك. أودّ التعرف على صدام التكريتي.
- ألم تتعرف عليه حتى الآن؟ انه يجيء الكلية عدة مرات في الأسبوع.
- ربما رأيته. ولكنني لم أتعرف عليه.
- ولماذا تودّ التعرف عليه؟ هل تنوي العودة الى الحزب؟
- سمعت الكثير عنه وعن محاولة اغتيال عبد الكريم قاسم وعن هربه وبؤدي أن أراه.
- لماذا لا نلتقي هنا صباح الخميس؟ في الغالب، يكون موجوداً كل خميس.

قالت سعاد:

- رفيق صدام! أقدم لك الرفيق فؤاد الطارف من البحرين.
- قام الشاب الأسمر النحيل الطويل، ذو الملامح الوسيمة، والعينان النقاذتان، وصافح فؤاد بحرارة:
- عفية على البحرين! نصّها بعثية!
- وضحك فؤاد:
- والباقي في الطريق.
- ورد الشاب النحيل الطويل:
- بحيل الله!

جلس الثلاثة. وأشعل صدام التكريتي السيجارة تلو السيجارة. لاحظ فؤاد آثار وشم أزرق على يديه. وسأله عن محاولة الاغتيال. وسرّ صدام بالسؤال. وانطلق يصف التفاصيل. ثم سأله فؤاد عن السجن والهرب. وسرّ أكثر. وروى ما حدث وكشف عن ساقه ليرى فؤاد مكان الرصاصة التي أطلقت عليه خلال الهرب.

ثم سأله فؤاد بحذر:

- وماذا عن المستقبل يا رفيق صدام؟

- بعد ثلاث سنوات، سوف يكون حزبنا في السلطة في العراق، وسوف يبقى في السلطة.

- والأمة العربية؟

- مستقبل الأمة العربية مرتبط بمستقبل العراق، ومستقبل العراق مرتبط بمستقبل الحزب. سوف يتحول مركز الثقل من القاهرة الى بغداد. أثبت جمال عبدالناصر، للأسف، انه مجرد سياسي يخضع للحسابات الآنية وتقارير الأجهزة. تخلى عن الثورة وقيادة الأمة وقنع بأنه يكون رئيساً للجمهورية العربية المتحدة.

ذهل فؤاد وهو يسمع هذا النقد الشديد القادم من رجل يعيش في ضيافة جمال عبدالناصر. كأن صدام التكريتي قرأ أفكاره:

- هذه دولة مخابرات. أعتقد انهم خصصوا مفرزة كاملة لمراقبتي. لو التفت الآن حولك لوجدت ثلاثة مخبرين، أو أربعة. لم يعد جمال عبدالناصر قائداً جماهيرياً. الأمل الوحيد الآن هو الحزب.

يحذر أشدّ تساءل فؤاد:

- ماذا عن القوميين العرب؟ ألا يمكن التعاون معهم؟

- مجرد حركيين! امتعات من صنع الأجهزة. حاولنا التفاهم معهم بلا جدوى. الأمل الوحيد هو الحزب.

قال فؤاد:

- هذا صحيح. لا بديل عن الحزب. ولكن في الظروف الحالية، وكمرحلة انتقالية حتى وصول الحزب الى السلطة، ألا يمكن أن نستثمر قيادة جمال عبدالناصر لصالحنا؟

وردّ صدام التكريتي:

- كان هذا اعتقادي واعتقاد الرفاق في العراق. ولكن جاءت الصدمة بعد الصدمة. في اليوم الذي أطلقنا فيه الرصاص على عبد الكريم قاسم كان المفروض أن يتحرك جمال عبد الناصر. كان الاتفاق أن يرسل طائرات. لو جاءت طائرة واحدة لسقط عبد الكريم قاسم. ولكنه لم يتحرك. وقبلها كانت انتفاضة الشواف التي شجعها ثم وقف يتفرج على تصفيتها. لو طارت عشر طائرات من سوريا لمساندة الشواف لنجحت المحاولة.

- وكيف تفسّر موقف جمال عبد الناصر؟
- تعودّ على الرئاسة، ونسيّ النضال. جاءته الوحدة مع سوريا على طبق من ذهب وظنّ أن الوحدة ستتحقق في كل مكان بالأسلوب عينه. لن تتحقق الوحدة العربية إلا بأنهار من الدم، بحار من الدم.
- ولكن الجمهورية العربية المتحدة دولة قائمة تضطر الى التصرف بمنطق الدولة.

- رحم الله والديك! وهنا يجيء دور الحزب. عندما يحكم حزبنا تنتهي المشكلة. بوسع الدولة أن تتصرف كدولة، ولكن القيادة الفعلية سوف تكون بيد الحزب. سوف تكون له الكلمة الأولى والأخيرة. مشكلة جمال عبد الناصر أنّه يفتقر الى الحزب الثوري. لا توجد عنده سوى تنظيمات بيروقراطية وأجهزة أمنية.

- وماذا عن الحزب في سوريا؟
- لا يوجد سوى القائد المؤسّس ومجموعة من الرفاق. البقية لا يزالون يحلمون بالعودة الى الوزارة، يحلمون بالصلح مع جمال عبد الناصر.
- ألا ترى أنت أن هناك امكانية للصلح؟
- مع جمال عبد الناصر؟ مستحيل! مستحيل!
سألته سعاد:
- ما رأيك؟
وأجاب فؤاد:
- ما رأيك أنت؟ يقولون أنّه صديقك المفضّل.
- تغار؟ انه وسيم جداً. أليس كذلك؟
- لا بأس به.

- واضح انك تغار. لا داعي للغيرة. صدام لا يوجد عنده وقت للصديقات. حياته الحزب. أمّه الحزب. أبوه الحزب. صديقه الحزب. أنا شخصياً أعلّق عليه آمالاً كبيرة. ما هو انطباعك أنت عنه؟
- يبدو انه يعرف ما يريد، ويعرف كيف يصل اليه.
- تماماً! انطباعي نفسه.
- لماذا لم تخبريه انني تركت الحزب؟

- هل أنت مجنون؟ لو قلت، له هذا لرفض حتى مصافحتك.
- ألقى فؤاد بالتحية العسكرية ضاحكاً، ثم قال:
- تقرير الجاسوس جاهز. سيدي!
- ورّد ماجد:
- هات.
- باختصار شديد، يرى صدام التكريتي أنّ البعث سوف يصل الى السلطة في العراق خلال ثلاث سنوات على الأكثر، ومع وصوله سينتقل مركز الثقل من القاهرة الى بغداد.
- وجمال عبد الناصر؟
- انتهى كثنائر واستمرّ رئيس دولة مُكوّنة من تنظيمات بيروقراطية وأجهزة أمنية.
- ونحن؟
- مجرد حركيين. إمتعات من صنع الأجهزة.
- أيّ أجهزة؟
- لم يقل. الأجهزة والسلام!
- وسوريا؟
- لا يوجد غير القائد المؤسس ومجموعة صغيرة من الرفاق.
- ما هو انطباعك عنه؟ هل هناك أمل في أن يتحقق ما يقوله صدام التكريتي؟
- نعم. بنسبة واحد في المليون!



بموت ريري، واختفاء هيلدا، وإبعاد يعقوب فقدت شقّة الحرية الجزء السعيد من روحها، فقدت القدرة على الفرح. لم تعد الضحكات تصاحب كل ساعة من ساعات النهار ومعظم ساعات الليل. لم يعد صوت الصراخ ينطلق من كل غرفة. اختفت البنيات. غابت الزهور. ازدحم الحمام بالملابس القذرة. تطايرت المقالب الصبانية اليومية. رجع عبدالكريم الى ارتداء قمصانه الداكنة وكرافاته الغامقة. نسيت عيشة وصفات الطبخ الجديدة التي تعلّمها. تحوّل المكان الى فندق كئيب لا

يأوي اليه سكانه إلا مضطرين في ساعات النوم. حتى المذاكرة لا تتم الآن إلا في الكلية. قاسم يقضي كل لحظات فراغه في المكتب. عبد الكريم لا يغادر مكتبة الكلية إلا عندما تغلق أبوابها في المساء. وفؤاد غارق في كتب القانون، وفي العلاقة التي تزداد تعقيداً وغموضاً يوماً بعد يوم.

كانت الرابطة التي ربطته بسعاد شعوراً متبادلاً، ابتداءً برغبة مشتركة وانتهى بفتور مشترك. كانت علاقة واضحة كل الوضوح. ثم جاءت شاهيناز، وجاء الحب من جانبه والصدقة من جانبها. وانتهى كل شيء عندما فقد الأمل في تحول الصداقة الى حب. كانت العلاقة، بدورها، واضحة كل الوضوح. ثم جاءت مديحة، وجمعتهم الشهوة الجامحة المتبادلة عندما اشتعلت، وفزقتهم عندما انطفأت. كانت، أيضاً، علاقة واضحة كل الوضوح. أما هذه العلاقة مع ليلي فمعقدة الى أبعد الحدود، أعقد من ذيل الضب كما يقولون. لا يستطيع أن يفهم هذه المرأة، ولا أن يعرف ماذا تريد منه أو ماذا يريد منها.

هي، على ما يبدو، تحبه؛ لا تكتب شعراً كهذا الشعر إلا عاشقة. وهو، على ما يبدو، يحبها؛ لا يصبر على هذا الجنون المقيم إلا عاشق. غير أن هناك شيئاً ما يفتقده. لا يوجد ذلك الحنان الفطري الذي لا ينبع إلا من أنثى. لا توجد تلك النعومة السائلة الدافئة التي لا تصدر إلا عن امرأة. يشعر وهو معها انه في مباراة: أيهما الأذكى، أيهما الأضرب، أيهما الأكثر تحرراً. لا يستطيع أن يمنحها نفسه بكل ما فيها؛ يحاول أن يُقدّم لها نفساً مصقولة منقحة تستحوذ على إعجابها. رهي، بدورها، لا تكشف له إلا عن السطح، السطح اللامع كالثلج، البارد كالثلج. ما هو سرّ هذه المرأة التي توشك أن تدخل عامها الرابع والعشرين ولا تزال طالبة في السنة الثانية من كلية الآداب؟ المرأة التي تتحدث عن زوجها السابقين كما يتحدث المرء عن قميصين قديمين؟ المرأة التي تريد لنفسها الحرية، كل الحرية، ولا شيء إلا الحرية: حرية الزواج وحرية الطلاق، زواج الفقراء وقبول هدايا الاثرياء؟ ومن أين جاءت هذه العقدة التي ترفض حتى لقاء اليد باليد، فضلاً عن لقاء الفم بالفم، فضلاً عن لقاء الجسد بالجسد؟

لم يصدق عينيه عندما أرته ذات خميس، وهما في العرش المعتاد، ملّف رسائلها. هنا رسالة من جمال عبدالناصر، بتوقيعه لا بالختم، شكرها على تبرّعها بخمسة آلاف جنيه خلال العدوان الثلاثي. خمسة آلاف جنيه؟! وهنا رسالة من عبدالحليم حافظ شكرها على الهدية التي تلقاها منها

- بمناسبة عيد ميلاده. وهنا قصيدة من الشاعر كامل الشناوي، بخطّ يده.
وهنا قصيدة من الشاعر صالح جودت، بخطّ يده.
لم يستطع فؤاد أن يغالب الغضب الذي اعتراه:
- ما هذا؟ ما كل هذا؟ من جمال عبد الناصر الى عبد الحليم حافظ؟
هل أنت مجنونة شهرة؟ هل تقضين ليلك ونهارك جرياً وراء المشاهير؟
- العكس هو الصحيح.
- أين رأيت عبد الحليم حافظ؟
- وأين رأيتك؟ وأين رأيتني؟
- هل حدث شيء بينك وبين عبد الحليم حافظ؟
ضحكت من الأعماق:
- ولماذا اخترته بالذات؟ لا. لم يحدث شيء.
- وأنا؟
- ماذا عنك؟
- ما هو موقعي من الإعراب بين كل هؤلاء؟
- أنت تختلف عنهم تماماً.
- كيف؟
- هم يريدونني. أما أنت، فأنا أريدك!
- تريدني؟ تفضلي! سمّي! ماذا تنتظرين؟
- لا تجيء القصيدة إلاّ عندما تنضج. ولا ليلة العرس.
- ليلة العرس؟ اسمعي! لا توجد عندي أدنى رغبة في أن أكون الزوج الثالث.
- أعتقد أنك تعرف المقصود.
- لا أعرف المقصود. ولن أنتظر حتى تنضجي. تذكرني ان مشاعري ليست تحت الطلب.
نظرت اليه طويلاً. وأحسّ أن تياراً مائياً خفياً يخرج من عينيها، ويلتف به، ويجذبه الى القاع، الى القاع البعيد البعيد. دنت منه وقبلته على خده وهمست:
- سوف تنتظر يا غرّاد. وسوف تكون هناك. سوف تكون هناك.

السكن: عدنان، وهو طالب أردني يدرس الهندسة، ومجيد، وهو طالب عراقي يدرس التاريخ، وكلاهما في جامعة القاهرة. ما إن وصل قاسم حتى اشتبك في نقاش حاد مع عدنان. الطالب الأردني ينتقد الملك حسين، والطالب البحريني يدافع عنه دفاع الأبطال، وفؤاد ومجيد يتابعان النقاش بكثير من المتعة.

١٨

أبريل ١٩٦١

أغالب فيك الشوق... والشوق أغلبُ
وأعجب من ذا الهجر... والرحيل أعجبُ
المتنبي

عندما فتحت عيشة الباب وجدت يعقوب أمامها، وعلى وجهه ابتسامة مشرقة. عانقته كالمأخوذة، وانطلقت الزغرودة المجلجلة، واندفعت عبر الشقة في هيستيريا من الفرحة:

- سي يعقوب رجع!

- يا جماعة! سي يعقوب هنا!

- سي يعقوب رجع بالسلامة!

تراكض الأصدقاء وضاع يعقوب في مطر من القبلات. كان فؤاد أول من تكلم:

- ما هذه المفاجأة السارة؟ لماذا لم تخبرنا؟

- كنت أخشى أن تتعقد الأمور في آخر لحظة.

تدخل قاسم:

- ماذا حدث؟ نريد أن نعرف كل شيء منذ مغادرتك القاهرة حتى عودتك.

بدأ يعقوب يروي القصة. وصل الى بيروت وسكن في فندق متواضع بساحة البرج. بعد وصوله بأيام اتصل به شاب فلسطيني اسمه غسان كنفاني أخبره انه صديق لماجد وأنه عرف عن مشكلته من ماجد. يعمل غسان محرراً في صحيفة لبنانية ناصرية الميول، وعن طريقه تعرّف بـ يعقوب علي عدد من الأدباء والشعراء اللبنانيين. قال له غسان ان مشكلته لن تحل إلا بقرار شخصي من جمال عبد الناصر. وبدأ البحث عن زعيم لبناني تربطه صداقة خاصة بجمال عبدالناصر. رأى غسان، بعد مشاورات طويلة، أن كمال جنبلاط هو خير من يقوم بالوساطة، إذا وافق. بالفعل،

زاره الاثنان في قصر المختارة وشرح له غسان الوضع. أرسل كمال بيك رسالة حارة الى جمال عبد الناصر رجاه فيها أن يسمح ليعقوب بالعودة الى مصر لإكمال دراسته. بعدها بشهر، اتصلت السفارة المصرية في بيروت بـ يعقوب. في مقر السفارة قابله أحد المسؤولين، ضابط على ما يبدو، وأخبره أن سيادة الرئيس وافق على عودته الى مصر وبقائه فيها الى أن يكمل الليسانس. وأضاف المسؤول ان الموافقة، بطبيعة الحال، مشروطة بعدم ممارسة يعقوب لأي نشاط سياسي. وقال يعقوب «بطبيعة الحال». كان يعقوب يتخوف من عدم وصول قرار العفو الى المسؤولين في مطار القاهرة، ولهذا أثر التريث. إلا أن كل شيء مرّ بسلام.

أضاف يعقوب:

- الفضل الأكبر لغسان كنفاني. ولماجد الذي اتصل به وأخبره عني.

ثم نظر الى فؤاد:

- يبدو ان نفوذ ماجد بدأ يزداد. أليس كذلك؟

ورد فؤاد باختصار:

- يبدو هذا.

لم يكن بوسع فؤاد أن يعلن لزملائه أن ماجد أصبح المسؤول عن منطقة الجزيرة في حركة القوميين العرب وانه، بهذه الصفة، على اتصال مباشر بكل القياديين في الحركة، ومنهم غسان كنفاني المسؤول الثاني، أو الثالث، في الحركة في لبنان. ولم يكن بوسع فؤاد أن يقول لزملائه انه هو، بدوره، قرّر، بعد تردد طويل، أن ينضم رسمياً الى الحركة. حقيقة الأمر أن فؤاد يجهل العوامل التي دفعته في النهاية الى تجاوز كل تحفظاته القديمة والانخراط في الحركة، وإن كان يعرف بعض الاعتبارات التي كانت تدور في ذهنه. من ناحية، بدأ يُحس أن المدّ الشعبي الناصري يمرّ، فعلاً، بمأزق. لم يعد الأعداء، كما كانوا في السابق، من خارج الأمة العربية. ولم يعد أعوان الاستعمار التقليديون مصدر الخطر الأكبر داخل الأمة. هناك الآن مقاومة عنيفة، وان كانت لا تزال خفية، لجمال عبدالناصر يقودها حزب البعث والمتعاطفون معه. وهناك مقاومة أعنف، وبلا خفاء، يقودها الحزب الشيوعي والمتعاطفون معه. يكفي فؤاد أن ينظر الى موقف سعاد وموقف يعقوب من جمال عبدالناصر ليدرك أبعاد التغيير. يُخيل الى فؤاد أن الحبل

السُّري الذي يربط جمال عبد الناصر بالجماهير العربية يتعرّض الآن لهجوم حادّ بالسكاكين من كل مكان.

من ناحية ثانية، كان ذهن فؤاد يتّجه يوماً بعد يوم نحو قبول الاشتراكية أسلوباً أمثل لتنظيم الاقتصاد في الدولة العربية القادمة، ويزداد اقتناعاً أن طرحها الآن هو أفضل وسيلة لمنع قيام هذه الدولة. مع تنامي معلوماته وقراءاته في الاقتصاد، بدأت صورة الاشتراكية تتبلور أمام عينيه. رفض الشيوعية الملحدة. ورفض الاشتراكية البعثية الغائمة. وانتهى إلى أن الاشتراكية التي تلائم الأمة العربية هي تلك التي يسميها عبدالرؤوف اشتراكية حزب العمال البريطاني: ملكية الدولة لمرافق الانتاج الكبرى، والملكية الخاصة لكل ما عدا ذلك، والضرائب التصاعدية على الدخول. يأمل فؤاد أن يكون هذا هو القالب الذي ستطرحه الحركة حين يحين الوقت المناسب.

من ناحية ثالثة، لا يشعر فؤاد في أجواء الحركة بذلك التشنج الذي رافق تجربته البعثية. لا يوجد في الحركة «قائد مؤسّس» لا بُدّ من استظهار كل كلمة من كلماته. ولا يوجد في آفاق الحركة ذلك الاصرار العنيد على الالتزام، على تسخير الأدب لخدمة القضية. تبدو الحركة أشبه بأسرة كبيرة منها بتنظيم سياسي. وما تلك الرعاية التي ظفر بها يعقوب في بيروت من الإخوان، لا يزال فؤاد يرفض كلمة الرفاق رفضاً قاطعاً، سوى مظهر من مظاهر هذه الروح العائلية.

من مفارقات القدر أن يبدأ فؤاد حياته في حركة القوميين العرب بصدامين مباشرين مع حزب البعث. كان ميدان الصدام الأول رابطة الطلبة البحرينيين. كان البعثيون حريصين على السيطرة على الهيئة الادارية للرابطة، وكان القوميون العرب حريصين على ابعادهم عنها. تمت المواجهة بأسلوب غير مباشر: رشح البعثيون طلاباً مستقلين يتعاطفون معهم، ورشح القوميون العرب، بدورهم، طلاباً لم تعهد فيهم أي ميل حزبية. رغم أن المعركة، في حقيقتها، كانت اختبار قوة بين الحزب والحركة فإن الانتخابات، في الظاهر، كانت تدور حول شخصيات المرشحين، وبرامجهم، وحتى أخلاقياتهم. في النهاية، خسر القوميون العرب بفارق بسيط في الأصوات. كانت هذه التجربة فرصة لتعلّم عدد من الدروس. عندما جاءت المواجهة الثانية، انتخابات الهيئة الادارية لبيت الكويت، كان القوميون العرب في أقصى درجات الاستعداد. تحوّلت شقة براك النافي إلى

غرفة عمليات، توضع فيها الاستراتيجية وترسم التكتيكات. كانت الحملة مليئة بالأساليب الميكافيلية، الوعود والوعيد والاشاعات، وحتى الأكاذيب المغرضة. انتهت الانتخابات بفوز مرشحي الحركة، بفارق بسيط.

خرج فؤاد من تجربتين بشعور متناقض نحو الانتخابات ونحو الديمقراطية بشكل عام. غالبية الطلبة في الرابطة وفي بيت الكويت من المستقلين الذين لا يهتمون بالسياسة أو بالأحزاب. ومع ذلك تمكنت أقلية بعثة منظمة من فرض مرشحها على الأغلبية في الرابطة، و تمكنت أقلية منظمة من القوميين العرب من فرض مرشحها على الأغلبية في بيت الكويت. وتمّ كل هذا عن طريق ديمقراطي، بالانتخابات، وبالاقتراع السري. هل الديمقراطية، إذن، مجرد تغليف ذكي لسيطرة الأقلية الحزبية؟ وإذا كان بالامكان تضليل الصفوة العربية من الطلاب المثقفين بإطلاق الاشاعات الكاذبة عن هذا المرشح أو ذاك، ألن يكون من الأسهل خداع الجماهير العربية الأمية؟ هل الذين ينادون بالمستبدّ العادل على حق، إذن؟ قرّر فؤاد، بعد تفكير طويل، ان قضية الديمقراطية يجب أن تؤجل في الوقت الحاضر، شأنها شأن الاشتراكية. المرحلة الآن تتطلب حشد كل الجهود وراء قيادة جمال عبدالناصر. هذا هو برنامج الحركة الوحيد، ويجب أن يبقى برنامجها الوحيد.

إلا أن هذا النشاط السياسي المحموم، بالاضافة الى المذاكرة المكثفة استعداداً للامتحان الكبير الذي يقترب بسرعة رهيبه، لم يستطع أن يشغل فؤاد عن علاقته العجيبة بليلي، هذه العلاقة التي تصبح أغرب فأغرب مع مرور كل يوم جديد:

شكا الى عبد الرؤوف:

- أقسم لك يا رؤوف أنني أحياناً أتصوّر أنني أتعامل مع جنّة. لا يمكن أن توجد أنسيّة مثل ليلي.

- هل تدخل في الجدران؟ أم تغوص في الأرض؟ أم تدّعي انها روح جدتك؟

- ما تفعله أغرب من هذا كله. دعني أضرب لك بعض الأمثلة. هذه المرأة تعرف عبد الحكيم عامر معرفة شخصية حميمة وقد حدثه مرة، أمامي، بالتليفون. كيف؟! عن طريق الزوج الأول. وتعرف محمد عبد

غرفة عمليات، توضع فيها الاستراتيجيات وترسم التكتيكات. كانت الحملة مليئة بالأساليب الميكافيلية، الوعود والوعيد والاشاعات، وحتى الأكاذيب المغرضة. انتهت الانتخابات بفوز مرشحي الحركة، بفارق بسيط.

خرج فؤاد من التجربتين بشعور متناقض نحو الانتخابات ونحو الديمقراطية بشكل عام. غالبية الطلبة في الرابطة وفي بيت الكويت من المستقلين الذين لا يهتمون بالسياسة أو بالأحزاب. ومع ذلك تمكنت أقلية بعثة منظمة من فرض مرشحها على الأغلبية في الرابطة، وتمكنت أقلية منظمة من القوميين العرب من فرض مرشحها على الأغلبية في بيت الكويت. وتم كل هذا عن طريق ديمقراطي، بالانتخابات، وبالاقتراع السري. هل الديمقراطية، إذن، مجرد تغليف ذكي لسيطرة الأقلية الحزبية؟ وإذا كان بالامكان تضليل الصفوة العربية من الطلاب المثقفين بإطلاق الاشاعات الكاذبة عن هذا المرشح أو ذاك، ألن يكون من الأسهل خداع الجماهير العربية الأمية؟ هل الذين ينادون بالمستبد العادل على حق، إذن؟ قرّر فؤاد، بعد تفكير طويل، ان قضية الديمقراطية يجب أن تؤجل في الوقت الحاضر، شأنها شأن الاشتراكية. المرحلة الآن تتطلب حشد كل الجهود وراء قيادة جمال عبدالناصر. هذا هو برنامج الحركة الوحيد، ويجب أن يبقى برنامجها الوحيد.

إلا أن هذا النشاط السياسي المحموم، بالاضافة الى المذاكرة المكثفة استعداداً للامتحان الكبير الذي يقترب بسرعة رهيبية، لم يستطع أن يشغل فؤاد عن علاقته العجيبة بليلي، هذه العلاقة التي تصبح أغرب فأغرب مع مرور كل يوم جديد:

شكا الى عبد الرؤوف:

- أقسم لك يا رؤوف أنني أحياناً أتصوّر أنني أتعامل مع جنّة. لا يمكن أن توجد أنسيّة مثل ليلي.

- هل تدخل في الجدران؟ أم تغوص في الأرض؟ أم تدّعي انها روح جدتك؟

- ما تفعله أغرب من هذا كله. دعني أضرب لك بعض الأمثلة. هذه المرأة تعرف عبد الحكيم عامر معرفة شخصية حميمة وقد حدثته مرة، أمامي، بالتليفون. كيف؟! عن طريق الزوج الأول. وتعرف محمد عبد

الوهاب معرفة وثيقة وتزوره بانتظام. كيف؟ عن طريق الزوج الأول. وتربطها بميشيل عفلق صداقة قوية. كيف؟ عن طريق الزوج الثاني. وما العجب؟ من الواضح أن الزوج الأول كان يمينياً، والثاني كان يسارياً.

- وماذا عنها هي؟ أين موقعها من اليمين واليسار؟ ما هي حقيقة ميولها السياسية؟ قبل فترة، سافرت الى الكويت وقالت، ببساطة، انها ذاهبة للمساهمة في إعداد مسودة الدستور. ثم عادت غاضبة لأن المسودة لا تتضمن حق التصويت للمرأة. قبلها، سافرت الى دمشق لزيارة ميشيل عفلق. في الأسبوع الماضي، كانت تقضي الكثير من وقتها مع الدكتور أحمد الخطيب الذي كان يزور القاهرة.

- لعلها تعمل مع المخابرات المصرية.
- لا تدخلنا في هذه المتاهات رجاء يا رؤوف.
- مجرد رأي.

- وفوق هذا كله، لم يبق نجم سينمائي أو شاعر معروف أو كاتب مشهور لم يتبادل معها الرسائل والقصائد. لديها صورة من عبد الحليم حافظ مهداة الى «أميرتي العربية». تصوّر! «أميرتي العربية»!
- فهمت الآن! الغيرة! الحكاية وما فيها هي الغيرة.

- لو كان هناك شخص واحد لشعرت بالغيرة. ولكن كيف تغار من كل مشاهير العالم العربي؟ وهذا ليس نهاية اللغز. هل سمعت في حياتك يا رؤوف بمليونيرة تملك القصور وتسكن في غرفة متواضعة بيت الطالبات الكويتيات؟

- ما المانع؟ غنيّة وشعبية!

- غنيّة/شعبية/عامرية/بعثيّة/قومية عربية/ عبد الحليم حافظية؟!
- بنت موهوبة يا أخي! ألا تقرأ ما يكتبه أصحاب عريّات الكارو على مؤخرة عرباتهم «ملك الملوك إذا وهب * لا تسألن عن السبب»؟
- على العين والراس. ولكن ماذا تريد مني أنا؟ لست من النجوم ولا السياسيين ولا المشاهير.

- استثمار في المستقبل يا أخي.
- وفي هذه الأثناء، حتى يجيء المستقبل، ينتهي كل لقاء

۲

اکتوبر
نوفمبر ۱۹۵۶

بمعركة. وأقرّر إنهاء العلاقة. وتبدأ هي من جديد. قلت لها مرة «خذي رسائلك وقصائدك وصورك واذهي الى الجحيم». بعدها بليتين كلمتني، وقالت:

إنني مشتاقة جداً اليك والى الشيء الذي في ناظريك
والى الشوق الذي يشتاقي فمتى تأخذني في شفتيك؟!

قلت لها «الآن!». قالت: «أنا قادمة الآن!». بعد دقائق قليلة وصلت. تذكر انها تقود أسرع سيارة في القاهرة. دخلت معي الغرفة. قبلتني بضراوة. لأول مرة تقبلني بهذا العنف. ثم صرخت، فجأة، «بس عاد!». وخرجت كما دخلت، بعد دقيقتين.

- هذه ليست تصرفات طبيعية.

- لا يوجد لدي أدنى شك في غرابة أطوارها. بصراحة، ما يهمني الآن هو عقلي، لا عقلها.

- من الواضح يا فؤاد انك تحبها.

- ومن الواضح انها ستؤدي بي الى الجنون. أشعر وكأنني ذبابة في شبكة عنكبوت، كلما تملّصت من بعض الخيوط التفت عليها خيوط جديدة، أقوى وأقسى.

- الذبابة والعنكبوت. ترقبوا الرائعة القصصية الجديدة.

* * *

لا يزال يعقوب عاجزاً عن تحليل مشاعره وأفكاره بعد تجارب الاعتقال والسجن الانفرادي والطرْد والعودة. خلال السجن، في اللحظات التي كان يستطيع فيها التفكير، كانت المرارة تشتعل في كل خلايا مخه. أين المسحوقون الذين ناضل من أجلهم؟ أين دول البروليتاريا؟ هل تدخل الاتحاد السوفييتي لانفاذه؟ هل احتج السفير السوفييتي لدى جمال عبدالناصر؟ لم يحدث شيء. كل الأمور تدور بوتيرتها المألوفة. الفلاحون يتعاملون مع الاقطاعيين الجدد بخنوع، كالعادة. والعُمّال في مجمع الحديد والصلب يخضعون للإدارة، كالعادة. هل أضرب فلاح واحد عن العمل؟ هل استقال عامل واحد؟ هل اعتذر السفير السوفييتي عن حفلة كوكبيل واحدة؟ العالم يمشي كما كان يمشي قبل أن يدخل ذلك الحجر المظلم الذي يمتزج فيه الليل بالنهار.

تلا شعور المرارة احتقار عنيف لنفسه، ولضعفها وتخاذلها. أين صلابة المناضل؟ أين قوة الثوري؟ أين عناد البطل؟ أسابيع قليلة في غرفة وينهار، ينهار تماماً. يبكي كالطفل. يصرخ كالطفل. يرى أشباحاً زشائناً. يتمنى الاعتراف من غير أن يطلب منه أحد اعترافاً. من أي مادة رخوة صُنع ضميره؟ من أي زبد هش صيغت أعضابه؟ وأي مستقبل ينتظر الجماهير الكادحة، إذا كانت مقاومة الطليعة القيادية تنهار من نفخة واحدة؟

في بيروت دارت بينه وبين غسان كنفاني مناقشات صاخبة لا أول لها ولا آخر. غسان، الذي يكتب الشعر والمقالة والقصة، يحاول أن يقنعه بأن عداء الماركسيّة للقومية لا يقوم على أساس. أنت أديب وشاعر يا يعقوب. هل تذوق الأدب البولندي كما تذوق الأدب العربي؟ هل شعورك نحوي هو شعورك نحو مواطن صيني؟ لا تخدع نفسك يا يعقوب. أنت عربي، أولاً وثانياً وعاشراً. هل لمكان آخر في العالم المكانة نفسها التي تحتلها فلسطين في قلبك؟ ألم تتطوع مرة من أجل فلسطين؟ هل أنت مستعد للتطوع من أجل المجر؟ ثم أن بوسعنا أن نختار من النظرية الماركسية ما يلائم أوضاعنا ونطرح الباقي. نستعين بفكر ماركس الاقتصادي ونتجاهل فكره القومي. لا يوجد ما يجبرنا على أن نأخذ كل شيء أو نطرح كل شيء. لحظة، يا غسان، لحظة! لا يمكن أن نتعامل مع النظريات على هذا النحو. نحن لسنا في سوق خضار، ننتقي كوسة من هنا وخيارة من هناك. هذه نظرية متكاملة، إما أن تأخذها بأكملها وإما أن ترفضها بأكملها. هذه حلقة منسجمة ومتراصة لا تقبل التجزئة. إذا قبلت تحليل ماركس للرأسمالية فلا بُدَّ أن تقبل تحليله للقومية. لا يمكن يا غسان أن نفصل القضية السياسية عن القضية الاقتصادية. هذا خداع بورجوازي. إلا أن غسان ينتقي ويختار، ولا يشعر بأي تناقض. يكرّس نصف وقته لأُمته، ونصف وقته لقلبه، ولا يشعر بأي تناقض. يشتم ماركس في الصباح ويمجّده في المساء، ولا يشعر بأي تناقض.

في بيروت اتضحت ليعقوب حالة الفصام التي تعيشها الأمة العربية، مجردة من كل الأقنعة. تتحدث الصحف الناصرية عن العمال والفلاحين، ويضع جمال عبد الناصر من يتبنى تضايهاهم في السجن. ويأتي قرار العفو بتدخل من كمال جنبلاط. كمال بيك الإتياعوي العشائري الذي يرأس الاشتراكيين اللبنانيين ويحاضر في النظريات الاشتراكية من إقطاعيته في المختارة. عاش يشرب في بيروت على النقود التي جاءت من قاسم، أو

على الأصح من مكتب قاسم، أو على الأصح من الرأسمالية. أي عالم
مجنون هذا؟ وهل يمكن أن يسعد فيه سوى المجانين؟

قرر يعقوب بعد رجوعه إلى شقة الحرية أن المخرج الوحيد هو العودة إلى
صاحبه القديم أبو نواس، مؤقتاً على الأقل، حتى تتضح الرؤية. قلت يا ابن
هاني:

اسقني حتى تراني أحسب الديك حماراً
أعلم، تجاوز الله عن ذنوبك الكثيرة، انني اكتشفت خلال الشهور الماضية
انه لا يوجد أدنى فرق بين الديك والحمار في عالمنا العربي هذا، إلا في
رؤوس السكارى.

* * *

أخيراً وصلت السجادة الأصفهاني إلى شقة الحرية وقوبلت بالهتافات
والضحكات وزغاريد عيشة، وزُقت زفاً إلى غرفة قاسم. تبين، بعد المطاردة
الطويلة، أن السجادة وصلت، بالفعل، إلى جمر ك السبتية. استغرق العثور
عليها قرابة أسبوع وعشرين توقيعاً وثلاثين جنيهاً. ثم جاءت مرحلة
«المعاينة» التي تطلبت ثلاثين توقيعاً وخمسين جنيهاً، وأكثر من شهر. ثم
جاءت مرحلة «التقدير» وقد تطلبت ستين توقيعاً وسبعين جنيهاً. ثم جاءت
المرحلة الأخيرة، «دفع الرسوم»، ولم تتطلب سوى عشرة توقيع ومائتي
جنيه.

فؤاد لا يزال شامتاً:

. لك الحمد والشكر يا رب. بيزات الرأسماليين تُوزع على صغار
الموظفين.

ويهدر قاسم:

. هذه ثورتكم! هذا رئيسكم! هذه حكومته! لصوص وحرامية!

* * *

أدرك عبد الرؤوف أن هذا الموعد، التاسعة صباحاً من يوم الخميس، في
هذا المكان، «الكازينور»، لم يجيء إلا لبحث موضوع شديد الحساسية. لا
يوجد في المكان غيرهما سوى جرسون عجوز يفرك عينيه من آثار النوم
ويحملك مدهوشاً في الزبونين اللذين قدما قبل موعد الغداء بساعات.

بدأ عبد الكريم بلا مقدمات:

. أريد مساعدتك في موضوع شخصي هام.

. تحت أمرك.

. أريد أن أنضم إلى الاخوان المسلمين.

صمت عبد الرؤوف. كان يتوقع كل شيء سوى نزول هذه الصاعقة.
حاول الكلام ولكنه تلعثم، وعاد إلى صمته. واستمر عبد الكريم:

. لست غيباً يا رؤوف. لا تحتاج إلى إرخاء الحيثك وحمل صور حسن
البناء لكي تعلن عن حقيقة انتمائك. جميعنا نعرف هذا الانتماء. وقصصك
العاطفية لا تخدع أحداً.

احمر وجه عبد الرؤوف، ثم بدأ يتكلم ببطء شديد:

. لم أحاول خداع أحد. يجب أن تعرف يا كريم أن التنظيم قد حُل،
وأن كل من يضبط متلبساً بالتعاطف، مجرد التعاطف، مع الجماعة يختفي
في أعماق السجون ويعرض لمختلف أنواع التعذيب.

. أعرف هذا.

. لا لا أعتقد أنك تعرف. ما ذكرته عن إرخاء اللحية ليس نكتة.
كثيرون اعتقلوا لا لشيء إلا لأنهم أطلقوا لحاهم. ألا تلاحظ أنه لم يبق
مشتجون في مصر؟ بل إن هناك من اعتقل في الأوتوبس لأن مخبراً سمع
من يناديه بكلمة «أخ»!

. رغم كل هذا أود الانضمام إلى الاخوان.

. هناك شيء آخر. لا تغضب يا كريم. لا أعتقد أن في الاخوان شيعة.

. سنة شيعة! حتى أنت يا بروتوس؟!

. كل ما أريده هو الايضاح. صحيح أنه صدر بيان من شيخ الأزهر
يعترف فيه بالمذهب الجعفري. ولكن رأي شيخ الأزهر شيء ورأي الاخوان
شيء آخر.

. وأنت ما رأيك؟

. الحقيقة يا كريم أنني لا أعرف عن الشيعة إلا ما سمعته منك.

. ألا يكفي أن نكون مسلمين نؤمن برب واحد وكتاب واحد ونبي
واحد وقبلة واحدة؟

- يا كريم! نحن في مصر. ومصر، حسب علمي، لا يوجد فيها شيعة واحد. ولكن المذهب ليس العقبة الرئيسية.

- ما هي العقبة إذن؟

- العقبة انه لا يوجد حالياً أي تنظيم للجماعة. بمعنى انك إذا أردت أن تنضم فلن تجد شيئاً تنضم إليه. لن تجد أعضاء ولا مكتباً ولا جريدة ولا موظفين.

- لا بُدَّ أن تكون هناك وسيلة ما.

- الوسيلة الوحيدة هي الانضمام اليهم في السجون. لا أعتقد ان هذا هو ما يدور في ذهنك.

- ما يدور في ذهني هو أن ألتحق بحركة تلغي الفوارق بين السنة والشيعة.

- هل يمكن أن توجد حركة كهذه يا رؤوف؟ عمر الخلاف بين السنة والشيعة بعمر الاسلام تقريباً، هل تعتقد انه يمكننا أن نحله الآن؟
- بإمكاننا أن نحاول.

- والأسلوب الأمثل ليس دخول السجن. ألم تر بعينيك ما حدث ليعقوب؟ بضعة أسابيع في الاعتقال وعاد إنساناً محطماً. هل تريد أن يحدث هذا لك؟

- أصرحك يا رؤوف انك خيبت ظني. كنت أتوقع منك التشجيع.
- لا أعرف دوافعك يا كريم ولكني واثق انك لا تعرف الأوضاع الحقيقية في مصر. قضى أخي في السجن ثلاث سنوات لمجرد انهم وجدوا معه بعض كتيبات حسن البنا. ثلاث سنوات مع الأشغال الشاقة. آلاف غابوا في أعماق السجون لأن السلطات شككت في تعاطفهم مع الجماعة.
- لا نهمني هذه المخاطر.

- قلت لك انه لا يوجد الآن شيء يمكنك أن تنضم إليه. ان كنت مُصرّاً فابدأ في قراءة الكتب الاسلامية، وان كانت هذه القراءة، بدورها، لا تخلو من مخاطرة.

- أفهم من هذا انك لا تريد مساعدتي؟

- مساعدتك؟ كيف يمكن أن أساعدك؟ بوسعك اليوم أن تقول في الكلية بصوت مرتفع «رحم الله حسن البنا» أو «الإخوان المسلمون

مظلومون» وسوف تجد نفسك خلال ساعات في السجن معهم. لا يحتاج الأمر إلى مساعدتي.

- أنا جاد يا رؤوف وأنت تمزح.

- هذا ليس مزحاً. هذا هو الواقع. لماذا لا تنضم إلى فؤاد وماجد؟ لا أظن أن عندهم فوارق بين السنة والشيعة، أو بين المسيحيين والمسلمين.

- أريد أن أنضم إلى تنظيم إسلامي.

- ابدأ بقراءة الكتب. فؤاد كثيراً ما يذهب إلى الشيخ أبو زهرة في مكتبته. اذهب معه واطلب أسماء بعض الكتب التي تعالج موقف الإسلام من القضايا الراهنة.

- وبعد ذلك؟

- لكل حادث حديث.

- تعدني؟

- لا أعدك بشيء. هل تسمح لي بسؤال؟

- تفضل.

- هل أنت متأكد أن قرارك ليس مبنياً على تأنيب الضمير؟

- تأنيب الضمير؟ لماذا تتصور ذلك؟

- مجرد فكرة.

- أرجوك يا رؤوف. يكفي فرويد واحد في المجموعة.

• • •

«أضيئت الأنوار في القصر الامبراطوري. الليلة حفل الزفاف الشهري. زفاف الامبراطورة العذراء، شانا. في المقصورة الامبراطورية، تحف الوصيفات بشانا يساعدنها على ارتداء حلة الزفاف البيضاء المرصعة بالجواهر الكريمة. في ركن بعيد من أركان القصر تشغل مجموعة من العبيد بالعريس، شين، محاولين أن يجعلوا من الفلاح الوسيم الشاب ذي الثياب الرثة واليد الخشنة رجلاً جديراً بأن يكون زوج الامبراطورة الجديد.

لم يتوقع شين أبداً هذا المصير. حدث ما حدث بسرعة مذهلة. قبل أيام، وقفت كوكبة من الحرس الامبراطوري بالحقل الذي يعمل فيه. تم

استدعاء جميع الفلاحين واستعراضهم واحداً واحداً. ووقع الاختيار عليه. وأخبره رئيس الحرس ان عليه الحضور الى القصر في مطلع الشهر القادم. لا يوجد أحد في «سعباد» يجهل نهاية الزوج الذي يقع عليه الاختيار. منذ أن جلست هذه الساحرة المجنونة على عرش الامبراطورية وحفل الزفاف الشهري لعنة من لعنات حكمها الأسود. يُختار شاب وضئ من العاملين في حقولها ليصبح العريس. تعلن الاحتفالات في مختلف أرجاء «سعباد» وتَذق الطبول، وتغرق العاصمة في الأضواء. تجلس الامبراطورة على عرشها الفضي وبجانبها الزوج الجديد. في الصباح التالي، ينضم هذا الزوج الى جموع الخصيان الذين يتولون مهمة تنظيف القصور الامبراطورية. وتهمس الاشاعات أن الزوج لم يكن فحلاً، وان الامبراطورة العذراء لا زالت عذراء، وتبدأ الاستعدادات لحفل الزفاف القادم.

شين يعرف الحقيقة التي يعرفها كل إنسان في «سعباد». يعرف أن العريس الجديد بعد انتهاء المراسم والاحتفالات لا يذهب الى المخدع الامبراطوري مباشرة، وانما يقاد الى غرفة الطبيب حيث يقضي بضع دقائق يخصى خلالها كما تخصي خيول الامبراطورة وكلابها. ثم يساق الى المخدع. وينضم في الصباح الى جموع الخصيان.

يخفي شين الموسى الصغيرة بعناية. وتتم المراسم. وتبتسم الامبراطورة العذراء. وابتسم العريس. وينتهي الاحتفال. وتختفي الامبراطورة. ويذهب الى غرفة الطبيب. وفي ثوان تغادر الموسى مكانها وتستقر في عنق الطبيب ثم تعود الى مكانها. ويخرج شين وكأن شيئاً لم يكن. يدخل المخدع الامبراطوري. يرى الامبراطورة العذراء في غلالة شفافة رقيقة. لا يصدق أن هذه المرأة تجاوزت الستين. كل من في «سعباد» يؤمن أن السحر هو السر في شباب الامبراطورة الدائم. تدعوه الامبراطورة الى الاقتراب. لا يتحرك. تأمره أن يدنو. يقفز، وقبل أن تدرك الامبراطورة ما يحدث يصفعها بكل قوته. ينقض عليها كذئب جائع يهجم على شاة. ويسيل الدم. وتصرخ الامبراطورة:

- اغتصبتني بالقوة أيها الحيوان القذر.

ينظر شين الى الامبراطورة التي لم تعد عذراء. ويذهل وهو يرى التحول الذي يجتاح ملامحها. انقلب الوجه الطفولي القاتن الى وجه قبيح مُجعد بالعضون. وطفحت البشرة النقية بالبثور. رأى شين كما لم ير أي

إنسان قبله الوجه الحقيقي للساحرة الشمطاء. يدفن شين موسى في العنق المليء بالعروق النافرة. وتصرخ الساحرة. ويتراكم الحرس من كل مكان. ويقهقه شين من الأعماق.

* * *

- نقلة جديدة يا فؤاد. نقلة الى قصص الخيال العلمي. كل هذا من بركات ليلي؟
- رُبما.

- لا تقل لي انك وصلت الى المخدع الامبراطوري؟
- أرفض التعليق.
- لا تقل لي انها لا زالت عذراء بعد زوجين؟
- أرفض التعليق.
- حسناً. سؤال واحد. ما المقصود بسعباد؟
- سعباد تعني «بس عاد»!
- اذن قلت لي كل شيء.

* * *

هل تحدثت القصة عن كل شيء؟ عن كل ما جرى؟ بدأت الحادثة مساء الخميس الماضي عندما جاءت ليلي الى شقة الحرية وأخذته، وانطلقت «البوك» الحمراء، وأعلنت انهما ذاهبان «في رحلة». وقفت «البوك» أمام فيلا في حي المهندسين بالدقي. بمجرد أن اجتازا الباب شعر فؤاد انه ينتقل من عالم المعتاد الى عالم جديد: أثاث رائع، لوحات زيتية أخاذة، أضواء خافتة، موسيقى تنبعث من مكان مجهول.

سأل بيلاهة:

- من يعيش هنا؟

وردت ببساطة:

- أنا.

- ولكني كنت أظن انك تعيشين في بيت الطالبات.

- أعيش هنا. وأعيش هناك.

- هل كنت تقيمين هنا مع زوجك السابق؟

- أتيهما تقصد؟

- الاثنين!

- عشت هنا مع الثاني.

- عشت مع الثائر الاشتراكي في هذا القصر الرأسمالي؟!

- بس عاد!

لم تكن الفيلا قصرًا، ولكنها لم تكن بيتًا عاديًا. أكثر ما أذهل فؤاد الفارق بين المظهر الخارجي البسيط الذي لا يختلف عن مظهر عشرات القبيل المجاورة وبين الداخل. السجاد الذي يزري بسجادة قاسم البنيمة (لا يعرف فؤاد كيف تمكنت من ادخال كل هذا السجاد عبر الجمر: عيد الحكيم عامر؟!). السناثر الزرقاء المخملية. إذن، فالذين يتحدثون عن المجتمع «المخمل» لا يبالغون. والصور الفوتوغرافية. مشاهير العالم العربي. صورتها مع الزوج الأول في ميدان بروما. صورتها مع الزوج الأول ومع أنور السادات. صورتها مع الزوج الأول ومع فريد الأطرش. ثم الزوج الثاني، الذي يكاد يكون نسخة طبق الأصل من عمر الشريف. صورتها مع الزوج الثاني في مطعم فيصل ببيروت. صورتها مع الزوج الثاني ومع سليمان العيسى. صورتها مع الزوج الثاني ومع محمد حسنين هيكل. عالم غريب، عالم من الساسة والشعراء، من الثوار والحكام، من الأغنياء والفقراء، من المادة والروح. وهي تعيش العالمين بكل مشاعرها كأنها مركبة من مخلوقتين مختلفتين تمامًا: الثرية الرأسمالية التي تزوجت الثري الرأسمالي، والثورية الاشتراكية التي تزوجت الثوري الاشتراكي. ولا تزال حتى بعد ذهاب الزوجين تعيش الحياتين المنفصلتين. من ناحية، الغرفة المتواضعة في بيت الطالبات، والصديق المتواضع القادم من البحرين، الذي لا يملك سوى خمسة وعشرين جنيهًا في الشهر، ولم يؤلف سوى نصف كتاب. ومن ناحية أخرى، «البيوك» الحمراء، وهذه الفيلا التي يعرف كل شبر فيها ملحمة الثراء البدئي.

لأول مرة يتعرف فؤاد على الويسكي والسيجار. لأول مرة، يرى خارج الأفلام، امرأة تشرب الويسكي. لأول مرة، خارج الأفلام أو داخلها، يرى امرأة تدخن سيجارًا. من أي الزوجين جاءت العادتان؟ أم جاءت عادة من كل زوج؟ يخاف فؤاد من تهمة «الانحوائية»، ويختنق مع

السيجار، ويغض بالسائل الأصفر. ثم تبدأ الأمور تغيم قليلاً. بغتة، ينبعث صوتها من جهاز التسجيل وهي تهمس:

أنا قلبك؟ أم أنت فؤادي؟ يا مرادي! أنت.. يا أغلى مراد
أنا أعطيتك روعي.. والمني وضلوعي.. وعيوني.. وقيادي

لا يكاد يفيق من صدمة «أم أنت فؤادي»، حتى يسمع الشعر نفسه بصوت عبد الحليم حافظ من غير أداة موسيقية. ثم يجيء الشعر نفسه بصوت فريد الأطرش مع تقاسيم على العود. يقرر أنه يعيش في حلم. لا يمكن أن يكون هذا واقعاً. لا يمكن أن يكون هنا في هذا البيت/القصر بقرب هذه المرأة الجميلة يستمع إلى شعر جميل كتبته عنه، شعر يحمل اسمه، ويفتيه عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش. لا تحصل هذه الأشياء إلا في الأحلام. وما دام في حلم، فليصنع ما شاء.

مرت أحداث الحلم وكأنها مشاهد في شريط سينمائي. غرفة النوم، والسرير، وروائح «شانيل ٥». القبة وما بعد القبة. ثم «بس عاد!». ولكنه لا يتوقف هذه المرة. تكرر «بس عاد!»، ولا يتوقف. وترن الصفعة على وجهه، وتترك مجرى يلسعه كالجر. ينتهي الحلم ويبدأ الكابوس. يملكه السكر المجنون، أو الجنون السكران. يلطمها بعنف. على الخد الأيمن ثم الخد الأيسر. أم تراه بدأ بالخد الأيسر؟ في الكوايس، تضعيف التفاصيل الصغيرة. المهم أنه صفع اليمين واليسار. اليمين واليسار؟! ها ها ها. غلطة فرويدية، أليس كذلك يا يعقوب؟! تمتد يده، وتمزق القميص. القميص أو البلوزة؟ في الكوايس، لا تهم الأسماء. وتمتد يده وتزيل البنطلون الذي كانت ترتديه. البنطلون أو الجونلا؟ قلنا لا تهم الأسماء. يرحل حي المهندسين. تختفي الفيلا. تتلاشى ليلي الخزيني الشاعرة الكويتية الجميلة الرأسمالية الاشتراكية. يتطاير فؤاد الطارف القاص البحريني الشاب الذي تحول من بعثي إلى قومي عربي. تصبح ليلي طريدة من العصر الحجري. يصبح فؤاد رجل كهف. تمر الطريدة أمام الكهف. يفوح عبق «شانيل ٥». يخرج رجل الكهف ويتبع الرائحة. يثور الجوع في أعماق رجل الكهف الذي لم يأكل منذ أيام. ويجري خلف الطريدة. هل الطريدة غزالة؟ أم بقرة وحشية؟ في الكوايس، تتشابه الطرائد. تجري الطريدة ويجري رجل الكهف وراءها. يلتفت رجل الكهف فيرى عدداً كبيراً من الرجال يتبعون طريدته. هنا رجل بلامح عمر الشريف. وهناك رجل بلامح فريد الأطرش. وهنا جمال عبد الناصر بنفسه. جمال عبد الناصر؟! ما الذي زج

فِراقٌ... وَمَنْ فَارَقْتُ غَيْرَ مُذَمِّمٍ وَأَمَّ... وَمَنْ يَمُتْ خَيْرُ مُيَمِّمٍ
المتنبي

بجمال عبد الناصر في أعماق هذا الكابوس؟! وهناك الأستاذ. والجميع يجرون وراء الطريدة. ويغضب رجل الكهف. هذه طريدته. صيده. غنيمته وحده. يصل الى الطريدة. ويضربها على مؤخرة عنقها. وتسقط. ويقرر أن يفترسها قبل أن يصل الآخرون. يسمع صوت ثياب تتمزق. ثيابها أم ثيابه؟ ويسمع أصداً صفعات جديدة. صفعته أم صفعها؟ تتأوه الطريدة. وتقاوم. وتخف مقاومتها. ويسمع من مكان بعيد بعيد صوت عبدالحليم حافظ يصرخ «نار يا حبيبي نار». وتشتعل النار في بقايا ثيابه. وفي أمعائه. ويسمع صوت زمجرة وهمهمة. وتصرخ الطريدة «بس!»، «بس!»، «يا مجنون!»، «يا مجنون!». ولا يقف الكابوس رغم صراخها. ويحمل المشهد التالي صور بقع من الدماء على السرير. دماء؟! من أين جاءت الدماء؟! هل طعنها أم طعنته؟ هل عضها أم عضته؟ هل مزقها بأظافره أم مزقته بأظافرها؟ في الكوايس، تضيع التفاصيل. وتصل الى سمعه كلمات متقطعة تفصل بينها نوبات من البكاء «أغتصبتني». من الذي اغتصبها؟! «بالقوة». من الذي اغتصبها بالقوة؟! الدقة في المصطلحات يا بني. هذه الطريدة لم تدرس القانون. لو درست له لأدركت ان كلمة «بالقوة» تزيد لا معنى له، فالأغتصاب، قانوناً، يعني الاغتصاب بالقوة، «أيها الحيوان القذر!». عن أي حيوان تتحدث؟! لا يوجد في الغرفة حيوانات. لا يوجد سوى أديب وشاعرة. من أين جاءت الدماء إذن؟ الدماء؟! المنديل الأحمر؟! دماء البكارة؟! هل هذا معقول أيها الكابوس؟ أقصد يا سيادة الكابوس! أعني يا سي كابوس! يا كبايسو! هل يوجد حتى في أغبي الكوايس امرأة تزوجت واحداً من أغني أغنياء الأمة العربية، ثم واحداً من أثور، آسف! أقصد من أشرس، ثوار الأمة العربية وظلت محتفظة بعذريتها؟! ومالو؟! ومالو كيف يا أخي؟! هذا ليس كابوساً طبيعياً. هذا كابوس من اختراع العبثيين - العبثيين لا البعثيين! - «بالقوة»؟! «أيها الحيوان القذر»؟! لحظة أيها الكابوس! لحظة من فضلك! خمسة! كيف حولتني الى حيوان قذر؟ كيف جعلتني أغتصبها بالقوة؟ هل يعاقب القانون الجنائي على جريمة اغتصاب بالقوة - قلنا «بالقوة» تزيد يا محترم! - حدثت في كابوس؟ نسأل العميد. رئيس قسم القانون الجنائي. العميد يقول ان القانون ينطبق حتى في الكوايس. غريبة! والنتيجة؟ آخرتها لبن! النتيجة أيها الحيوان القذر انك سوف تذهب الى السجن. قد ترى زغلول هناك. إمام المسجد ومغتصب النساء في سجن واحد. أو ربما وضعوك مع يعقوب. هذا أفضل. مغتصب

الرأسمالية ومغتصب الفتاة الرأسمالية. وما هذه الابتسامة العريضة التي تملأ الآن وجهها كله؟! قصة معقدة بعض الشيء. فيها قدر من السيرالية. ألم تسمع بالسيرالية يا كابوس بيه؟ السيرالية شيء شبيه بالوجودية. وبالملوخية. بتهزر حضرتك؟! آسف! في الأدب السيرالي يمكن أن يحدث كل شيء، وأي شيء. تتكلم الطيور وتنطق الكراسي وتنوح الأشجار وتقهقه الضفادع وتسخر الرياح. حلوة، مسخرة الرياح. آسف! يمكن أن تزوج المرأة مرتين وتظل عذراء. ثم تفقد عذريتها. ويمكن أن تُلقق البكارة، بالخيوط والإبرة. الرجل الشرقي لا يريد إلا العذراء. وليلة العرس! ليلة العرس؟! لا أنوي أن أكون زوجك الثالث! تعرف المقصود! أين سمع هذا الكلام من قبل؟! وهذه الطريدة الطعينة الجريحة لا تزال تبسم. الابتسامة موقف وجودي. والبكارة. البكارة الثورية. والبكارة الرأسمالية. والاحتفاظ بالبكارة موقف وجودي. وفقدانها موقف وجودي. وتلفيقها من جديد موقف وجودي. ويعقوب يصر أن المواقف الوجودية مواقف بطولية، باستثناء السجن الانفرادي. أديني عقلك أيها الكابوس، رجاء، وشرح لي، على مهلك، لماذا أنا هنا، وماذا أفعل هنا، في هذه الساعة من الصباح، على هذا السرير مع هذه المرأة الدامية، (أو الدموية؟!) (أو المدماة؟!)، التي تزعم أنني حيوان قذر اغتصبها بالقوة. تكلم أيها الكابوس، أبوس أيدك!

۱۹

یونیو ۱۹۶۱

في الحَدِّ إن عزم الخَلِيط رَحِيلاً مطرٌ تَزِيدُ به الحُدودُ مُحَرَّلاً
المتنبي

جاء يوم الامتحان الشفوي في القانون المدني. رَفَف فؤاد أمام باب لجنة الامتحان مُحاطاً بالوجوه المكفهرة، واللحي الطويلة، والثياب المتسخة. وحده الذي يبدو كما لو كان قادماً لتوّه من الحلاق. بعد جولات المشي الطويلة، نام نوماً عميقاً وأصبح مليئاً بالثقة. جاء الدور، ودخل معه طالبان. وراء الطاولة جلس الدكتور سليمان مرقص وبجانبه رئيس محكمة النقض المستشار زاهر حسني (من المؤكد أن وظيفة كهذه كانت تحمل معها الباشوية قبل الثورة ولكن لا بُدّ من التأكد من نشأت). بدأ الدكتور سليمان مرقص، وسأل كل طالب بالدور. ثم جاءت أسئلة المستشار. ثم عاد الدكتور سليمان مرقص. ولسبب لا يعرفه فؤاد، قرّر الدكتور أن يركز عليه ويهمل زميله. وتوالى الأسئلة، وتوالى الاجابات وكلّها، على ما يعتقد، صحيحة. ثم قفز الدكتور بلا مقدمات الى موضوع جديد:

- وماذا عن بيع المالك عقاراً لا يملكه؟

ورد فؤاد:

- حسن النية أو سيء النية يا دكتور؟

- حسن النية.

- وماذا عن المشتري يا دكتور؟ حسن النية أو سيء النية؟

ضحك الدكتور سليمان مرقص:

- من المُمْتَحِن؟ أنا أم أنت؟ المقصود حسن النية عند الطرفين.

صمت فؤاد قليلاً ثم قال:

- الرأي الذي ذكرته في الكتاب يا دكتور والذي يستند الى أحكام

محكمة النقض في فرنسا وفي مصر يذهب الى حماية المشتري حسن النية وتعويض المالك الحقيقي بضمن المثل. ولكنني أختلف مع هذا الرأي.

لو قال فؤاد «ولكنني أنوي قتلك الآن يا دكتور» لما أحدثت العبارة الوقع الذي أحدثته كلماته الأخيرة. ساد الغرفة صمت رهيب مفاجيء. وتكمل الطالبان، مذعورين. والتفت المستشار اليه وفي عينيه تساؤل صامت عن سلامة قواه العقلية. واحمرَّ وجه الدكتور سليمان مرقص. واستطرد فؤاد: - رأيكم يا دكتور يقوم على الاعتبارات المنطقية. ليس من المنطقي أن أهدم غمارة حتى لو كان الذي بناها قد اشترى الأرض من رجل لا يملكها. ولكن المنطقي أن أعوض مالك الأرض الفعلي. إلا أنني أنظر الى الموضوع من زاوية العدالة التي تحتم حماية المالك الحقيقي.

زمجر الدكتور سليمان مرقص:

- منذ متى كانت مبادئ العدالة تتناقض مع المنطق؟

وقال المستشار:

- واضح يا دكتور سليمان انه لم يستوعب رأيكم.

ورد فؤاد:

- عفواً يا سيادة المستشار. لقد فهمت رأي الدكتور فهماً تاماً وأقدره وأحترمه. ولكنني أرى أن اعتبارات العدالة تقتضي حماية المالك الفعلي. أفرض يا دكتور أنني أملك أرضاً أنوي أن أبني عليها بيتاً لسكني وسكن عائلتي ثم غبت بضعة أسابيع وعدت لأجد إنساناً غيّر باعها لآخر بنى عليها بيته. ما ذنبي أنا؟

قال الدكتور بانفعال واضح:

- أذكرك أننا نتحدث عن بائع حسن النية لم يكن يعرف أنه يبيع ملك الغير، ومشتري حسن النية لم يعرف انه يشتري ممن لا يملك. ما ذنب المشتري الذي اشترى الأرض وهو واثق ثقة مطلقة انه يشتريها من مالكها، المشتري الذي بنى عليها بيتاً بالفعل؟ بأي منطق أهدم بيته؟

ويرد فؤاد بهدوء:

- هذه هي النقطة يا دكتور. أنت تقول ما ذنب المشتري وأنا أقول ما ذنبي، أنا المالك الحقيقي.

يتدخل المستشار:

- بسّ المالك حيتعوض يا ابني. حندفع له قيمة المثل.
إلاّ ان فؤاد يرفض الاقتناع:
- لنفرض انه لا يريد أن يبيع أصلاً ولا يريد قيمة المثل. لا يريد إلا أرضه.
- يسأله الدكتور سليمان مرقص باستغراب:
- إذن فأنت تريد هدم البيت وارجاع الأرض الى ما كانت عليه وتسليمها للمالك الحقيقي؟
- هذا هو مقتضى العدالة يا دكتور.
- افرض ان المشتري بنى عليها فندقاً ضخماً، هل نزيل الفندق؟ أو مستشفى، هل نزيل المستشفى؟
- هذا ما تتطلبه العدالة.
- تتطلب العدالة أن أزيل مبنى بمليون جنيه حماية لأرض لا تزيد قيمتها على عشرة آلاف جنيه؟!
- يتدخل المستشار لتلطيف الجو ويقول مخاطباً فؤاد:
- رأيك يا ابني مقبول من الناحية النظرية، ولكن لا يمكن تطبيقه من الناحية العملية. عدد من أحياء القاهرة التي تراها الآن بيعت وعُمرت قبل أن يكتشف أحد أن البائع باع ما لا يملك.
- يضيف الدكتور سليمان مرقص:
- ألا تذكر قضية مصر الجديدة يا زاهر بيه؟ نصف مصر الجديدة بيع بهذا الشكل.
- يلتفت الدكتور الى فؤاد:
- انت منين يا ابني؟
- ويردّ فؤاد:
- من البحرين.
- يضحك الدكتور سليمان مرقص:
- أتايريك عاوز تهدّ مصر!
- ثم يضيف.

- قوم رَوِّح. رَوِّحُوا كلكو.

قبل أن يصل فؤاد الى الباب يناديه الدكتور سليمان مرقص ويهمس في أذنه:

- رأيك غلط في غلط. ولكن برافو عليك. سوف أعطيك النمرة الكاملة. لم أفعل هذا أبداً من قبل.

* * *

يقلّب يعقوب الصفحات في كتاب «المجتمع العربي» استعداداً للامتحان. ضاعت عليه مواد الترم الأول وعليه أن يبذل أقصى جهده ليجتاز مواد هذا الترم. غير أن الكتاب لا يثير في نفسه سوى الاشمئزاز. أوراق مليئة بالنفاق ليس لها علاقة بالمجتمع العربي في أي مكان (أما البحرين فلا تظهر حتى في الكتاب). شعارات فارغة عن الوحدة والموارد البشرية واللجنة القادمة. يفهم يعقوب أن يُردّد هذا الكلام في الصحف والاذاعة ولكنه لا يفهم كيف يقدم لطلبة الجامعة على أساس أنه وصف علمي موضوعي لواقع المجتمع العربي. ترى ماذا سيحدث لو كتبت في دفتر الاجابة لمحات عن المجتمع العربي كما رأيته، لمحات حقيقية رأيته وعاشتها؟!

لنبدأ بقلعة العروبة، أم الدنيا، مصر. أنت يا سيدي الممتحن، باعتبارك مواطناً عربياً من الاقليم الجنوبي، تعرف ولا شك الأوضاع في مصر، وتترنّها أكثر مني. ولكنني أقدر أن هناك خطورة في التعرض اليها في كتابك. دعني، إذن، أتحدث نيابة عنك. في هذا المجتمع العربي يا سيدي الممتحن يملك ضباط الثورة كل شيء. وأقصد كل شيء حرفياً: الحكومة، والمجلس، والاتحاد القومي، والجرائد، وعمارات الانجليز والفرنسيين، ومديريات التحرير، والفتيات الراغبات في الزواج، وإذا لم تصدّق فاسأل عبد الكريم، ويملكون السجون الانفرادية، وإذا لم تصدّق فاسألني، أنا محسوبك يعقوب الحدي عضو المجتمع العربي البحريني الذي لم يكبر الى درجة دخوله في المقرّر. هل جربت السجن الانفرادي يا سيادة الممتحن؟ هذا سؤال جدّي! هل جربت السجن الانفرادي؟ السجن الانفرادي يا سيدي الممتحن يقع في بيت عادي في العباسية، لا يوجد على بابه يافطة ولا حرس، بيت لطيف ظريف. ولا يوجد في داخله تعذيب. كل ما يعنيه السجن الانفرادي انك لا تعرف الفرق بين الليل والنهار. ويا سيدي

المتحن، هل تعرف ما يعنيه زوال الفرق بين الليل والنهار؟ يعني، بكل بساطة، الجنون التام. عندما يزول الفرق بين الفجر والمغرب، بين الافطار والعشاء، وبين النور والظلام، يزول الفرق بين العقل والجنون. صدقني يا سيادة المتحن. حاغشك يعني؟ ايه؟ ودي تيجي؟! اذهب واسأل في العباسية. لا! لا! لا أقصد مستشفى المجاذيب التي نسميها في البحرين، بكل صراحة، «دار المجانين»، أقصد حي العباسية. اسأل هناك عن فيلا عادية لا يوجد عليها ما يدل على انها سجن انفرادي.

وماذا عن المجتمع العربي في لبنان يا سيدي المتحن؟ هذا مجتمع عجيب غريب، يشبه جزائر الواق واق، لا بُدّ انك سمعت عن جزائر الواق واق التي تقع بعد الليلة السبعمئة من ألف ليلة وليلة. في كل جبل من جبال لبنان الأشم امبراطورية مستقلة، هل تذكر امبراطورية زفتي يا سيدي المتحن؟، تحكمها عشيرة مستقلة، يحكمها شيخ قبلي يمثلها في البرلمان. ولكل شيخ يا سيدي جيش من «القبضايات» و«الزعران»، تستطيع أن تعتبر الكلمتين مرادفتين لكلمة «الفتوات» المصرية، يفوق في عدده الجيش اللبناني. صدق أو لا تصدق يا سيدي المتحن أن شيوخ لبنان أكثر من شيوخ السعودية وقطر والبحرين والكويت مجتمعين. لم تكن تعرف ذلك من قبل؟! هناك، على سبيل المثال لا الحصر، الشيخ الخازن، والشيخ ارسلان - لا! عفواً! ارسلان مير، والمير هي الأمير - وهي تختلف عن قولكم في مصر «فلان أمير» - والشيخ إدّه، والشيخ الجميل، والشيخ فرنجية، والشيخ جنبلاط - لا! عفواً! هذا، بدوره، مير، وعفواً، هذا، بالذات، بيك. كمال بيك جنبلاط صاحب الفضل في عودتي الميمونة الى القاهرة. وهناك يا سيدي المتحن شيخ المشايخ، أو «الشيخ العود»، أو «الشيوخ»، أي رئيس الجمهورية وهذا، بدوره، «مير»!

أريد أن أقول يا سيدي المتحن أن عليك في الطبعة القادمة من كتابك أن تترك هذا الهراء الفارغ عن دور الجماهير العربية في الأمة العربية الناصرية الواحدة، وأن تكتب أن المجتمع العربي لا تحكمه الجماهير وإنما شيوخ العرب، وهؤلاء يُسمّون عندنا الملوك والأمراء والشيوخ، ويسمّون عندكم الضباط، ويُسمى الواحد منهم في بلاد الشام «المير» أو «البيك». وعليك، في الطبعة القادمة من كتابك يا سيادة المتحن أن تسجل أن «شيخكم العود»، في مصر، أو «شيوخكم»، جمال عبد الناصر، لم يعد يقتنع بأن يكون «الشيخ العود» في مصر وسحدها، بل يريد أن يكون «الشيخ

العود» في كل البلاد العربية الممتدة من المحيط الأطلسي الى الخليج الفارسي. عفواً يا سيادة الممتحن أعني الخليج الذي كان اسمه الفارسي عندما قدمت الى مصر للدراسة في صيف سنة ١٩٥٦ والذي أصبح اسمه مؤخراً الخليج العربي لأسباب تتعلق بغضب «الشيخ العود» العربي من «الشيخ العود» الفارسي. المهم يا سيدي الممتحن أنني مع جمال عبد الناصر، «شيخنا العود»، سواء سمي الخليج فارسياً أو عربياً، معه حتى الموت!

* * *

يتملح عبد الكريم وهو يقرأ كتاب «القانون الدولي الخاص». أدى مرضه عقب وفاة ريري الى رسوبه في مادتين من مواد الترم الأول ورسوبه في أي مادة من مواد الترم الثاني يعني انه سيقضي في الكلية سنة دراسية كاملة بدلاً من ترم إضافي واحد. يغالب سأمه ويستمر في المذاكرة. مادة غريبة هذه المادة، مادة ذات اسمين، «القانون الدولي الخاص» و«تنازع القوانين». يفضل عبد الكريم الاسم الثاني: «تنازع القوانين». الحياة، في النهاية، مجموعة من القوانين المتنازعة. قوانين الرجعية وقوانين التقدمية، قوانين الفقر وقوانين الثروة، قوانين الحب وقوانين الكراهية، قوانين الرجل وقوانين المرأة، قوانين السنة وقوانين الشيعة، وقوانين الجبن وقوانين الشجاعة.

آه! الجبن والشجاعة. هذا هو التنازع الأكبر في التاريخ، «الديالكتيكية» الأساسية، كما يقول يعقوب الفرويدي/الوجودي/الشيوعي/سابقاً/مجهول الأيديولوجية حالياً. الجبن والشجاعة. من تنازعهما يُصنع التاريخ. لا ريب في ذلك. يبدأ الريب مع السؤال التالي: هل يصنع التاريخ الشجعان أم يصنعه الجبناء؟ الحسين أم يزيد؟ يبدو، للوهلة الأولى، أن التاريخ من صنع الشجعان. ولكن ماذا بعد الوهلة الأولى؟ غالباً، يموت الشجعان، ولا يقون ليصنعوا التاريخ. غالباً، يبقى الجبناء ويسرقون التاريخ. الجنود الشجعان وقود المعارك والقادة الجبناء أبطالها. هل هذه حقيقة تاريخية؟ من يدري؟ التاريخ، مثل سوق الخميس في البحرين، مليء بمختلف أنواع البضائع. أو مثل سوق المقاصيص.

فليدع التاريخ ولينظر الى حياته هو. ألم تكن حياته صراعاً دائماً بين الجبن والشجاعة؟ بين التقاليد والتمرد؟ بين الطاعة والعصيان؟ وكيف يصنّف نفسه وقد بلغ الثانية والثلاثين؟ هل يعتبر نفسه شجاعاً أم جبناً؟ لا يدري. لعله في حالة «تنازع قوانين». ولا توجد في الكتاب الذي يقلّب

صفحاته إجابات. يتحدث الدكتور جابر جاد عن قوانين الأحوال الشخصية وعن القوانين الجنائية، الأولى تتبع الشخص، كظله، أينما ذهب، والثانية تبقى رابضة مكانها في الاقليم. ولكنه لا يتحدث عن تنازع قوانين الشجاعة والجن وأيهما ينطبق على عبد الكريم. سؤال سخيّف خارج المقرّر.

يفتح باب الغرفة ويطل فؤاد:

- فريدة على التليفون.

تغيم الدنيا. تجيء جيوش كثيفة من الضباب الأسود وتدخل عينيه وتسدّ أذنيه. لا يكاد يرى. لا يكاد يسمع.

- كريم! فريدة على التليفون. ماذا أقول لها؟

فتح عبد الكريم فمه وأبت الكلمات أن تخرج. وعادت الرعشة القديمة بكل أعراضها. ولاحظ فؤاد:

- سأخذ رقمها وأخبرنا انك ستتصل بها فيما بعد.

خرج فؤاد ولم تخرج الرعشة من جسد عبد الكريم. فريدة! فريدة! بعد هذا كله؟! ماذا ستقول له؟ «سوري يا كابتن؟» «لا مؤاخذه؟» «بردون يا أستاذ كريم؟» وماذا سيقول لها؟ «زلا يهملك؟» «حصل خير؟» «زوجة تفوت ولا حد يموت؟» إلا ريري! وماذا حدث «الحضرة الضابط؟» هل قُتل في معركة؟ لم تكن هناك معارك. أم تُوفي بداء الحب؟ أم قتله مرض السأم؟ يكلم فريدة أو لا يكلمها؟ هذا هو السؤال. تنازع القوانين. قوانين الجن وقوانين الشجاعة. تنازع قوانين مُعقّد الى أبعد الحدود. هل يقتضي قانون الشجاعة أن يكلمها أو يتجاهلها؟ هل الجن هنا في الإحجام أو في الإقدام؟ مسألة عويصة. لا يحلّها كتاب الدكتور جابر جاد. ولا كل كتب القانون في كل كليات الحقوق. هل هو، في حقيقته، جبان يحاول أن يظهر بمظهر الشجاع؟ أو شجاع يرتدي، أحياناً، قناع الجبان؟ لا! هذا ليس هو السؤال. يكلمها أو لا يكلمها. هذا هو السؤال!

* * *

«منذ أن وقعت عينا مجدي علي عيني صفاء وهو في حالة حبّ مع صفاء وعينيها. صفاء تسكن في شقة في الطابق الثالث من العمارة التي يسكن مجدي غرفة صغيرة على سطحها. كانت صفاء، أيامها، في الثالثة عشرة، طالبة في الإعدادية. وكان، وقتها، في الخامسة عشرة في بداية

للرحلة الثانوية. بقي أكثر من سنة قبل أن يجراً على أن يقول لها «صباح الخير»، زلم تردّ، ولكنها ابتسمت. ظلت الابتسامة وسيلة الاتصال الوحيدة بينهما عبر شهور. ثم بدأت الكلمات، مُجرّد جملة أو جملتين، خلال لقائهما على السلم أو في السطح وهي تنشر غسيل العائلة.

أبو صفاء موظف في محافظة الجيزة، موظف كبير نسبياً، باشكاتب تقريباً. وهو حريص على أن تتزوج صفاء موظفاً مثله، وألاً تضع مستقبلها مع طالب فقير. حذرهما من الحديث مع مجدي، وأنذرهما بأنه سيسعى إلى طرده من العمارة إن وجدها تتحدّث معه. ومع ذلك، استمرت الكلمات والبسمات. واستمرّ الحب ينمو في قلب مجدي.

كيف جاءت صفاء بهذا الجمال وأبوها قبيح الملامح، شرس الطباع وأمها قصيرة دميمة تزن الأطنان؟ نبتت كما نبت الزهرة في الصحراء القاحلة. وجنات وردية. قوام فارغ. عينان كبحيرتين من الكحل الدامس. وشعر كث متمرّد، لا يريحها ولا يريحه.

عندما قدم مجدي من القاهرة وجد ابن عمه رشاد في الغرفة الصغيرة وسكن معه. عندما دخل مجدي كلية الآداب كان رشاد قد تخرج ووُظف مهندساً زراعياً في الفيوم. جاء قريب جديد من البلد واحتل سرير رشاد. دورة لا تنتهي. يتخرج قريب ويشغر السرير ويجيء قريب. وغرفة السطوح تودّع المغادرين وتستقبل القادمين، بلا دموع وبلا ضحكات.

رشاد الذي جاء من الفيوم في زيارة مفاجئة يقول له بسعادة واضحة:

- بارك لي يا مجدي. بارك لي!

- ألف مبروك. خير؟

- خطبت صفاء. ووافق أبوها. وكتب الكتاب الأسبوع القادم.

دخل الخنجر في قلب مجدي ولم يخرج. صفاء التي كان يتصوّر أنها تحبّه كما يحبّها تتزوج رشاد؟ ورشاد الذي لم يظهر عليه عبر السنين الماضية كلها انه لاحظ وجودها على الأرض يتزوج صفاء؟ عالم غريب! جاء كتب الكتاب. ثم جاء الفرح. وحضر مجدي المناسبتين. وأخذت صفاء حقائبها وذهبت مع زوجها إلى الفيوم. منذ أن سمع الخبر من رشاد لم يلتق بها وجهاً لوجه سوى مرة واحدة، على السلم. نظر إليها، ونظرت إليه. لم يقل شيئاً ولم تقل شيئاً. ثم سقطت دمعتان كبيرتان من العينين الكبيرتين. وعندما مرّت بقربه سمع الهمسة: «قسمة ونصيب يا سي

مجدي». واختفت. ومَرَّت الأيام. وأقنع نفسه انها نسيته. ومَرَّت سنتان. وأقنع نفسه انها لم تحبّه قط. وأنه كان يخادع نفسه. ومَرَّت ثلاث سنوات. وأقنع نفسه انه لم يعرفها أبداً، ولم تعرفه.

بغتةً، ظهرت صفاء على السّلم. لم يتغير شيء. الجمال الرائع نفسه. الابتسامة المضيئة ذاتها. وتهمس، لماذا لا تتكلم هذه الفتاة إلّا همساً، إن رشاد طلقها. وسألها مجدي عن السبب. وجاءت الهمسة القديمة، وكأنها لا زالت مكانها عندما التقيا في المرة الأخيرة ولا زال هو في مكانه، «قسمة ونصيب يا سي مجدي».

هل يقبل الباشكاتب أن يزوج ابنته المطلقّة معيداً في كلية؟ هل سيعتبر المعيد موظفاً «ميري» جديراً بابنة الباشكاتب؟ علم هذا عند القسمة والنصيب. يا سي مجدي!.

* * *

سأله فؤاد:

- أبارك لك الآن؟

ورد عبد الرؤوف بخجل:

- من الأفضل الانتظار.

- الى متى؟

- الى أن أتخرج. وأُعين.

- ألف مبروك مُقدّماً.

- شكراً.

- كيف عشت خلال السنين الماضية؟

- من قال لك اني عشت؟ كنت أطفو على سطح الحياة.

- لاحظت تغيراً هائلاً فيك منذ أسابيع. لاحظت السعادة التي تأكل ملامحك. الشعاع الذي لا يفارق عينيك. كنت أخشى أن أكون واهماً.

- لم تكن واهماً يا فؤاد. لم أعرف الحياة إلّا بعد عودتها.

- ربنا يتّمم بخير!

* * *

أتاه صوت الست فاطمة - بطة! عبر التليفون مُتهدّجاً بالبكاء:

- سي فؤاد؟ ضروري أشوفك. تعال على طول.
وردّ بقلق:
- ماذا حدث؟ هل الأستاذ بخير؟ هل الأولاد بخير؟
- تعال على طول.
في شقة الأستاذ استقبلت فؤاد مناحة كبرى. الست فاطمة - بطة! -
تنوح. والابن الأكبر محمد - ميمو! - ينوح. والابن الأصغر عارف - فوفو! -
ينوح. والشغالة تنوح.
قال فؤاد بحيرة:
- رأيت الأستاذ قبل يومين. وكان في صحة ممتازة. كيف توفي؟
وردّت بطة:
- ليته توفي!
- ماذا حدث إذن؟
أعطته الورقة. وقلّبها فؤاد. وقرأها عدّة مرات، قبل أن يتبيّن أنها ورقة
طلاق. هذه إذن هي «الورقة» الشهيرة، مجرد قسيمة رسمية مليئة
بالأختام.
وأجهشت بطة:
- تصوّر! المجرم! الشايب العايب! يتزوّج موظّف في الوزارة في سنّ
ابنته، ثم يطلقني! لم أصدّق في البداية. أخبروني انه كتب كتابه على
المفوعة، ولم أصدّق. أخبروني انه استأجر لها شقة في الزمالك، ولم
أصدّق. في الزمالك؟! من أين جاء بالمال؟ يسكنني أنا وأولاده في هذه
الشقة الصغيرة ويستأجر للمفوعة شقة في الزمالك! لم أصدّق. قلت انها
مجرد إشاعات. ثم بدأ يغيب. ويكذب. مأمورية في اسكندرية. مأمورية
في الاسماعيلية. والان تجيء الورقة. العجوز المفترى! يتركني بعد كل هذه
السنين.
طرح فؤاد القضية على سكّان شقة الحرية:
- هل بوسعنا التدخل؟ هل هناك جدوى من الحديث مع الأستاذ؟
على الفور ردّ قاسم:
- الأستاذ في الخامسة والخمسين! ماذا نقول له؟ كيف ننصحه؟

وعلق يعقوب:

- فتش عن فرويد. لا تحتاج المسألة الى عبقرية. لم يعد الأستاذ شريف يجد عند الزوجة القديمة الإشباع الجنسي فتزوج غيرها. هذا كل ما هنالك.

أجابه عبد الكريم بعنف:

- هذا كل ما هنالك؟! بعد كل هذه السنين؟! وماذا عن الأولاد؟

قال يعقوب ضاحكاً:

- أنتم المحامون! الأولاد سيحصلون على حقوقهم. أنصحكم بعدم التدخل. الجنس أقوى من كل النصائح في العالم.

تنهد فؤاد:

- لو فرضنا أننا كلمناه ماذا يمكن أن نقول له؟

وأجاب عبد الكريم:

- نطلب منه أن يعيدها الى عصمته.

ورّد يعقوب:

- يا ذكي! لو كان بنوي إعادتها لماذا طلقها؟

تساءل فؤاد:

- ماذا تفعل إذن؟

ختم يعقوب النقاش:

- لا شيء. لا شيء. تذكر أن الأستاذ هو الذي يُشرف عليك ولست أنت الذي تُشرف على الأستاذ.

جاء الأستاذ شريف في موعده المعتاد صباح الجمعة وبدأ، على الفور، الحديث مع فؤاد:

- كان المفروض أن أخبرك قبل أن تخبرك هي. لن أحاول أن أشرح. لن تفهم شيئاً من كلامي. أنت في العشرين، أمامك عمر كامل. أما أنا فأدنو من الستين. لم تبق لي غير سنوات معدودة. في مثل سني لا تتكرر الفرص. لن تفهم الآن يا فؤاد. ولكنك ستفهم عندما تصل الى الخمسين.

ردّ فؤاد ببرود:

- إذا وصلت الى الخمسين.

• • •

«ف.

هل أعتذر لك؟ أم تعتذر أنت لي؟ أم أن ما حدث كان قدراً لم يكن بوسعنا تجنبه؟ لا يهم هذا الآن. المهم أنني أحبك، كما لم أحبك من قبل، كما لم أحب إنساناً قبلك. كما لا يمكن أن أحب إنساناً بعدك. أرجو أن تصدقني هذه المرة. أرجو أن تمنحني فرصة جديدة، الفرصة الأخيرة.

«ل

لمح فؤاد بطرف عينه «البيوك» الحمراء الواقفة على الجانب الآخر من شارع الدرّي. أخرج الورقة الزرقاء من جيبه وزلقها غملاً صغيراً وأطلقها في النسيم. طارت القطع، وابتسم فؤاد وهو يرى قطعة منها تحط على نافذة «البيوك» الأمامية.

* * *

ينظر فؤاد الى ماجد بتوسّل:

- يا ماجد! أرجوك! دعني أذاكر الآن. هذا شهر غريب. البعض يتزوج، والبعض يطلق، والبعض يعود من المجهول. وأنت الآن تتحدّث عن مؤتمر. ألا يمكن تأجيل الموضوع؟

- المؤتمر في الشهر القادم. ولا بُدّ أن أرسل اسمك الآن. من الضروري جداً أن تحضر. تذكر ان هذه قد تكون فرصتك الأخيرة لحضور المؤتمر العام للحركة. من يدري ماذا سيحدث بعد سفرك؟ متى ستتاح لك فرصة أخرى؟

قرّر فؤاد أن يسمي هذا الشهر «شهر الفرص الأخيرة». ليلي تطلب منه فرصة أخيرة. والأستاذ شريف انتهز الفرصة الأخيرة. وفريدة عادت تأمل في فرصة أخيرة. وعبدالرؤوف اقتنص الفرصة الأخيرة. وها هي ذي فرصته الأخيرة لحضور المؤتمر العام لحركة القوميين العرب الذي سينعقد في بحمدون في الشهر القادم.

- لنفرض أنني لم أحضر. ماذا سيحدث؟

- لا بُدّ من حضورك. أمامك دور كبير في أمريكا ومن الضروري أن تعرّف على شخصيات الحركة القيادية. لا أذيع سراً إذا قلت أنهم يعلّقون عليك الآمال.

- عليّ أنا؟! منذ متى أصبحت زعيماً؟!

- لا تحتاج الحركة الى زعامات، تحتاج الى قيادات. في أمريكا، لا يزال الأعضاء مشتتين وغير منظمين. لديك الآن خبرة جيدة وبإمكانك أن تنظم الحركة هناك.

- ولكن ما علاقة هذا بحضور المؤتمر؟

- لا بُدَّ أن تتعرف على المسؤولين القطريين. لن تستطيع تنظيم الحركة هناك من غير احتكاك مباشر بهؤلاء المسؤولين.
- أمري لله. سوف أحضر.

٢٠

أغسطس ١٩٦١

أجاب دمعي... وما الداعي سوى طللٍ دعا فلجأه.. قبل الركب والإبل
المتنبي

يتمنى فؤاد، الآن، لو لم يذهب الى المؤتمر. صحيح أن التجربة كانت من أكثر تجارب حياته خصباً وإثارة. صحيح أنه قابل كل القادة وجهاً لوجه. صحيح أنه دخل في مناقشات عاصفة ومفيدة. صحيح أنه اطلع على كيفية تنظيم المؤتمرات القومية. إلا أنه، رغم هذا كله، خرج من مداولات المؤتمر التي استغرقت ثلاثة أيام وفي فمه، وفي قلبه، شيء من المرارة. اتضح له أن الفروق بين البعث والحركة أضال بكثير مما كان يتمنى. هذه الحركة حزب فيه كل ما في الأحزاب من صراعات، وأجنحة متناحرة، ومؤامرات صغيرة وكبيرة. والقيادة الجماعية التي تتباهى بها الحركة قد توجد في أذهان أتباعها ولكنها لا توجد في الواقع. في نهاية المطاف، يتخذ «الحكيم»، الدكتور جورج حبش، كل القرارات الرئيسية. الروح الديمقراطية التي تتغنى بها الحركة لا توجد؛ كل شيء بالتعيين. في كل مرة يعترض فيها عضو على قرار ما يقال له ان المبدأ هو «نقد ثم ناقش». ما فائدة المناقشة بعد التنفيذ؟!

وعبر أيام المؤتمر، كانت فكرة مزعجة تلح على ذهن فؤاد. هل هذه حركة فلسطينية تضم بعض العرب الآخرين؟ أم انها حركة عربية تضم بعض الفلسطينيين؟ رغم ايمانه بأهمية القضية الفلسطينية، لا يفهم فؤاد كيف تجيء الغالبية العظمى في حركة قومية من قطر واحد، حتى لو كان فلسطين. وماجد يرفض حتى بحث الموضوع، معتبراً إثارته «نزعة إقليمية».

كما تبين لفؤاد أن الحركة رغم اندفاعها الناصري الواضح لها أولوياتها التي ستصطدم، أجلاً أو عاجلاً، بأولويات جمال عبد الناصر. السلطة! فتش عن السلطة! إذا وصلت الحركة الى السلطة مع المد الناصري فيها ونعمت. وإلا فستقدم اعتبارات السلطة على الولاء الناصري. لم يقل أحد هذا الكلام صراحة ولكنه كان مختفياً في المداولات. «حركتنا تؤمن

بهذا»، «حركتنا تؤيد ذلك»، «حركتنا تدين». ماذا لو اختلفت حركتنا مع زعيمنا؟! سوف تكون الأولوية للحركة، كما كانت الأولوية للحزب عندما تناقضت أهداف البعث وأهداف جمال عبد الناصر.

ثم ان فؤاد كان مذهولاً لكثرة ما تردّد عن ماركس ولينين خلال المؤتمر. «طبقاً لتحليل ماركس». «من منظور لينين». «بمقاييس الاشتراكية العلمية». ماجد يزرّ الظاهرة بأن في الحركة أقلية صغيرة تستعير مفاهيمها من الفكر الماركسي، ويضيف أنها أقلية لا أهمية لها. ولكن كيف استطاعت الأقلية أن تفرض مصطلحاتها على كل المداولات؟

والاسلام؟! ماذا عن الاسلام؟! تتردّد التعابير الماركسية في كل جلسة، ولا يذكر الاسلام مرة واحدة. حاول فؤاد أن يربط القومية العربية بالاسلام، ولكن محاولاته قوبلت ببرود، وبهجوم عنيف في حالتين. «هذا ليس مؤتمر الاخوان المسلمين». ما قيمة الهجرة من البعث الى الحركة إذا كان ينتقل من سجن فكري الى سجن فكري آخر؟

قبل انفضاض المؤتمر بساعات أخبره ماجد أن «الحكيم» يريد أن يراء على انفراد. تمّ اللقاء في «غرفة العمليات»، غرفة الدكتور جورج حبش، في فندق «الرابية» حيث ينعقد المؤتمر.

وبدأ الدكتور جورج حبش:

- أخبرني ماجد انك على وشك السفر الى «أمريكا»، الى نيويورك بالذات.

- نعم. سوف أدرس القانون المقارن في جامعة نيويورك.

- أتمنى لك التوفيق. وأرجو أن تواصل هناك نشاطك. الحركة في حاجة دائمة الى دماء جديدة.

مدّ «الحكيم» يده الى جيبه وأخرج ورقة مليئة بالأسماء:

- هؤلاء هم أعضاء الحركة في الولايات المتحدة، الأسماء والعناوين. كما ترى لا يكاد عددهم يتجاوز المائة. وهم مبعثرون بين مختلف الولايات. حتى الآن لم ينعقد مؤتمر للحركة هناك.

توقف «الحكيم» ونظر الى فؤاد بإمعان.

- نحن نعتمد عليك في عقد المؤتمر الأول.

ثم أضاف:

- وسوف تكون المسؤول عن الحركة، بطبيعة الحال!

أخذ فؤاد الورقة ولم يقل شيئاً.

المسؤول عن الحركة في الولايات المتحدة؟ وماجد المسؤول عن الحركة في الجزيرة. السلطة! فتش عن السلطة! ماجد بدأ، بالفعل، يتصرف كما لو كان زعيماً. يتحدث، من دون أن يشعر، بصيغة الجمع: «في دولتنا»، في «برنامجنا»، في «تنظيمنا». شعر فؤاد بقلق عميق. لقد دخل الحركة ليسهم بكل قواه في دفع المدّ الناصري. واكتشف، الآن، ان الحركة مهتمة بمدها الخاص قدر اهتمامها بالمدّ الناصري. طوى فؤاد مخاوفه ولم يتكلم. وعاد الى البحرين وفي ذهنه أسئلة كثيرة حزينة.

* * *

كما توقع فؤاد، وافق أبوه، بعد تردد طويل، على سفره الى أمريكا. ولكن الأب لا يزال في حيرة:

- لماذا تريد أن تذهب الى هناك؟ ألم تحصل على الشهادة؟

كيف أشرح لك يا أبي الحبيب أن الشهادة لا علاقة لها بالمعرفة؟ كيف أوضح لك يا سيدي أنك لا تعرف البشر إلا إذا انغمست في غمارهم، ولا تعرف المدن إلا إذا تشردت في أزقتها، ولا تعرف الحضارات إلا إذا قذفت بروحك في أتونها؟ هل تصدق يا سيدي انني بعد خمس سنوات من الدراسة في القاهرة جئت بأسئلة أكثر من التي حملتها معي؟ وصلت الثانية والعشرين ولا أزال في حيرة من أمري أمام المعضلة الاقتصادية. ليس من العدل يا سيدي أن توزع خيرات المجتمع على أفراد قلائل وتبقى الأغلبية تحترف الجوع أو التسول أو السرقة أو البغاء. وليس من العدل يا أبي أن أنقل كل الاموال الى سيطرة أفراد في حزب. لا الرأسمالية هي الحل، ولا الشيوعية. ستقول لي، يا سيدي، كما قال لي عبد الرؤوف، ان الحل في الزكاة. وأنا أعرف يا أبي أنك تخرج زكاتك بأمانة. ولكن كم عدد الذين يخرجون زكواتهم من بين أصدقائك الأثرياء؟ تعرف الجواب يا أبي وأعرفه. ستقول لي يجب أن تؤخذ الزكاة بالقوة. ولكن من يثق في الحكومة التي ستأخذها بالقوة؟ وأين ستذهب بعد أخذها؟ هل تريد معضلة ثانية يا أبي الحبيب؟ عندما علمتني أن أذهب معك الى المسجد قبل السادسة، وعندما حرصت على أن أختم القرآن قبل العاشرة، لم تنذرني أنني سأواجه، ذات يوم، مشكلة التوفيق بين الاسلام والقومية العربية. كل

أهل البحرين عرب، وكل أهل البحرين مسلمون - فأين الإشكال؟
الإشكال يا سيدي أن أقلّيات غير إسلامية هي التي وضعت النظرية القومية
التي تنتشر في العالم العربي اليوم. صدّق أو لا تصدّق يا سيدي ولكن هذه
هي الحقيقة. كيف أشرح لك يا سيدي أنني ذاهب الى أميركا لأغوص في
أعماق المزيد من المعضلات؟

يزفر والده، ويغالب الدمعة:

- وخليل ذهب! ترك البيت وذهب! ترك المتجر وبدأ عملاً جديداً.
فرش الشقق وتأجيرها. أسألك بالله يا فؤاد هل هذا عمل يليق برجل؟
ولماذا ترك المنزل؟ لماذا سكن في شقة من شققه المفروشة؟

أواه يا أبي! أواه يا أبي الحبيب! الدنيا تتغيّر، تتغيّر بسرعة هائلة. وهذا
البيت الصغير المتداعي، في هذا الزرنوق من زرائق فريق الفاضل لم يعد
بالمكان الصالح لسكن رجل أعمال من الجيل الجديد. عمل خليل الآن
يتطلب إقامة «بارتي» بين الحين والحين، وكيف يمكن أن تقام «بارتي» في
هذا الزرنوق؟! أواه يا أبي! أواه يا أبي الحبيب! كيف يمكن أن أقول لك،
من غير أن أجرح مشاعرك، ان البحرين التي تعرفها وتحبّها لم تعد هنا؟!
الزوجة الآن تريد أن تعيش مع زوجها، بدون والد الزوج وبدون أمّه. وهذا
المطبخ الضيق المصبوغ بالفحم لم يعد صالحاً للاستعمال في عصر
«الأسستيك» والدجاج المثلج. ويا سيدي لم يبق في البحرين رجل له
امكانياتك يعيش من غير «ايركنديشن». لم يبق أحد يكتفي بالبانكه
والسطح. حتى صديقك القديم الشيخ سلمان الذي يكره
«الايركنديشنات» كما تكرهها وافق، مؤخراً، على دخول
«الايركنديشن» الى بيته. ألا ترى يا أبي الحبيب ما يدور حولك؟ ألا
تسمع؟ ألا تسمع طنين «الايركنديشنات» وأنت في طريقك الى المتجر؟ ألا
تسقط قطرات المياه المنسابة منها على رأسك؟ أواه يا أبي! أواه يا أبي
الحبيب! أنت، بوجهك الصبوح البشوش الأليف، لم تتغيّر. تصحو قبل
الفجر، وتصلّي في المسجد، وتمرّ لتناول فنجان القهوة مع «حجي حسن»،
وتعود الى البيت، وترتاح قليلاً، ثم تتناول الفطور، صحن الباجلا وقرص
دبل. وتذهب الى المتجر نفسه. ويزورك الأصدقاء أنفسهم. وتشرب البiale
نفسها. وتعود الى البيت للغداء عينه: العيش الشيلاني والسّمك. ثم تقيل.
وتصلّي العصر في طريقك الى المتجر. ويزورك «العم عبد الله»، وتذهبان
الى المسجد لصلاة المغرب. زني الطريق تمرّان على «حجي منصور»

لفنجان القهوة. ثم تعود الى البيت. وتناول العشاء المعهود: نخبج وقرص دبل. ثم تصلي العشاء، وتستمع الى إذاعة لندن. وتنام. لم يتغير برنامجك اليومي من ثلاثين سنة، وربما أكثر. ولم تتغير أنت. ولكن في هذه الأثناء يا سيدي جددت على البحرين أشياء كثيرة. بدأت النساء تمشي المواتر يا سيدي. بدأ السنة يتزوجون من الشيعة ولا يعترض أحد. في البحرين يا أبي الحبيب الآن خلايا بعثية، وخلايا قومية عربية، ولولا اعتقال يعقوب لجاءت خلايا شيوعية. فُتح مطعم جديد في المطار لم يجد مديره لطاولاته من مفارش سوى غتر الجتايل. وأصبح «الجيمخانة كلوب» يا أبي يسمح بدخول البحرينيين. ولم تعد سينما «بابكو» تشترط أن تكون عضواً لدخولها. ويا أبي ابنك خليل ينتقل من «جيرل فرند» الى «جيرل فرند». أواه يا أبي! أواه يا أبي الحبيب! كيف أشرح لك ان العالم الذي يحيط بك يخدعك عندما يزعم انه العالم القديم الذي تعرفه. يرتدي القناع المألوف عندما تمر به في الصباح، وعندما تمر به في المساء. بعد أن تستمع الى أخبار لندن وتنام يا سيدي يكشف العالم عن وجهه الجديد، عن وجهه الحقيقي. تصدح «الايروكنديشنات» بأعلى صوت. وتزدهر تجارة البيرة في منازل الهنود. ويجتمع شباب البحرين، في بنطلونات ضيقة، وقمصان مفتوحة عن الصدور، مع «الجيرل فرندز» في «البارتيز». وأنت يا أبي لا زلت سجين العالم القديم، سجين هذه المساند التي بدأت أنا، حتى أنا، أحجل من وجودها أمام أصدقائي، سجين هذه الشفرة التي أصبحت أنا، حتى أنا أجلس عليها بصعوبة. تتفتن البحرين في خداعك يا أبي وتخفي عنك أسرارها. هل تعرف يا أبي أن في مستشفى النعيم الآن أربعة أطباء بحرينيين؟ هل تعرف أن هناك قاعدة كبيرة بناها الانجليز في الهملة؟ وهل تعرف أن هذه القاعدة أنعشت الاقتصاد البحريني، وبصفة خاصة، التجار الناصريين؟ لا تعجب يا سيدي. نحن نهتف لجمال عبد الناصر في النهار، ونؤجر الشقق المفروشة لجنود الاستعمار في الليل. «بيزنس إز بيزنس»، كما قال قاسم. وأنت يا أبي الحبيب لا زلت تنام على السطح، وتصحو غريقاً في الطل والعرق. وأنت لم تذق «الأستيك». ولم تر المجوهرات الجديدة التي بدأت تصل من ايطاليا: خاتم على هيئة سمكة، وعقد مثل الحية، وساعة تكشف عن أجهزتها الداخلية. هذا خير لك يا أبي. خير لك أن تعيش في عالمك الذي تعرفه. وتترك البحرين لقدرها الذي تجهله. خير لك أن تبقى آمناً في هذا البيت الآمن المتداعي وتدع ابنك الأصغر لقدره

المجهول. من يدري يا أبي الحبيب ماذا سيحدث لابنك. قد يصبح زعيماً. وقد يصبح روائياً مشهوراً. وقد يعود ليؤجر الشقق المفروشة لجنود الاستعمار. من يدري ماذا سيحدث لابنك الذي ينتقل من حزب الى حزب، ولا يستقر؟ الذي يحب امرأة بعد امرأة ولا يسعد؟ خير لك يا أبي وسيتدي أن تفعل ما فعله والدة، أن تظل تعتبرني «فؤادوه»، التلميذ الذي ينتقل من مدرسة الى مدرسة أكبر ويظل تلميذاً صغيراً. خير لك يا أبي أن تبقى البحرين كما عرفتھا أيام شبابك، وأن يقي أولادك كما تركتهم أيام طفولتهم.

* * *

جاءت النتائج بلا مفاجآت تذكر. حصل كل من نشأت وفؤاد على تقدير «جيد جداً»، وحصل قاسم على تقدير «جيد»، وحصل عبد الرؤوف، كما توقع الجميع، على «ممتاز» مع «مرتبة الشرف الأولى». سوف يقي كل من عبد الكريم ويعقوب ترماً إضافياً لانتهااء من المواد الباقية. أكمل فؤاد وقاسم ترتيبات السفر وقتررا أن يزورا القاهرة زيارة وداعية في الطريق الى نيويورك.

۲۱

سپتمبر
اکتوبر ۱۹۶۱

فدينارك من ربع.. وإن زدتنا كربا
فإنك كنتَ الشرقَ للشمس والغربا
المتنبى

ما أبعد الليلة عن البارحة. نشأت، الذي أصبح الآن مفوضاً في مجلس الدولة يستقبل فؤاد وقاسم عند شلم الطائرة. ومدير المكتب رتب كل شيء. لم تستغرق الاجراءات سوى دقائق. وعند البوابة الخارجية كان يعقوب وعبد الكريم في الانتظار. ركب فؤاد مع نشأت وعبد الكريم في «البعكوكة»، وركب قاسم مع يعقوب في «سالم الخطر» وانطلق الموكب. طافت بذهن فؤاد ذكرى اليوم الذي وصل فيه الى القاهرة قبل أكثر من خمس سنوات، وضحك، والتفت نشأت مستغرباً، قال فؤاد:

- تذكرت أول يزم لي في القاهرة. كنت لحمة بمعنى الكلمة. لولا أن سخر الله لي شيئاً أنقذني ثم سخر لي الأسطى محجوب سائق التاكسي الذي يعتقد أن البحرين في الحجاز.

قال نشأت:

- لعله كان من البعثيين أو القوميين العرب. وبالمناسبة، ماجد يعتذر عن عدم الحضور. لديه وردية في المستشفى. أصبح الآن طبيب امتياز كما تترش.

التأم شمل الأصدقاء في صالون شقة الحرية، وبمجرد انتهاء زغاريد عيشة بدأ تبادل الأخبار. أكد يعقوب انه لم يلق أي مضايقة منذ عودته وانه يفكر في البقاء لمواصلة الدراسة العليا بعد حصوله على الليسانس. لاحظ فؤاد على وجه عبد الكريم لوناً وردياً لم يعهده من قبل، وعلامات سعادة طافحة وحاول أن يعرف السبب. إلا أن عبد الكريم اكتفى بالابتسام. كما لاحظ على مظهر نشأت شيئاً جديداً يصعب عليه تحديده. وتوالت الأسئلة. بغتة، التفت عبد الكريم الى نشأت:

ووافق الجميع.

على الطاولة القديمة نفسها بقرب النيل، استأنف نشأت الحوار:
- قصة غريبة. شبيهة بقصص الأفلام. كنت أعرف إيمان منذ كنا
طفلين، ثم افترقنا حين بلغت السادسة، وكنت وقتها في العاشرة. سافرت
مع خالي إلى الولايات المتحدة حيث عمل في السفارة المصرية هناك، ثم
رُشح للعمل في البنك الدولي. منذ افترقنا لم أر إيمان ولم ترني. حتى
التقينا هذا الصيف. أصبحت الطفلة فتاة ناضجة جميلة فيها كل
مواصفات الزوجة المثالية. من أول نظرة أحببتها، وأعتقد أنها أحببتني.
تطورت الأمور بسرعة البرق، وتمت الخطوبة، وسوف نتزوج في الصيف
القادم عندما تنهي إيمان دراستها الثانوية في واشنطن.

ابتسم قاسم ولم يقل شيئاً. وأدرك نشأت ما يدور في خاطره:

- خلاص! لا سويسريات ولا صعيديات! بطلنا خلاص.

علق يعقوب:

- طريق الطاعة طويل، كما يقول المطوّع في فريقنا.

التفت فؤاد إلى عبد الكريم:

- وماذا عنك؟ نريد أن نعرف أسرار الحب العائد.

ابتسم عبد الكريم:

- عوّضني القدر عن كل شيء وعوّضها. الحمد لله! الحمد لله! عانت
المسكينة أكثر مما عانيت أنا. تزوّجت ورحشاً في ثياب رجل. ما إن انتهى
شهر العسل حتى بدأ يعاملها كما لو كانت جارية عنده. يشتمها من دون
سبب، ويضربها لأتفه الأسباب، ويفرض أن يعطيها مصروفاً للبيت.
تحولت حياتها إلى جحيم لا يحتمل، وأصبح يضربها كل يوم. ثم لجأت
إلى أسرتها ورفعت عليه قضية وعندما استمع القاضي إلى التفاصيل حكم
بإنهاء الزواج.

سأله فؤاد:

- أليس هذا هو الخلع الذي درسناه في الشريعة؟

- هو بعينه. تمّ الطلاق بأمر المحكمة. واستعاد صاحبنا كلّ ما دفعه، المهر
والشبكة وكل شيء. حتى زجاجات العطر التي أهداها لفريدة في شهر

العسل أصّر على استردادها. واضطرت الى شراء زجاجات جديدة واعطائها له.

قال قاسم:

- كل هذا على العين والراس. ولكن كيف وافقت على أن ترجع إليها؟ عندما سافرنا كنت ترفض حتى الكلام معها.

نظر عبد الكريم الى نشأت الذي ضحك وأوضح:

- أنا المسؤول. أحضرتها معي الى شقة الحرية وفاجأنا كريم. ما إن رآها حتى نسي كل شيء وغفر لها كل شيء.

هز عبد الكريم رأسه موافقاً:

- عاد الحب كما كان بل أقوى مما كان. كأن شيئاً لم يحدث. وقرّرنا ألا نضيع الوقت هذه المرة. تزوجنا زواجاً عرفياً وشهد عليه نشأت ويعقوب. لن يفرّقنا شيء بعد اليوم.

لم يستطع قاسم مغالبة فضوله:

- وكيف تعيشان الآن؟

رد عبد الكريم:

- تعيش هي مع عائلتها مؤقتاً.

وصرخ يعقوب:

- تقضي ٩٩٪ من وقتها معنا في الشقة و ١٪ مع أهلها.

أضاف عبد الكريم:

- هذا ترتيب مؤقت حتى يتم الزواج الرسمي.

سأله قاسم:

- ومتى سيتم الزواج الرسمي؟

ردّ عبد الكريم:

لا أدري. الله أعلم. كلّ ما يهمني الآن هو انني أسعد إنسان في العالم وانها أسعد إنسانة.

بغته، قام قاسم من مقعده واحتضن عبد الكريم قائلاً:

- فات وقت النصائح. ألف مبروك يا كريم.

عانقه فؤاد، بدوره، وتساءل:

- ماذا عن الأولاد في المستقبل؟

وضحك عبد الكريم:

- شيعه، بطبيعة الحال. ماذا تتوقع من أحفاد الشيخ؟!

عاد فؤاد بعد منتصف الليل إلى غرفته، التي أصبحت الآن غرفته القديمة، واستعصى عليه النوم. فكر في شجاعة عبد الكريم التي لم يكن أحد يتوقعها. تزوج فريده. وانتهى الموضوع. من يعجبه يعجبه ومن لا يعجبه في ستين داهية. هذا، بكل تأكيد، موقف وجودي وبطولي. ثم انتقلت أفكاره إلى نشأت. قرار نشأت، هو الآخر، قرار شجاع، شجاع إلى درجة الجنون. أن يتخلى عن حياته الحافلة ويربط مصيره بمصير فتاة لم يرها منذ كانت طفلة. أن يترك عالمه المصطخب بالمغامرات والعلاقات ويقنع بالعيش بقية حياته مع مراهقة، لم تكمل بعد دراستها الثانوية. ويعقوب؟ أدرك فؤاد من الساعات التي قضاها في حوار لا ينقطع مع يعقوب أنه تجاوز محنة الاعتقال ومحنة الطرد وعاد أقوى مما كان عليه. لدى فؤاد ظن كاليقين أن يعقوب لن يتزحزح عن مبادئه الماركسية حتى الموت.

يا الله! وماذا عنك أنت يا فؤاد؟ هل أصبحت الجبان الوحيد في السيلة؟ قاسم قرّر منذ سنين وبلا أدنى تردد أنه سيعمل من أجل هدفين اثنين: البيزات والبنيات. حزم أمره، واتخذ قراره، ومضى في طريقه. وماجد أصبح من القياديين البارزين في حركة القوميين العرب. وماذا عنك أنت يا فؤاد؟ فشلت في الحب، وفشلت في السياسة. شلل في القلب والعقل. لا أنت بالبعشي ولا بالقومي العربي. لا أنت بالرأسمالي ولا بالاشتراكي. مجرد ناصري أمّعه. من صنع الأجهزة على الأغلب. وماذا ستفعل عند وصولك إلى أمريكا؟ هل ستعمل على عقد المؤتمر الأول لحركة القوميين العرب هناك؟ أم ستنهك في كتابة قصّة بطلتها فتاة أميركية (شعراء وخضراء العينين)؟

* * *

«قضى خَلَف الليلة كُلّها من دون أن تغمض له عين. غداً سوف يدخل الفصل، يدخله مدرّساً لأول مرّة في حياته. جاء الانتقال من طالب في الجامعة إلى مدرّس في الثانوية بلا تحضير ولا استعداد. بمجرد أن اطلع مدير

تفرّق الأصدقاء في الدراسة كما تفرّقوا في السكن. ذهب عبدالكريم ويعقوب الى المدرسة الخديويّة، التي كانت تلقّب مدرسة المشاغبين، بينما التحق فؤاد وقاسم بالمدرسة السعيدية. تلقّى فؤاد شرحاً مُسهلاً عن السعيدية من الأستاذ شريف الذي أكّد له انها أعرق مدرسة في القطر المصري. أوضح الأستاذ ان معظم الوزراء في العهد الملكي درسوا في السعيدية، ومنها انتقلوا الى كلية الحقوق التي لا تبعد عنها إلا بأمّtar قليلة، ثم تخرجوا وأصبحوا محامين فوزراء. وناظر السعيدية، عبد العزيز بيه شكري، صديق حميم للأستاذ شريف الذي أوصاه بفؤاد خيراً. وليته لم يفعل.

ذات صباح، في حصّة التاريخ، مادة فؤاد المفضّلة طرق أحد السعاة باب الفصل وصرخ بصوت جهوري:
- البيه الناظر طالب فؤاد الطارف.

ساد الفصل وجوم عميق. واتسعت حدقتا المدرّس دهشة. يبدو ان «البيه الناظر» لم يسبق له أن طلب رؤية تلميذ من قبل. قال المدرّس:
- قوم يا فؤاد. ربّنا معاك.

تسارعت نبضات قلب فؤاد. ربنا معاك؟ ترى ما هو الذنب الذي جعل «البيه الناظر» يستدعيه؟

تبع الساعي مهرولاً، وبتردّد سألته:

- عارف طالبني ليه؟

وردّ الساعي باختصار شديد:

- لا.

مدرسة الاهرام الخاصة للبنين على ليسانس اللغة العربية الذي حصل عليه بتقدير «ممتاز» عيّنه في المدرسة. وغداً موعده مع طلبته. وأي طلبية؟ فصل التوجيهية! قضى خلف ليلته يتصور نفسه أمام فصل ممتلىء بالأوغاد. طلاب المدارس الخاصة، عادة، من الفاشلين في المدارس الحكومية وسوف يكون بينهم عدد لا يستهان به من المشاغبين. كيف سيتصرف في حصته الأولى؟ يدرك خلف من تجربته الطويلة مع الدراسة ان الانطباع الأول هو الانطباع الأبقى. عندما يستشف الطلبة ضعفاً من المدرّس خلال الحصّة الأولى يستغلون هذا الضعف وتصبح لهم الكلمة العليا ويستحيل على المدرّس، فيما بعد، أن يغيّر الوضع. وعلى العكس، عندما يتمكن المدرّس من فرض احترامه على الطلبة خلال المواجهة الأولى، يظلّ الاحترام قائماً بقيّة السنة. والعمل؟! الحزم! لا بُدّ من الحزم! الحزم بأيّ ثمن! لو سمح غداً لأي طالب بأن يضحك أو يسخر أو يعلّق فسوف يفلت زمام الفصل من يده. ولكن المشكلة الكبرى هي سنّ الطلبة. ماذا سيفعل بطالب في طوله، أو أطول منه؟ لا يمكن صفعه ولا شتمه. ولكن الحزم مطلوب على أية حال. الطرد من الفصل، وهذا أضعف الايمان.

جاء الصباح، واستجمع خلف شجاعته، ودخل الفصل عابس الوجه، متجهّم الأسارير. فتح كتاب البلاغة وأمر طلبته بفتح كتبهم. سمع صوتاً في آخر الفصل يتمتم بكلمات غير مفهومة. التفت الى مصدر الصوت فرأى طالباً ضخماً ترتسم على وجهه علامات غباء عنيد. وسأله:

- ايه؟ فيه ايه؟

ورّد الطالب الضخم:

- ما عنديش كتاب.

سأله خلف بحدّة:

- ليه؟

ردّ العملاق الأبله بيرود:

- أصلي لسه ما كتبتش كتابي.

وضجّ الفصل بالضحك. وأحسّ خلف بغضب جامح أخرجه عن طوره:

- برّه! اطلع برّه! للبيه الناظر طوالي!

مشى الطالب بسرور واضح الى الباب، وقبل أن يغادر الفصل التفت الى خلف وسأله بوقاحة:

- تعوز سيادتك حاجة من بابا؟!

وضجَّ الفصل بالضحك مرة أخرى. احمرَّ وجه خلف وسأل:

- ايه الحكاية؟

وردَّ عليه طالب يجلس في الصف الأول:

- أصله ابن البيه الناظر يا أفندم».

* * *

قهقهه فؤاد من الأعماق:

- هل بدأت التدريس؟

وردَّ عبد الرؤوف:

- نعم. في الأسبوع الماضي أعطيت أول محاضرة في السكشن. المعيدون لا يدرسون إلا في السكشن كما تعرف.

- ووجدت ابن البيه العميد في الفصل؟!

- لا! كانت القصة تعبيراً عن مخاوفي من تجربة التدريس. إلا أنَّ المخاوف لم تكن في محلّها. وجدت الطلبة مُهذّنين ومتجاوبين. لا أتوقع أيّ مشكلة.

- وماذا عن صفاء؟

- وافق أبوها مؤخراً.

- ألف مبروك. وكتب الكتاب؟

- سوف نُؤجّله بعض الوقت.

- لم التأخير؟

ردَّ عبد الرؤوف بحرج:

- المهر، والذي منه!

* * *

قدّم فؤاد للأستاذ شريف ساعة، ماركة «رولكس»، وقدّم للزوجة الجديدة خاتماً ذهبياً تزينه لؤلؤتان كبيرتان، وهو يهمس بخجل:

- من الوالد. هدية بسيطة.

شكره الأستاذ بحرارة. وتأمل فؤاد، مذهولاً، التغيير الذي طرأ على مظهره. اختفى الشعر الأبيض نهائياً. صُبغت الشعرات البيض أو استؤصلت. وزالت الصرامة المعهودة من الملامح. ونقص وزنه بشكل ملحوظ. وتأمل مصدر التغييرات: الزوجة الجديدة التي تبدو عليها بوادر الحمل.

قال له الأستاذ:

- رفعت رأسنا يا فؤاد. من العشر الأوائل! هذه هي البداية. أتوقع لك مستقبلاً مرموقاً. سوف تصبح وزيراً.

ضحك فؤاد:

- في البحرين لا يوجد وزراء يا أستاذ. لا يوجد سوى رؤساء دوائر. هل نسيت؟!

ورد الأستاذ:

- اذن سوف تكون رئيس دائرة.

وقالت الزوجة:

- بلا دايرة، بلا قاعدة. افتح مكتب واكسب. باغته الأستاذ شريف:

- هل تعرف أن بطاقة تنوي الزواج؟

صمت فؤاد، واستطرد الأستاذ:

- تصوّر! امرأة في سنّها! كركوبة! تتزوج من جديد، وتترك أولادها.

قال فؤاد:

- ربنا يوفق الجميع.

وردّت الزوجة بحرارة:

- آمين يا رب!

* * *

نُبّض الشيخ محمد أبو زهرة من مقعده وعانق فؤاد:

- مبروك يا فؤاد يا ابني. «جيد جداً» و«ممتاز» في الشريعة. ربنا يفتح عليك.

- شكراً يا فضيلة الشيخ.

- وازي البحرين؟

وبادر فؤاد:

- مش بقوا ثلاثة يا فضيلة الشيخ؟

ضحك الشيخ طريلاً، ثم قال:

- سمعت انك ذاهب الى أمريكا. احذر من دسائس المجرم شاخت.

لم يفهم فؤاد المقصود. شاخت الوحيد الذي سمع عنه كان وزير اقتصاد هتلر. ولاحظ الشيخ حيرته، واستطرد:

- شاخت مستشرق ابن كلب شكك في السنة النبوية. قضى حياته كلها يدرس السنة النبوية بهدف واحد وهو التشكيك فيها. قضى سنين طويلة في مصر. يزعم ان كل أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام موضوعة. كلها!

- ألم يردّ عليه أحد؟

- ردّ عليه الكثيرون، وأنا منهم. ولكني لا أعرف لغة أجنبية. هذه مهمتك الآن يا فؤاد. عليك أن تشرح لهم الاسلام هناك، باللغة التي يفهمونها، وبالمنطق الذي يقبلونه.

- سأحاول جهدي يا فضيلة الشيخ.

- هناك شبهات عديدة يثيرها أعداء الاسلام، ولكنها شبهات واهية كخيوط العنكبوت. سوف يثيرون موضوع الرقيق. قل لهم ان الرقيق ظاهرة تاريخية وجدت وانتهت. وخلال وجودها تعاملت معها كل الأديان، اليهودية والمسيحية قبل الاسلام، وجاء الاسلام أكثرها عدالة. سوف يثيرون قضية تعدد الزوجات. قل لهم ان تعدد الزوجات أفضل من تعدد الشقيقات. احصائياتهم تؤكد أن لكل انسان في الغرب، بالإضافة الى زوجته، عشيقة أو أكثر. لا تحاول الاعتذار عن شيء في الشريعة. شريعتنا، بفضل الله، كاملة ولا يوجد فيها ما نعتذر عنه. لا اعتذاراً! فهمت؟

- فهمت يا فضيلة الشيخ.

- وسوف يثيرون موضوع العقوبات البدنية. في الغرب عندهم هوس العقوبات البدنية. لا تعتذر. قل لهم نعم، يوجد في الشريعة جلد وقطع.

قل لهم ان قطع يد واحدة خير من اختلال الأمن في ألف منزل. قل لهم
ان جلد شخص واحد خير من دخول الرعب في قلب ألف امرأة.

- سأبذل جهدي يا شيخ محمد.

- ربنا يفتح عليك يا ابني.

* * *

دعا الشيخ رضوان فؤاد وعبد الرؤوف الى شقته بعد صلاة الجمعة،
وقال وهو يقدم الشاي:

- مبروك يا فؤاد. سمعت من رؤوف انك تخرجت بتقدير هایل
وستذهب الى أمريكا.

- شكراً يا شيخ رضوان.

- لا تترك الدراسة تستأثر بكل وقتك. خصص جزءاً من وقتك للدعوة
الى دين الله.

شعر فؤاد بحمرة ساخنة تلهب وجهه وقال:

- أنا يا شيخ رضوان؟! لقد ارتكبت من المعاصي ما لو سمعته..

وقاطعه الشيخ:

- لا يا ابني. قال عليه الصلاة والسلام «كل أمتي معافاة إلا المجاهرون،
وان من الاجهار أن يعمل العبد بالليل عملاً، ثم يصبح قد ستره ربه عز
وجل فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا». لا تكشف ستر الله
عنك يا ابني.

تمتم فؤاد بصوت منخفض:

- لو عرفت يا شيخ...

وقاطعه الشيخ مرة أخرى:

- للشباب زلاته ولكن باب التوبة مفتوح. أتوسم فيك الخير. لم تفتك
جمعة واحدة طيلة السنين الماضية. لا أزكي على الله أحداً، وأدعو لك
ولنفسى بالهداية.

عندما خرجا التفت فؤاد الى عبد الرؤوف:

- الشيخ أبو زهرة يطلب إليّ شرح الاسلام في أمريكا. والشيخ رضوان
يريد أن أخصص بعض وقتي هناك للدعوة. ما القصة؟!

- مغشوشين فيك!
- والدكتور جورج حبش يطلب إلي أن أكون المسؤول عن حركة القوميين العرب هناك.
- مغشوش فيك برضه!
- وانت؟ ما رأيك؟
- رأيي انك لن تستمع لا إلى الشيخ أبو زهرة ولا إلى الدكتور حبش. سوف تركز على أدبك وسوف تكون روائياً مرموقاً.
- مغشوش فيني!

* * *

- عرض نشأت على قاسم أن يدفع له نصيبه من رأسمال المكتب نقداً، ورفض قاسم:
- اتركه عندك تحت تصرف يعقوب. لا يدري أحد ماذا سيحدث له. تركت السيارة عنده وطلبت إليه أن يتفاهم معك بشأنها قبل سفره.
- ردّ نشأت:
- لا تقلق على يعقوب. ولا على كريم. سوف أرتب لكريم عملاً في المكتب بمجرد تخرجه. لا أظن انه يستطيع العودة الى البحرين في هذه الظروف.
- ولكن كيف يستطيع أن يعمل هنا؟ أليس هذا ضد القانون؟ ضحك نشأت:
- هل نسيت؟ في مجلس الدولة أعظم العقول القانونية في مصر. ومكاملة واحدة حتّى من موظف صغير مثلي تفعل المعجزات.
- لا أعرف كيف أشكرك يا نشأت.
- عيب يا قاسم! هل بيننا شكر؟
- لماذا اخترت للمكتب هذا الاسم الغريب، مكتب «الانتصارات»؟
- الذي لا يعرف يتصوّر انها إشارة الى انتصارات جمال عبد الناصر.
- والذي يعرف؟
- افهمها انت بقى!

* * *

صحا فؤاد على صوت قرع مزعج. فتح الباب ليجد عبد الكريم أمامه وفي يده «الأهرام»:

- خير يا كريم؟ كم الساعة؟

- تسعة ونصف.

- لا توجد لدي محاضرات. لماذا أيقظتني؟

أشار عبد الكريم الى الاعلان الضخم الذي احتل ربع الصفحة. وبدأ فؤاد يقرأ عن الحفل الغنائي الكبير الذي سيقام هذا المساء في «الأوبرا» لصالح نقابة الفنانين وتشارك فيه مجموعة من أشهر المطربين والمطربات. ثم لمع الاسم أمامه: شاهيناز شاكر! وكاد قلبه يتوقف عن الخفقان:

- هل من وسيلة للحصول على تذكرة؟

- صح النوم! حجزت مقعدين لك ولي، وفي الصف الأول.

- كيف تمكنت من هذا؟ وبهذه السرعة؟

- البركة في «مكتب الانتصارات للخدمات السريعة»!

توالى فقرات الحفل، وفؤاد يتململ في برائن الانتظار، عاجزاً عن متابعة شيء منها، لا يكاد يسمع كلمة من تعليقات عبد الكريم التي لم تنقطع. جاءت الأغنية بعد الأغنية، والمغني بعد المغنية، وهو في واد بعيد. ثم أعلن مقدم البرامج عن «الموهبة الغنائية اللامعة شاهيناز شاكر». وخُيِّل الى فؤاد أن قلبه كف عن العمل، ضربتين أو ثلاث ضربات، ثم استأنف عمله بلا انتظام. تحول وجوده كله الى عينين تنصبان على المسرح انصباباً. فُتِحَت الستارة، ووقعت عيناه على الحورية في ثوب وردي طويل، وشعرها الأشقر منطلق في كل اتجاه، وكل ما فيها يلمع، ابتسامتها، عيناها، ثوبها، والجواهر. وصفق الجمهور، وانحنى. ثم بدأت الفرقة العزف وصفق الجمهور مرة ثانية، وانحنى مرة أخرى. ثم وقفت عيناها عنده، فترة لا يدري فؤاد كم طالت. اعتنقت عيونهما، واتسعت الابتسامة، وانحنى انحناء صغيرة له، لا للجمهور. ثم عادت أعقابها وتحدثت مع قائد الفرقة. وصمتت الموسيقى، ثم بدأت الفرقة في عزف لحن جديد. وصفق الجمهور للمرة الثالثة. وجاء الصوت من مكان سحيق سحيق، من أعماق الزمان:

قلبك راح فين؟ أنا مش لاقيا؟

ولا شفت يومين في الحب معاه

وتكررت «راح»، مرتين، خمس مرّات، عشر مرات، ونبرة مختلفة في كل مرّة، وجن الجمهور تصفيقاً. وأحسّ فؤاد بقبضة حديدية من الشجن تعصر روحه، تذكره بما كان وتجعله يحلم بما لم يكن.

رجعاً، وعاد الى غرفته، ودخل عبد الكريم وراءه:

- خير؟ ما هذه المأساة المرسومة على وجهك؟ المفروض أن تفرح. لقد تذكرتك وضحكت لك وغنت لك أغنيتك المفضلة. ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ردّ فؤاد ببطء شديد وكأنّه مرغم على الحديث:

- هل أبصرت مجوهراتها؟ هل أبصرت عقد الماس على رقبتها؟ وخواتم الماس في أصابعها؟ واسواراة الماس في معصمها؟ هل تعرف ثمن هذا كله؟
- والذي ليس تاجر مجوهرات. والذي شيخ دين. لا هو يفهم في المجوهرات ولا أنا. ثم اني لا أدري ما هي المشكلة. كل الفنانات يلبسن مجوهرات.

- كنت أخشى عليها مغبة جمالها. وقد كان الذي خفت أن يكون.
- ماذا كان؟!

- إذا كنت لا تدري فتلك مصيبة.

- لا أدري. وقد أخذت نصيبي من المصائب. تصبح على خير.

* * *

صرخ فؤاد في وجه ماجد بأعلى صوته:

- لماذا لا يتحرك؟ ماذا ينتظر؟ هذا الصنم!

وصرخ ماجد منفعلًا:

- لا تتحدّث عن جمال عبد الناصر بهذه الطريقة. هل جنت؟!

- لم أجنّ أنا. هل جُنّ هو؟ لو كان الانقلاب في الاسكندرية هل كان سيكتفي بالفرجة كما يفعل الآن؟

- لم يكتف بالفرجة. أرسل قوة من المظليين وقطعاً من البحرية.

- ثم أمر بعودتها! لماذا أمر بعودتها؟

- هل تريد قيام حرب بين مصر وسوريا؟

- أريد القضاء على الانفصال. ليس من حق أحد أن يحطّم دولة الوحدة.

- لا يمكن أن تتم الوحدة بالعنف. أليس هذا ما كُنّا نقوله دائماً؟
- لم تقم الوحدة بالعنف. الانفصال هو الذي تمّ بالعنف. لماذا لا يردّ جمال عبد الناصر على القوّة بالقوّة؟ لماذا لا يتحرّك؟ هذا الجبان!
- قلت لك لا تتكلّم عن جمال عبد الناصر بهذه الطريقة والا اضطررت...

قاطعهُ فؤاد:

- اضطررت الى ماذا؟ الى ضربتي؟ أم ستكتفي بشتمي؟ أم ستفصلني من الحركة؟ أنت تعرف أنني أحب جمال عبد الناصر أكثر منك ألف مرّة، ولكنني لا أفهم موقفه الآن. لقد قضى على الوحدة. قتلها!
- جمال عبد الناصر قتل الوحدة؟!

- نعم. عندما سمع لحفنة من الضباط بوأد أعظم إنجاز في تاريخ العرب الحديث.

- لو كان الموضوع يتعلق بحفنة من الضباط الحُسم في دقائق. هناك مؤامرة دولية على الوحدة، مؤامرة دبرها الاستعمار وساهمت فيها الصهيونية والرجعية وكل العناصر الاقليمية العربية.

- اسمح لي يا ماجد! اسمح لي! الذي أراه بعيني عساكر في دبابات خرجت من ثكناتها، واعتقلت المشير العبقري، واحتلت الاذاعة. لو ضربهم جمال عبد الناصر لانتهى الأمر.

- لا أدري ما حلّ بعقلك يا فؤاد. هل تريد اشعال أحقاد بين الشعب العربي في مصر والشعب العربي في سوريا؟ هل تريد حرباً أهليّة؟
- حرب أهلية مؤقتة خير من انفصال دائم. معركة صغيرة أفضل من موت الوحدة.

- موت الوحدة؟ من قال ان الوحدة ماتت؟ سوف يسقط الانفصال خلال أسابيع. حركتنا سوف تقاوم بضراوة.

- حركتنا، أقصد حركتكم، لا تملك الدبابات ولا الطائرات. حركتكم لا تملك سوى الشعارات والمنشورات. لا يفلّ الحديد إلا الحديد.

- لو كنت أنت محلّ جمال عبد الناصر ماذا كنت ستفعل؟

- كنت أرسل الطائرات لذلك القيادة والإذاعة وكل معاقل الانفصال.
 - هل تعتقد ان هذا كله سوف يتم من غير مقاومة؟
 - سبق أن سألتك ماذا سيكون رد فعل جمال عبد الناصر لو حدث التمرد في الاسكندرية؟ ألم يكن سيقمعه بالقوة؟
 - الوضع يختلف تماماً. في هذه الحالة سوف يكون القتال بين مصريين ومصريين.

- لا أقبل هذا المنطق. هذا هو التفكير الاقليمي بعينه. من الناحية الدستورية، هناك دولة واحدة ومن حق رئيس الدولة الدستوري، لا بل من واجبه، أن يقضي على أي تمرد غير شرعي سواء تم في هذا الاقليم أو ذاك.
 - أنت تتحدث بعقلية طالب الحقوق. الموضوع لا يتعلق بأشكال دستورية. الموضوع يتعلق بمستقبل الأمة العربية. أي مجزرة اليوم ستعرق عودة الوحدة غدا.

- لقد تمت المجزرة وانتهت. قُتلت الوحدة ودُفنت. لن تقوم للوحدة قائمة بعد اليوم. أثبت ضباط لا قيمة لهم أن بوسعهم تحدي جمال عبد الناصر وأظهروا عجزه. سوف يدوي الصدى في جميع أنحاء الأمة العربية. انتهى هذا الأسبوع عهد الوندوين وبدأ عهد الانفصاليين، في كل مكان.

- فؤاد! لا بُدّ انك جننت! ما هذا الكلام؟ ما هذه الروح اليائسة؟ هذه نكسة مؤقتة. سوف تعود الوحدة خلال أسابيع قليلة. أنا على استعداد لمراهنتك.

- ولا خلال شهور. ولا خلال سنين. ذهبت الوحدة الى الأبد.
 - أنت منفعل لا تدري ماذا تقول.
 - أنا منفعل ولكني أدري ما أقول. أقول ان ثلاثين دبابة هزمت جمال عبد الناصر، أظهرته بمظهر القزم الضعيف أمام الجماهير التي عشقته عملاقاً قوياً.

- لا تتكلم عن جمال عبد الناصر...

قاطع فؤاد:

- آسف! آسف! عاش جمال عبد الناصر!

ملاحع جمال عبد الناصر الحزينة تطل من التلفزيون الذي دخل شقة

بعد دقائق وصلا الى غرفة صغيرة، وأشار الساعي الى الباب:

- تفضل هنا عند الأفندي السكرتير.

دخل فؤاد وألقى السلام بأدب شديد على «الأفندي السكرتير» الذي ردّ عليه بضيق لم يحاول إخفاءه. ثم طلب منه الجلوس حتى ينتهي «البيه الناظر» من مكالمه تليفونية. وطال الإنتظار. وازداد قلق فؤاد. وبغته، سمع صوت جرس. وأشار السكرتير الى باب في آخر المكتب:

- اتفضل. «البيه الناظر» مستنك.

كان أول ما لفت نظر فؤاد حجم الغرفة الهائل. لم ير مكتباً بهذه الضخامة من قبل. عبدالعزيز بيه شكري رجل نحيل، أشيب الرأس، لا يكاد يبدو في الكرسي الكبير، أمامه على الطاولة اهرامات من الورق.

- أهلاً وسهلاً يا ابني. أهلاً وسهلاً.

قام «البيه الناظر» يصافحه. ودهش فؤاد فقد تعلّم من تجربته القصيرة أنّ أحداً من العاملين في المدرسة لا يقوم ليصافح طالباً. ومضى الناظر:

- شريف بيه وصاني عليك. إذا عُزت حاجة تبقى تفوت عليّ. أهلاً وسهلاً.

كان من الواضح أن المقابلة قد انتهت. وتمتم فؤاد قبل أن يخرج:

- شكراً. شكراً يا أستاذ.

عاد أدراجه الى الفصل. كانت حصّة التاريخ قد انتهت وبدأت حصّة المدرّس الذي تربطه بفؤاد كراهية عميقة متبادلة، الأستاذ يسري مدرّس اللغة الإنجليزية. طرق الباب. وعلى الفور أجابه الأستاذ يسري:

- وحضرتك متأخر ليه؟ همّ البهوات. في البحرين يجوا الحصص متأخرين؟

وبسرور داخلي عميق ردّ فؤاد:

- كنت عند «البيه الناظر».

رمقه الأستاذ يسري بنظرة كان من الواضح انها تنهمم بالجنون أو الكذب. إلا أن الطلاب، بصوت واحد، أكدوا صحة الخبر. وسمح له الأستاذ، على مضض، بالدخول.

الحرية خلال الصيف. وتعلن النبرات الحزينة انه لن يقف في وجه الاعتراف بسوريا. وتعلن انه لن يسمح للسلاح العربي بسفك الدم العربي. ويعلن ان الجمهورية العربية المتحدة سوف تبقى محتفظة باسمها وعلمها. ثم تختفي الملامح الحزينة. ويعزف السلام الجمهوري. وينطلق من الشاشة الصغيرة صوت نجاة الصغيرة تشدو بأبيات كامل الشناوي:

سمعته كما أحب	دائماً أن أسمع
يحملني بصوته	الى الذرى المرتفعة
رأيت يقاتل الأعداء	وسط المعركة
فناهم... ولم ينالوا	منه حتى اصبعه
حبيبنا قائدنا!	زعيمنا! ما أروع
وما أعز موقعه	الله والشعب معه

يقفل فؤاد جهاز التلفزيون وهو يدمدم:

- حتى اصبعه!! كلمات! كلمات!

* * *

لماذا عاد الى القاهرة؟ كانت الزيارة مأساة من بدايتها الى نهايتها. ترك القاهرة، في الصيف، وهو أحد أبنائها وعاد اليها، في الخريف، زائراً. فرق شاسع بين صاحب البيت والضيف مهما كانت حرارة الحفاوة. لم يتغير شيء في الظاهر؛ وتغير كل شيء في الحقيقة. تغير النمط اليومي. لم يعد طالباً يجب أن يصحو مبكراً ليحضر المحاضرات. عيشة تسميه الآن «الأستاذ فؤاد» بدلاً من «سي فؤاد» القديمة، الأليفة. العم زكريا البواب يحثيه بقدر مبالغ فيه من الاحترام. والكلية، بدورها، لم تتغير من الخارج، ولكنها تبدلت تماماً من الداخل. الشيخ أبو زهرة لا يتكلم معه كما يتكلم مع الطلاب. والجرسونات يعاملونه كما يعاملون أعضاء هيئة التدريس. شعر وهو يتجول في ردهات الكلية كما لو كان جاسوساً أرسل من جهة معادية لمراقبة الطلاب والطالبات. لم يعد يربطه بالكلية شيء سوى الذكريات. لا الملازم ولا المحاضرات ولا الامتحانات ولا قصص الهوى الذي «كان صرحاً من خيال.. فهوى». جاسوس؟! لا! مجرد سائح. سائح يتفقد الآثار. هنا، في هذا المدرج كان يجلس مع سعاد. هناك، في ذلك البوفيه، كانت الشلة تجتمع يومياً. مجرد ذكريات. ما الفرق بين التاريخ القديم والتاريخ الحديث؟ ما الفرق بين الأهرام والكلية؟ الماضي هو الماضي والحاضر هو الحاضر.

والشَّلَّة! كيف تغيَّرت الشَّلَّة؟! نشأت أصبح مخلوقاً جديداً يدور في فلك صبيّة مراهقة اسمها إيمان. اختزل وجوده كله في خطوبة. يا للمأساة! هل يمسحنا الزواج ويلغي كل ما هو مثير وثائر وشائق في شخصياتنا؟ وعبد الكريم؟! تحطمت الوحدة وهو يقهقه كالحشاشين: «تكفي وحدتي مع فريدة!» أهذه نهاية الحب؟ أن تصبح الحبيبة أغلى من الوطن؟ وعبدالرؤوف؟! عبد الرؤوف أصبح «البه المعيد»، وابتدأ يرتدي الكرافتة، ويحاضر وهو يتحدث. وماجد؟! ماجد تحوّل الى كائن حزبي، أقصد حركي، فقد القدرة حتى على الانفعال. لو قالت الحركة: «اضربوا الانفصال»، لصرخ ماجد «اضربوا الانفصال». لو قالت الحركة: «لا يجوز استخدام القوة» لخرج في الشارع يهتف في مظاهرة: «لا يجوز استخدام القوة». تحوّل الى أيديولوجية بشرية تنازلت عن حقّها في التفكير والانتقاد والاحتجاج. ويعقوب؟! يعقوب لا يخفي شماته بمصرع الوحدة. بورجوازيون مستغلون تمردوا على بورجوازيين مستغلين. حصى يكسر بعضه. تغيّر الجميع، إلا قاسم. صخرة من الثبات في عالم من القلاقل. «البيزات» و«البنيات». والملوك ملوك والبوسطجية بوسطجية. والأغنياء أغنياء والفقراء فقراء. والجميع يلهثون خلف «البيزات» و«البنيات». عالم قاسم شكل هندسي جميل. كل ما فيه منضبط ومتناسق ويعمل حسب قوانين حديدية لا تتغير أبداً.

وماذا عنك أنت؟ سي فؤاد سابقاً، الأستاذ فؤاد المحامي حالياً. ألم تتغيّر بدورك؟ ألم تشتم جمال عبد الناصر؟ ألم تصفه بالصنم والجبان؟ أوه! جمال عبد الناصر! الذي كدت تفصل من المدرسة الثانوية بسببه. الذي دخلت حركة القوميين العرب من أجله، وكرهتها من أجله. الذي كتبت عنه المقالات، وألقيت الخطب، ودبّجت المناشير. يعلن الآن ان السلاح العربي لا يمكن أن يسفك الدم العربي. اشمعني يا رئيس؟! يا فاتح باب الحرية! أو كما كان يقول زملاؤه الحثاء في الكلية: يا فاتح باب الشعرية! ألم يسفك السلاح العربي الدم العربي في بغداد والموصل وبيروت وعمّان؟ ألم يطلب صوت العرب، كل ليلة، سفك دم العملاء والخونة والرجعيين من العرب؟ اشمعني الآن؟! تتخلى عن الجماهير السورية. وعن الوحدة. وعنّي! أنا الشاب الناصري. الإمعة. الذي

قبلك على جبينك ورأى جرح الحلاقة في ذقنك. الذي صفق لك وأنت تبتسم في السيارة المفتوحة والطائرات تقصف القاهرة. والآن تتراجع. تترك الوحدة لمصيرها. وتكتفي بالاحتفاظ بالاسم والعلم والنشيد. النشيد؟! راديو دمشق أعاد «حماة الديار عليكم سلام». وأعلن أن المواطن العربي الأول تبرأ من عهد الوحدة. وأعلن أن حزب البعث رحب بالانفصال. حزب البعث؟! وماذا عن سعاد؟! لا بُد أنها الآن في معية الأستاذ، تتلمّظ على وقع كلماته.

أواه! سعاد! الشقراء الملتزمة. والأخريات؟! شاهيناز! التي لا تعشق سوى مستقبلها. التي تركتها، آخر مرة قابلتها فيها، طالبة فقيرة ورأيتها، منذ ليال، مُدججة بالمجوهرات الماسية. طريق الطاعة طويل، كما قال يعقوب. ومديحة! الفتاة الأريجية. سمراء الروف. بحيرة الشبق. وليلى! المرأة اللغز. الأحجية. الأعجوبة. العذراء المتجددة. أم الهيلان. أم السعف والليف. لماذا لا تكتب قصصهن؟ «نساء في حياتي». قديمة. سبقك التابعي. «قصة قلب». قديمة. سبقك الصاوي. «ليالي القاهرة». قديمة. سبقك ناجي. أيام القاهرة. نعم. لم يسبقك أحد. لماذا لا تكتب رواية عن القاهرة؟

رواية؟! ذات يوم سيجيء وقت الكتابة. أما الآن فهذا وقت الوداع. الوداع؟! أواه يا قاهرتي! أيتها المدينة التي ضمنتني الى صدرها الكبير. وتبنتني (التبني لا يجوز في الاسلام يا فؤاد؛ أقصد تبنتني، مجازاً، يا فضيلة الشيخ). التي منحتني شهادة الليسانس في الحقوق وبتقدير جيد جداً (ومرتبة الشرف لولا أستاذ الفرنسية الدجال). وأعطتني مجموعتي القصصية الأولى (أقصد نصفها). وساقنتني الى ليلة الحب الأولى. القاهرة. التي تغصّ بالملايين. هل ستذكر هذا الفتى الذي أعطاها خمس سنوات من عمره، خمس سنوات نادرة، لا تعود ولا تتكرر. الذي ترك شيئاً من حياته في أوتريس رقم ٦. وشيئاً في ميدان التحرير (المجمع العتيق!). وشيئاً في السعيدية. وشيئاً كثيراً في شقة الحرية. الذي يودّع الآن. يفتح روحه ويخزن كل ما يستطيع اختزانه من الأشياء القاهرية. الوجوه. الروائح. القاهرة. الكشري. البقسماط والبيض المسلوق. يا أمه القمرع الباب. أنت وبسّ اللي حبيبي. سور الأزبكية. جزيرة الشاي. كل كبده ومخ باطمئنان.

واقراً الفاتحة للسلطان. تلمّع يا بيه؟ «روزا»... «صباح الخير»... «أهرام»...
«روزا». السحلب. هل ستذكرين هذا الفتى الذي سيأخذ معه كل هذه
الأشياء الى نيويورك. وعندما تطبق عليه ناطحات السحاب. ويهاجمه
رعاة البقر. سوف يقف متحدّياً. يقزّز لبّ. ويصرخ في الأمريكان: «يا
ناس يا شر! كفاية قرّ!»؟

أواه! يا قاهرتي! يا قاهرة الرأسماليين والاشتراكيين (والماركسيين
أحياناً). يا قاهرة الظالمين والمظلومين. الحارمين والمحرومين. الحاكمين
والمحكومين. يا أمّ الدنيا! هل أراك مرّة أخرى؟ وماذا لو رأيتك «وتلاقينا لقاء
الغرباء»؟! أعرف الجواب. أصبحت من الغرباء بالفعل، بعد غياب أربعة
شهور فقط. كتبت على جبهتي في المطار بحبر غير مرئي «سائح!». وظلّت
الكلمة مطبوعة على جبهتي، يراها كل أبناء القاهرة. أهلاً بسيادة
السائح! الأستاذ فؤاد بيه الطارف. المحامي. لا! لا! أنا فؤاد، وبس!
صاحبكم القديم. الطالب. ايه؟! ودي تيجي برضه؟! الطلاب طلاب
والسوّاح سوّاح. ولكنني لست سائحاً. أقسم لكم بالله. لم أجيء لأهتف
لجمال عبد الناصر في النهار وأقضي الليل مع البنّيات. كما يفعل الكثير
من اخواننا الناصريين. أتيت فقط للوداع. لإلقاء نظرة أخيرة على حياتي
هنا. على القاهرة. وعلى شقة الحرية. الحرية؟! رحم الله الحرية. والوحدة!
والثأر! والاشتراكية معهم!

يهزّه قاسم بعنف:

- فؤاد! فؤاد! هل نمت؟

ينظر فؤاد من شباك الطائرة الى القاهرة التي بدأت تختفي وراء الأفق،
وتنهمر دموع صغيرة كثيرة من عينيه.

- فؤاد! لماذا تبكي؟

بصمت، يخرج فؤاد من جيبه الورقة التي تحتوي على أسماء القوميين
العرب في أمريكا ويمزقها، ويضع البقايا في منفضة السجائر.

- فؤاد! ماذا تفعل؟ لماذا تبكي؟

ينظر فؤاد الى المدينة التي اختفت تماماً الآن، ولا يردّ.

* * *

• اقرأوا هذه القصة مباشرة، دون واسطة النقاد، وبعيون واعية يقظة وحاسة نقدية عفوية من جانبكم لتميزوا فيها بين صحيح الحياة العربية وباطلها، فهي سجل حافل بهذا كله.

إنها هدية الخليج والجزيرة العربية إلى الثقافة العربية في الوطن العربي الكبير للعام الجديد ١٩٩٤ بل لعام ألفين.
د. محمد جابر الأنصاري - جريدة «الأيام» - البحرين

• تمثل هذه الرواية إهانتين. الأولى لذكاء القارئ والتاريخ. والثانية للرواية والروائي (...) فهو لا يعرف عن الرواية سوى اسمها (...) وعليه أن لا يتطمح للرواية التي تتطلب موهبته وقدرات لا نظن أنه بقادر عليها.
سمير اليوسف - جريدة «القدس العربي» - لندن

• القصصي جريء في تصويره الشفخ الجنسي والارتباك العاطفي والجسد الأنثوي وجريء أيضاً في اكتشاف الرجل العربي الروحي.

نديم جرجورة - جريدة «السفير» - بيروت

• شقة الحرية رواية كتبها شاعر لكن قارئها لا يلمح غموض الشعر وعاطفيته وإيجازه الخاطف، إذا امتلك غازي القصيبي بمهارة ملحوظة ليونة في السرد حوّله تصوير شخصيات وأمكنة ومواقف من دون أن نلمح ذاتية الشاعر.
محمد علي فرحات - جريدة «الحياة» - لندن

• إلى جانب الغزل والسياسة ينقل غازي القصيبي قارئ «شقة الحرية» إلى ذلك المناخ الثقافي والفني الفني، حيث يعيش مع بطل الرواية الذي يحاول كتابة القصة والانتماء إلى أهل الأدب، مشاهداته التي تمتد من صالون العقاد إلى جلسة نجيب محفوظ، مروراً بأنيس منصور الذي كان يعلم الناس تحضير الأرواح وما يزال.
جريدة «الشرق الأوسط» - لندن

• «حبكة متقنة وسرد مشوّق وسلامة في الاداء ونضرة في القالب وإشراق في التركيب وبساطة في التعبير كأنه خبير قديم في الصناعة الروائية الخالصة...»

جهاد فاضل - مجلة «الحوادث» - لندن

الطبعة الخامسة



1855132729

مع نهاية الحصّة، انقضّ عليه زملاؤه. وجاء طوفان من الأسئلة والتعليقات:

- شفت «البيه الناظر»؟

- شكله إيه؟

- رفتوك؟

- قال لك إيه؟

- يا بختك يا عم. مين قدّك؟

- ده «البيه الناظر» في الدرجة الثانية يا عالم!

- خفت وإلاّ ما خفتش؟

أوضح فؤاد أن المقابلة لم تستغرق سوى ثوانٍ معدودة وانها لم تتضمن سوى جملة واحدة. ومع هذا، فقد كان فؤاد يدرك أن أحداً من زملائه، أو أساتذته، لن ينسى أنه الطالب الوحيد الذي استدعاه «البيه الناظر».

كان هذا أسبوعه الثامن في السعيدية، وأُسبوعه العاشر في القاهرة. بدأت أموره تستقرّ بعد الوحشة العنيفة التي طحنت أيامه الأولى. أصبح لليوم نمطه المعروف. الصبح في السادسة. الإفطار في السابعة. الذهاب الى المدرسة مشياً إن كان هناك متسع من الوقت، أو في الأوتوبيس. العودة في الثالثة. الغداء فالقيلولة. فترة العصر التي تنقضي في كثير من القراءة وقليل من المذاكرة. المساء، وأحاديث السياسة مع زملاء السكن. العشاء، فنشرة الأخبار، فصوت العرب. النوم في الحادية عشرة. أمّا يوم الخميس فله برنامج خاص. يأتي عبد الكريم ويعقوب الى شقة الست أو يذهب هو ويقاسم الى عمارة المؤتمر. العشاء على النيل، في «كازينو الشجرة» غالباً، فالسينما، فالثرثرة. بدأ يتعوّد على القاهرة ويألف شوارعها وميادينها وأوتوبيساتها ومقاهيها وأهلها. بدأ يلمس حرارة الطيبة النابعة من كل إنسان. وصل الى اقتناع انه لا يوجد في القاهرة شخص واحد لا يجيد النكتة، اختراعاً ورواية وتمثيلاً.

وبدأ يتأقلم مع السعيدية، مع مبانيها العملاقة التي تضم أكثر من ألفي طالب، ومع مدرّسيه. في البداية، نشأت مشكلة بينه وبين الأستاذ سرحان مدرّس اللغة العربية عندما اتهمه الأستاذ بسرقة موضوع الانشاء من مكان ما لم يحدّده الأستاذ. وغضب فؤاد وانفعل. لم يقتنع الأستاذ أن فؤاد هو

كاتب الموضوع إلا عندما أحضر له فؤاد قصاصات من صحف البحرين تتضمن تاريخه الأدبي: أربع قصص قصيرة، وخمس مقالات، وجميعها بقلمه. بعدها، أخذ الأستاذ سرحان يوليه عناية خاصة، جعلته أشبه ما يكون بمساعد المدرس خلال حصص اللغة العربية.

كان فؤاد مُعجباً بمُدَرِّس الفلسفة والمنطق، الأستاذ مراد، وبالمادة التي يدرسها لأول مرة. كان الأستاذ مراد يسطر المسائل على نحو جعل المادة المُعقَّدة سهلة وشائقة. أما مدرّس اللغة الإنجليزية، اللورد يسري، كما يسمّيه الطلاب وراء ظهره، فقد كانت علاقته مع فؤاد تسير من سيء إلى أسوأ. كان لا يسمّيه إلا «بتاع البحرين»، وكان ينتهز كل فرصة للسخرية منه. حار فؤاد في فهم هذا العداء حتى أوضح له بعض زملائه أن السبب هو الطريقة التي ينطق بها الكلمات الانجليزية، كما تعلّمها من المستر هيدلي، والتي تختلف تماماً عن طريقة اللورد. وكانت علاقته ببقية المدرسين محايدة. كانت شخصياتهم، في مجملها، من النوع الفاتر الذي لا يثير في النفوس كراهية أو محبة.

أما مُدرّسه المُفضل، فقد كان الأستاذ رفعت مُدرّس التاريخ. اختار فؤاد مادة التاريخ لتخصّصه في التوجيهية، وجاءت المادّة مفاجأة سارّة بسبب المدرّس. كانت الحصّة تنتهي، والطلاب في ذهول منتشر، وكأنّهم يشاهدون مناظر مسرحية رائعة تتكشف أمامهم. بدأ الأستاذ المقرّر بلويس السادس عشر ثم مشى مع أحداث الثورة الفرنسية يوماً بعد يوم. أخذهم إلى مخدع لويس، وإلى مقصورة ماري أنطوانيت، وإلى مظاهرات الخبز، وإلى اقتحام الباستيل. كان الطلاب يتطلعون إلى حصّة التاريخ المقبلة وكأنّهم ينتظرون فيلماً جديداً من أفلام المغامرات المثيرة.

كانت المشكلة الأساسية التي تواجه فؤاد عند التعرّف على زميل جديد هي أن أحداً لم يسمع عن البحرين من قبل. هناك، دائماً، نظرات مشوبة بالإستغراب والفضول. ويزيد الطين بلة عمل والده. كان فؤاد يردّ، ببساطة، على كلّ من يسأله عن مهنة أبيه أن أباه يبيع مجوهرات. والنظرة التي تواجهه دائماً توحي بأن المستمع يتصوّر مخزناً هائلاً مزدحماً بعقود الماس وأكوام الزمرد. كيف يشرح للسائلين أن متجر أبيه الصغير في شارع التجار في المنامة يُدرّ من الدخل ما يكفي العائلة ولكنه لا يأتي بالملايين، ولا بعشرات الألوف؟ كيف يقنع السامعين أن المجوهرات التي يبيعها أبوه لا يوجد فيها عقد واحد من الماس أو فص واحد من الزمرد، وأن البضاعة -

«المال» كما يسميها أبوه - تكاد تقتصر على أساور اليد الذهبية وخواتم اللؤلؤ الرخيصة، بقايا عهد الغوص المرحوم.

* * *

لأول مرة في حياته، يشعر عبد الكريم بشيئته. في البحرين، كان نصف الحي من السنة ونصفه الآخر من الشيعة. وكذلك كان الوضع في المدرسة، وفي السوق، وفي كل مكان. كان هذا نسق الحياة الذي تعود عليه الجميع: السنة سنة، أو عرب، والشيعة شيعة، أو بحارنة! تحصل أحياناً مضاربات بين السنة والشيعة، وخاصة خلال مواكب عاشوراء، غير أن المياه سرعان ما تعود إلى مجاريها. وتحدث مداعبات بين الأصدقاء من الشيعة والسنة تتحول، أحياناً، إلى مناوشات، ولكن هذا، بدوره، كان جزءاً من الحياة التي ألفها المجتمع. في القاهرة، بدأ عبد الكريم يواجه مشكلة لم تخطر بباله من قبل: مشكلة الأقليات.

بدأت القصة في المدرسة الخديوية مع مدرس اللغة العربية الذي أشار في معرض حديثه عن قصيدة في المقرر إشارة جارحة إلى الشيعة (الذين سماهم الروافض). ذهب عبد الكريم إليه بعد الحصة ليحتج بأدب. فوجيء الأستاذ حسين - الذي يسميه الجميع الشيخ حسين لأنه تخرج من الأزهر - بأن أحد طلبته من الشيعة. وبلغ من استغراب المدرس من وجود هذه الظاهرة الشيعية في المدرسة، أن طلب من عبد الكريم أن يعود إليه في فرصة أوسع ليكون هناك مجال أكبر للبحث. وكان «البحث» وابلأ من الأسئلة ينهمر مع كل لقاء:

- لماذا تكرهون الصحابة؟

- كيف تصدقون أن المهدي المنتظر لا يزال على قيد الحياة بعد أكثر من ألف سنة؟

- هل لا تزالون تنتظرونه على باب السرداب في سائر؟

- هل لديكم قرآن يختلف عن قرآن السنة؟

- ما الفرق بين زواج المتعة والزنا؟

- لماذا لا تعترفون بأحاديث السنة؟

- لماذا لا تصلون مع السنة؟

- لماذا تكرهون السنة؟

رغم أن عبد الكريم ولد وترعرع في بيت شيخ من أكبر مشايخ الشيعة في البحرين، إلا أن هذه الأسئلة لم تعرض له على هذا النحو قط. كانت

مبادئ المذهب كما تعلّمها من أبيه بسيطة وواضحة. الشيعة هم شيعة الإمام علي وأبنائه، وهم يكرهون كل من عادى الإمام علي وأبنائه، سواء كان من الصحابة أو من غيرهم. وهو لا يذكر أن أباه تفوّه بكلمة نابية واحدة ضد أحد من الخلفاء الراشدين (بخلاف أمّه التي تهوى شتم عمر بن الخطاب). والمهدي لا يزال حياً لأن الله قادر على كل شيء. وهو لم يسمع بأن أحداً ينتظر خروج المهدي من سرداب في سامراء. كما انه لم يسمع بأن هناك قرآناً للشيعة يختلف عن قرآن السنّة. وزواج المتعة كان قائماً ومعترفاً به من جميع المسلمين حتّى حرّمه الخليفة الثاني. والأحاديث التي يرويها الشيعة منقولة عن الأئمة من أهل البيت وإذا كانت ثمة مشكلة فهي في أحاديث السنّة. وموضوع الصلاة مع السنّة لم يطرح أمامه من قبل. في البحرين، يصلي الشيعة في مساجد الشيعة، ويصلي السنّة في مساجد السنّة، وهذا كل ما هنالك. وهو لا يكره السنّة بدليل أن كل أصدقائه المقرّبين من السنّة.

لفت الحوار الدائر بين الشيخ حسين وعبد الكريم انتباه الطلبة الذين أخذوا، بدورهم، يهتمون اهتماماً خاصاً بهذا الطالب الذي ينتمي الى مذهب لم يكن معظمهم قد سمع عنه من قبل (باستثناء الشتيمة المشهورة يا ابن الرفضي!). كادت الأمور أن تتحوّل استجواباً مستمراً في الفصل لولا تدخل يعقوب الذي صرخ ذات يوم:

- كفوا عن هذه الأسئلة السخيفة. شيعة وسنّة! هذا كلام من صنع الإستعمار. مؤامرة لتفريق الأمة العربية. كلّنا عرب وكلنا مسلمون فما هذه الحماسة؟ حاول الإنجليز في البحرين إذكاء الفتنة بيننا عن طريق هذه النعرة ولكننا أفسدنا خطتهم.

حديث المؤامرة الإستعمارية في الأجواء التي تعيشها القاهرة بعد التأميم يلقي الكثير من الترحيب. بعد غضبة يعقوب، خفّ فضول الزملاء بشكل ملحوظ. حتى الشيخ حسين نظبت أسئلته ولم يعد يذكر الشيعة في دروسه. ومع ذلك، خلّفت التجربة أسئلة مزعجة تنبض في وجدان عبد الكريم: «هل يختلف الشيعي الى هذه الدرجة عن السنّي؟». «هل يكره السنّة الشيعة؟». والسؤال الأخطر «هل يستطيع الشيعي أن يعيش آمناً بين السنّة؟».

* * *

ظلت مشاعر قاسم، كما كانت قبل وصوله الى القاهرة، معادية للثورة

وللتّوار. بدأ، رغمًا عن أنفه، يحسّ بمودة متزايدة نحو المصريين الذين يتعامل معهم، أما نظرتهم الى جمال عبدالناصر وضباطه فلم تتغيّر. تعرّف قاسم في أسبوعه الأول في السعيدية على نشأت، زميله في الفصل، وعلى الفور ظهرت ارهاصات صداقة عميقة. ولم تكن معرفة السبب تتطلب الكثير من الذكاء. نشأت من أسرة أرستقراطية معروفة، وقد كان أبوه وزيراً للداخلية في أكثر من حكومة من حكومات ما قبل الثورة، كما كان قبل الغاء الألقاب، العمل الذي يعتبره قاسم جريمة من جرائم الثورة الكثيرة، باشا. كان هناك تطابق تام في الأفكار بين سليل الأرستقراطية الصاعدة في البحرين ووريث الأرستقراطية الغاربة في مصر.

عبر حوار بعد حوار مع نشأت، أخذت الصورة الفعلية لما يدور في مصر تتضح أمام قاسم. حدّثه نشأت عن الحقيقة الضائعة في ضجيج الدعاية. عن عشرات الآلاف من المواطنين الذين يُعذّبون في المعتقلات. عن أذرع المخابرات المتغلغلة، كالأخطبوط، في كل مكان. عن المؤامرة الوهمية التي تُسبّط الى الأخوان المسلمين وأعطت النظام مُبرراً للقضاء عليهم. عن الضباط الذين تحولوا الى أسرة مالكة جديدة تفوق امتيازاتها وسلطاتها كلّ ما كان عند الأسرة المالكة القديمة. أوضح له نشأت ان كل ما يُروى عن الفساد أيام الملكية لا يُقارن بالفساد الذي ينتشر في مصر الآن. كانت كل هذه المعلومات ذخائر تضاف الى ترسانة قاسم، ذخائر هامة لأنها تجيء من ابن رجل كان وزيراً للداخلية ويعرف بواطن الأمور.

الشيء الذي يثير قاسم الى درجة الجنون أن أحداً من أصدقائه لم يشاركه الرأي، أو يبدى أدنى قدر من التعاطف مع معلوماته. عندما تحدّث مع فؤاد عن المعتقلات وما يجري فيها رد الأخير بالإنجليزية متعمّداً إغاضته:

- So What?

وعندما حاول أن يستثير حسّ العدالة الفطري عند يعقوب فوجيء بشرح مسهب صاحب:

- يا قاسم! يا قاسم! متى تفهم؟ متى تتعلّم؟ هنا ثورة. هنا نظام حل محلّ نظام. هنا معركة سياسية واجتماعية واقتصادية. كيف تتوقّع أن يتمّ هذا من غير عنف؟ من غير معتقلات؟ من غير مخابرات؟ ومن هم

المعتقلون؟ مجموعة من الرجعيين والخونة والجواسيس. لا يهم سجن ألف أو ألفين في سبيل شعب. في سبيل التحرر.
حاول قاسم أن يجد أذنأ مصغية لدى عبدالكريم إلا أن جهوده باءت بالفشل. علق عبدالكريم باختصار:
- في كل مكان سجون ومخابرات.

لا ينتهي عجب قاسم من هؤلاء الأصدقاء. هؤلاء البشر الأذكاء المثقفين الذين استطاع ممثل مثل أحمد سعيد غسل أدمغتهم وجعلهم يصدقون كل شيء.

* * *

موجة هائلة من الحقد والكراهية تصطبخب في أعماق يعقوب. موجة من الغضب والسخط تعتمل في نفسه. سوجة من النعمة والثورة تمور في قلبه. يحس يعقوب انه يعيش، شخصياً، كل عذابات الأمة العربية التي عانت من الاستعمار كما لم تعان أي أمة أخرى على وجه الأرض. منذ الصليبيين، وهجمات الإستعمار على العرب لم تنقطع: هجمات بالجيوش، وهجمات بالمؤامرات، وهجمات بالجواسيس والعملاء. والنتيجة؟ تمكن المستعمرون من التغلغل في كل شبر عربي. قسّموا الأمة الواحدة الى دويلات ومقاطعات في اتفاقية سايكس/بيكو ووزعوها على أذنانهم وأعوانهم. ولم يكفهم هذا. جاءوا بإسرائيل وزرعوها زرعاً في قلب العالم العربي ليضمنوا انقسامه الى الأبد. وبدا كما لو أن المؤامرة التاريخية نجحت وأن الأمة العربية سوف تظل مزرعة للمستعمرين وأعوانهم الخونة. وفجأة، حدث ما لم يكن في حسابان أحد. فجأة، ظهر على الأفق عملاق أسمر، اسمه جمال عبدالناصر، أسقط كل الخطط وقلب كل المعادلات. فجأة، ظهر رجل وطني لم يصل الى الحكم بالوراثة ولا بحراب الانجليز. جاء رجل، وجاء معه عالم جديد. والتفت آمال العرب في كل مكان حول الفارس. وتوالى الانتصارات: الجلاء، كسر احتكار السلاح، الحياد الإيجابي، السد العالي، وأخيراً تأميم القناة. واكتشفت الأمة العربية طاقات النضال الهائلة الكامنة في أعماقها. وزحفت الى الأمام.

والآن، في هذه اللحظة بالذات، تهاجم إسرائيل على مصر. وقبل أن يدرك أحد حقيقة ما حدث، وقبل أن تتاح للجيش المصري الباسل الفرصة لتأديب إسرائيل، يجيء إنذار بريطاني/فرنسي. ويرفض البطل الإستسلام.

وتبدأ الطائرات البريطانية والفرنسية مهاجمة القاهرة، ويبدأ الإنزال المظلي في بورسعيد. وتتضح المؤامرة القذرة الدنيئة: العدوان الثلاثي المجرم. موجة الغضب تتكسر داخل يعقوب لتبدأ موجة جديدة. كيف يصل الى بورسعيد ليقتل أول جندي بريطاني أو فرنسي يراه؟ كيف يصل الى الحدود ليشتبك مع جنود إسرائيل؟ كيف يمكن أن يقوم بواجبه في هذه الساعة الحاسمة في تاريخ النضال العربي؟

يقرر يعقوب أن يتطوع، ولكنه لا يعرف كيف وأين. ذهب الى قسم البوليس في باب الخلق واستمع «حضرة الضابط» بدهشة الى هذا الشاب البحريني الذي يرتجف حماسة ويطلب الإلتحاق الفوري بالجيش المصري. وأوضح له ان الموضوع ليس من اختصاص البوليس. وأشار عليه بأن يذهب الى ثكنات الجيش في العباسية. استقل يعقوب أول تاكسي مرّ به وانطلق الى الثكنات. شرح هدفه للجنود الذين وجدته عند البوابة. وبدأت عليهم أمارات الذهول. واتصلوا بحضرة الضابط «النوبتشجي». وجاء رجل على كتفيه نجوم كثيرة شديدة اللمعان. واستمع الى يعقوب بهدوء. ثم قال:

- يا ابني رُوح بيتكم. أحسن لك!

غادر يعقوب الثكنات وهو يغلي من الغيظ. «يرُوح بيتهم» والمركة في عنفوانها؟ وصوت العرب يدعو الجماهير البرية ني كل مكان الى القتال؟ وجمال عبدالناصر يعلن من مسجد الأزهر «سنحارب! سنحارب! سنحارب!»؟

أسرع يعقوب الى مقر المؤتمر الإسلامي وطلب مقابلة أنور السادات، السكرتير العام، شخصياً. اضطرب موظف الاستعلامات زهو يستمع الى هذا الطلب الغريب. وشرح له يعقوب السبب. وأحاله موظف الاستعلامات الى موظف آخر، فأخر، حتى استقر به المقام في مكتب أحد مساعدي السادات. لأول مرة منذ الصباح، وجد يعقوب مسؤولاً ثورياً يستطيع التفاهم مع الطلبة الثوريين. قال له المسؤول:

- أشكرك باسم أنور السادات. وباسم مصر. ولكن يا ابني انت عمرك كام؟

- تسع عشرة سنة.

لم يذهب ينقرب بعيداً. أضاف الى عمره الحقيقي سنة واحدة.

١ نوفمبر ١٩٥٦. في هذا اليوم، في الساعة الحادية عشرة ودقيقتين صباحاً، وفي ميدان الأوبرا، أبصر فؤاد بعينه، بل بأم عينيه كما تقول كتب الإنشاء، الرئيس جمال عبد الناصر. لم يشاهده في شريط سينمائي من مسلسل «جريدة مصر الناطقة». ولم يره على غلاف مجلة. أبصره، بلحمه وشحمه. كان جمال عبد الناصر واقفاً في السيارة المفتوحة، يحتي الجماهير المحتشدة وهو يتسم ابتسامة عريضة، مضيئة كالشمس. دخل فؤاد في أحضان قشعريرة سعيدة. ها هوذا بطله العظيم أمام عينيه يتسم، والطائرات المجرمة تقصف الإذاعة والمطارات، ورُجما بيته في منشيّة البكري. يتسم، والعدوان الثلاثي في أوجه. يتسم، في سيارة مفتوحة مكشوفة، لا يخشى رصاصات الإغتيال، ولا الجواسيس، ولا العملاء. يتسم، وهو يحتي شعبه. أين الذين يسمونه الديكتاتور؟ هل هذه تصرفات ديكتاتور؟ هل وُجد، عبر التاريخ كله، ديكتاتور يلتحم بشعبه على هذا النحو، من غير حراسة، وفي خضم معركة؟ يكاد فؤاد يضرب قاسم الذي لم يجد في ذروة هذه اللحظة التاريخية الفريدة ما يقوله سوى:

- لماذا يركب سيارة «كذلك» إذا كان من الزعماء الشعبين؟!

يا لغباوة هذا المخلوق الرجعي! ألم يلاحظ في الدراما الهائلة سوى ماركة السيارة التي يستخدمها جمال عبد الناصر؟!

حاول قاسم، بلا جدوى، أن يفسد على فؤاد روعة حلمه القومي بالملومات الغريبة التي كان يأتي بها كل يوم والتي يعرف فؤاد أن مصدرها ابن الباشا. أصرَّ قاسم على أن الطائرات البريطانية والفرنسية دمّرت الهياكل الخشبية هو محض افتراء. وقال قاسم ان القوات البريطانية والفرنسية احتلت بورسعيد خلال ساعات وأن كل ما تردّد عن المقاومة البطولية كذب من اختراع الخبراء الألمان الذين يديرون صوت العرب والذين تتلمذوا على يد جوبلز. كان قاسم يجيء كل يوم بإشاعات جديدة خبيثة. عن انقلاب عسكري وشيك. عن عودة النحاس باشا. عن انتحار جمال عبد الناصر. وعندما أعلن عن وقف إطلاق النار أكد قاسم ان جمال عبد الناصر كان على وشك الهرب من القاهرة ولم ينقذه من نهايته المحتومة سوى موقف أيزنهاور.

قضى فؤاد ساعات طويلة يناقش المعركة ونتائجها مع زميلي السكن، عدنان ومجيد. كانت آراؤهما نسخة طبق الأصل من آرائه. أجمع الثلاثة

على أن المواجهة انتهت بانتصار تاريخي. كان الهدف الحقيقي من العدوان هو إسقاط جمال عبد الناصر واستعادة القناة. وفشل العدوان في تحقيق أي من الهدفين: لا جمال عبد الناصر سقط، ولا القناة رجعت إلى المجرمين. على العكس، خرج جمال عبد الناصر من المعركة أقوى مما كان عليه، وتأكدت هوية القناة المصرية. عندما انضم يعقوب إلى النقاش ظهر تحليل جديد:

- مع الانذار السوفييتي، انتهى عهد السيطرة الأمريكية على العالم. أصبح الاتحاد السوفييتي نداً لأمريكا. عندما هدد خروشوف بريطانيا وفرنسا بالصواريخ الذرية كان التهديد، في حقيقته، موجهاً إلى أمريكا، وتراجعت أمريكا.

عندما حاول قاسم أن يتحدث عن آيزنهاور ودوره في إنهاء القتال لم يجد من زملائه سوى الإحتقار. كانت آراء قاسم الرجعية أتفه من أن تستحق النقاش.

* * *

لا يعرف فؤاد كيف ومتى بدأت الصداقة بينه وبين عبدالرؤوف. الحجل يغلب عليه، كما يغلب على عبد الرؤوف. ولم تكن في طبيعة أي منهما القدرة على تكوين صداقات جديدة بسهولة. إلا أنه تعرف على عبد الرؤوف في يومه الأول في السعيدية. كانت هواية الأدب، في البداية، هي الرابطة الوحيدة بينهما. كان فؤاد قد نشر قصصه القصيرة الأولى، وكان عبد الرؤوف يتطلع إلى نشر قصته الأولى. سرعان ما أدركا انهما، فيما بينهما، قرآ من الكتب أكثر مما قرأه الفصل بأكمله. ثم تبين، بالتدريج، وجود عوامل نفسية مشتركة. هناك الرغبة في تحليل كل شيء، أو «فلسفته» كما يقول عبدالرؤوف، وعدم أخذ الحياة ببساطة كما يأخذها الآخرون. هناك القدرة على استخلاص الجوانب الفكاهية في كل موقف، بالإضافة إلى الجوانب المأساوية، في إدراك فطري أن الفكاهة لا تختلف عن المأساة. وهناك الحساسية المفرطة في التعامل مع كل شيء: ردود فعل الآخرين، النقد، الإطراء، والمرأة. أوه! المرأة بالذات!

خلال الفسح كان الإثنان يتحيان جانباً ليجثا كل ما تحت السماء: المدرسة وكائناتها، والدنيا والناس. ويقود الحديث في كل مرة إلى المرأة:

- ما رأيك في موقف العقاد من المرأة؟

- أليس هو نفس موقف الحكيم؟

- هل أتى أيّ منهما بجديد؟

- من أين لعازب أن يفهم المرأة؟

- كانت للعقاد مغامراته النسوية.

- زنجيب محفوظ!

- هل تختلف أحاسيس المرأة عن أحاسيس الرجل؟

- أيهما الصائد وأيهما الطريدة؟

- أيهما أكثر شهوانية؟

- أيهما أوفى؟

يكتشفان أن في جعبتهما عن المرأة الكثير الكثير من الأسئلة، والقليل القليل من الأجوبة.

مع توطيد علاقته بعيد الرؤوف، بدأ فؤاد يلمس أبعاد معضلة انسانية لم يكن قد فكر فيها جدياً من قبل: الفقر. في البحرين، كان كل رفاقه من الطبقة المتوسطة التي ينتمي اليها، ولم تكن هناك فروق تذكر بينهم. كان في الفصل، عادة، اثنان أو ثلاثة من أبناء الأغنياء - أو «التجار» كما يسمونهم في البحرين -، واثنان أو ثلاثة من أبناء الفقراء - أو «الفقارة» -، أما البقية فكانوا في المستوى نفسه. لم تستأثر قضية الأغنياء والفقراء بكثير من تفكيره. لم يتساءل كيف يعيش الأغنياء أو كيف يعيش الفقراء. كان يفترض أن الحياة في منزله لا تختلف كثيراً عن الحياة في أي منزل آخر في البحرين. ينام الأولاد جميعاً في حجرة واحدة، ويذهبون الى المدرسة على الدراجات، ولا يعرفون الثياب الجديدة إلا في العيد، ولم يذق أحد طعم الجوع، ولا طعم الترف.

لم يشعر فؤاد قبل أن يصادق عبد الرؤوف انه ينتمي الى عالم سحري منفصل تماماً عن عالم الأغلبية من البشر هو عالم الأغنياء. لم يشعر من قبل انه وُلد وفي فمه ملعقة من أي نوع. اشترى والده سيارة قبل سنوات، ومع هذا فقد كان والده نادراً ما يستعملها، ولم تضاف السيارة شيئاً يذكر الى حياة فؤاد. الآن بدأ يدرك انه، شاء أو لم يشأ، شعر أو لم يشعر، من الأغنياء. الفقراء لا يملكون سيارات، ولا متاجر مجوهرات، ولا يأكلون

اللحم بانتظام، ولا يرسلون أبناءهم للدراسة في الخارج، ومع الواحد منهم مصروف شهري مقداره خمسة وعشرون جنيهاً، وخمس بدل.

كل ما كان فؤاد يعرفه عن مصروفه الشهري انه يعادل مائتي رويّة بحرينية، وهو مبلغ معقول بمقاييس البحرين. أما البدل فلم يقرّر هو لا عددها ولا نوعها ولا لونها. اتخذ أخوه ناصر القرار. الآن، تأخذ هذه المسلّمات بُعداً جديداً. عبدالرؤوف لا يتلقّى من والده سوى أربعة جنيهات في الشهر، ولا يملك سوى بدلة واحدة (من غير كرافتة). تبين لفؤاد أن معظم الطلاب في فصله لا يملكون سوى بدلتين، وأخذ هو، بدوره، يحرص على ألا يرتدي للمدرسة سوى بدلتين فقط.

يسأل عبد الرؤوف باستغراب:

- ولكن كيف تعيش بأربعة جنيهات؟ كيف؟

ويستغرب عبد الرؤوف استغرابه:

- تكفي. أدفع جنيهاً، نصيبي من ايجار الغرفة التي أسكنها مع قريب من البلد. والباقي للأكل. لا أحتاج الى شيء للمواصلات فأنا أذهب الى المدرسة وأعود منها ماشياً.

- وماذا عن المطاعم؟ والسينما؟

ترتسم على شفة عبد الرؤوف ابتسامة صغيرة. ويدرك فؤاد مدى سخفه، وسخف سؤاله. ويتذكر ماري انطوانيت التي نصحت الجائعين بأكل الكعك بعد أن انعدم الخبز.

عندما عاد فؤاد الى المنزل بعد ذلك الحوار، وتأمل الغداء، شوربة ولحم ونوعين من الخضار وسلاطة وطبقاً ضخماً من الرّز ومهلبية، أحسّ، لأول مرّة في حياته، بتأنيب الضمير، لأنه لم يولد فقيراً.

* * *

«الميدان يعجّ بالبشر، والسيارات، والحيوانات، والروائح، والأصوات. عبد الباقي ينتظر وصول الأتوبيس بصبر نافذ. يلتفت إليه تلميذ صغير يقف بجانبه ويسأله:

- الساعة كم يا أستاذ؟

يشير عبد الباقي بغيظ الى الساعة الضخمة التي تتوسّط الميدان، الساعة التي سُمّي الميدان باسمها.

ويقول التلميذ:

- متشكرين يا أستاذ.

يرفض الأوتويس أن يجيء. ويعرف عبد الباقي نتيجة هذا الرفض. سوف يصل الى المصلحة متأخراً. وسوف يتلذذ الباشكاتب بتعذيبه قبل أن يخبره انه لن يخصم عليه شيئاً هذه المرة. يخصم؟! ومن دون أن يشعر، بدأ عبد الباقي يضحك. والتفت إليه التلميذ، وبدأ يتعد. يخصم؟! هل بقي شيء من الراتب للخصم؟ بعد الإيجار، والطعام، والمواصلات، وتلايس الأولاد، هل هناك سوى الديون؟ لماذا لا يخصم الباشكاتب من الديون؟

يصعد عبد الباقي من باب الدرجة الثانية بصعوبة بالغة. الهابطون يحاولون دهن الصاعدين الذين يحاولون القفز فوقهم. لا يكاد عبد الباقي يستقر واقفاً حتى تفاجئه العجوز التي تضغط بشبشبها على خذائه المهترئ:

- والنبي الساعة كم يا أستاذ؟

ويرد عليها:

- هو أنا عارف أشوف ايدي يا ست؟

- لا مؤاخذه يا ابني.

لهذا الزحام، رغم ضغط الشبشب، ميزتان. الأولى، أن هناك احتمالاً قوياً في أن يصل الى محطته قبل وصول الكمساري اليه. والثانية أن مشكلة بقائه واقفاً، رغم الضغوط التي تنصب عليه من كل الاتجاهات، تجعله ينسى أي مشكلة أخرى، مهما كانت كبيرة.

يهبط، بالفعل، قبل قدوم الكمساري. يخطو خطوتين قبل أن يستقرته قروي يبدو انه قادم لتوه من الصعيد في انتظار أول ترام ليشتريه:

- الساعة كم يا حضرة؟

لا ينظر عبد الباقي. ولا يرد. ويواصل المشي.

ويتمتم القروي وهو يهز رأسه:

- عجائب! الكبير لله يا عالم. بلد ايه دي؟!!

حقاً! بلد إيه دي؟! يغالب عبد الباقي الدموع التي بدأت تتجمع في

عينيه. هل أصيب كل الناس بالعمى؟ كل الناس؟ ألا يرون انه لا يلبس ساعة؟ ألا يعرفون انه لم يمتلك ساعة قط؟».

* * *

يسأله عبد الرؤوف:

- ما رأيك في قصّة الساعة؟

ويضحك فؤاد:

- يا رؤوف. زوّدتها حبتين. هل يوجد موظف لا يملك ساعة؟ هل يوجد أحد لا يملك ساعة؟

بغته، وهو يتكلّم، تذكر فؤاد، انه لم ير ساعة على معصم عبد الرؤوف. وصمت، واحمرّ وجهه حرجاً. ولاحظ عبد الرؤوف ما حدث وقال:

- بسيطة. لا تأخذ الأمر بهذه الجدّة.

ولا يستطيع فؤاد مغالبة فضوله:

- ولكن كيف تعيش من غير ساعة؟

- هناك ساعات في كلّ مكان.

- لم لا تشتري ساعة؟ هناك ساعات رخيصة.

ويردّ عبد الرؤوف:

- ربّما كانت رخيصة في البحرين.

في اليوم التالي، أحضر فؤاد ساعته الاحتياطية، ماركة «سيدو» شأنها شأن الأصلية، وقدمها لعبد الرؤوف الذي أخذها من غير تردّد، ونمو يتسم:

- ماذا عن بقية الناس الذين لا يملكون ساعات؟ ساء تنوي إهداء كل منهم ساعة؟

۳

نوفمبر
ديسمبر ۱۹۵۷

أنا لائمى ان كنتُ وقت اللوائم علمتُ بحالى بين تلك المعالم
المتنبى

في سبتمبر الماضي أصبح فؤاد طالب جامعة وبدأت مرحلة جديدة مثيرة من حياته. انتقلت الشَّلَّة كلها الى الجامعة. جاءت النتائج في التوجيهية أفضل من التوقعات. حصل فؤاد على ٧٠٪، وقاسم على ٦٧٪، وعبد الكريم على ٦٦٪، ويعقوب على ٧٣٪، ونشأت على ٧٥٪، أما عبد الرؤوف فقد كان المتفوق الوحيد وحصل على ٨٥٪. كانت هذه النتائج كفيلة بإدخالهم جامعة القاهرة من دون حاجة الى توسط أحد لدى مكتب التنسيق، الذي اشتهر بأنه الجهة الوحيدة في الجمهورية التي ترفض الوساطات. التحق فؤاد وعبد الكريم ونشأت بكلية الحقوق، والتحق قاسم بكلية التجارة، والتحق عبد الرؤوف بقسم اللغة العربية في كلية الآداب. أما يعقوب فقرّر، في نهاية المطاف، أن يدرس الاجتماع. كان يفكر في دراسة الحقوق باعتبار أن العلاقات القانونية هي التعبير النهائي عن كل العلاقات القائمة في مجتمع ما. ثم فكر في دراسة الاقتصاد باعتبار أن النشاطات الاقتصادية هي العامل الأهم في حياة أي مجتمع. ثم فكر في دراسة الأدب باعتبار أن الأدب هو السلاح الأمضى في مقاومة الطغيان. ثم انتهى الى دراسة الاجتماع، باعتبار أن المجتمع ظاهرة معقدة يستحيل أن تُدرس من جانب واحد فقط.

حمل الصيف الذي قضاه فؤاد في البحرين مفاجآت لم تكن في الحسبان. بدأ يضيق بجو البحرين الحانق في أغسطس ويحنّ الى نسيمات النيل الباردة. بعد فرحة اللقاء بأسرته في الأيام الأولى، أخذ يحنّ بالضجر من الدورة الروتينية: المنزل فالمتجر فالمنزل. أخذ يعاني من الجفاف الفكري المطبق على مجتمع البحرين والذي لم يسبق أن لاحظته من قبل. أخذ يفقد جرائد الصباح، والمجلات التي تصدر وتقرأ في وقتها، وسور الأزركية حيث يوجد ما لذ وطاب من كتب مستعملة بأرخص الأثمان، وبرامج

الراديو الثقافية. أخذ يحنّ الى تلك الرائحة القاهرية المُميزة، المتخمّرة عبر ألف سنة من ألف رائحة ورائحة. عندما ركب فؤاد الطائرة القبرصية قبيل الفجر، كانت الدموع تملأ عينيه، كما كانت في المرة الأولى، إلا أنها هذه المرة كانت مزيجاً من دموع الألم لفراق أمه، ودموع الفرح بلقاء القاهرة.

روتين الجامعة يختلف تماماً عن روتين المدرسة الثانوية. لا يوجد الآن حضور وغياب، وأبواب تُفتح وتُغلق، وأعوذار مرضية. لا يلاحظ أحد وجود أحد، ولا اختفاء أحد. المدرّج الهائل يستوعب أكثر من ألف طالب. والدكتور يستعين بالميكروفون كي يسمعه جميع من في المدرج الذي يمتلأ حتى لا يبقى فيه مكان لجالس أو واقف. أمّا الفصول الصغيرة - «السكاشن» حيث يدرّس المعيدون - فلا يحضرها أحد، سوى النوابغ والبلهاء. والجدول مريح جداً، نصف الأسبوع محاضرات صباحية، ونصفه الثاني محاضرات مساءية. والسنة الدراسية مقسّمة الى فصلين - أو «ترمين» كما يقول الجميع - وفي كل فصل خمس مواد. الشيء الوحيد الذي أزعج فؤاد هو عدم وجود كتب جاهزة. كان كل دكتور يطبع كتابه على هيئة ملازم يشتريها الطلبة وتصدر بالتقسيط، ملزمة أو ملزمتان كل أسبوع.

والفتيات؟! أدرك فؤاد من اليوم الأول أن كلية الحقوق ليست المكان الأمثل للتعرف على فتيات. عدد الطالبات في المدرج لا يصل الى عشر عدد الطلبة. ومعظمهن لا يكاد ينطبق عليهن وصف فتيات: نظارات طبية سميقة، وملامح صارمة قاسية، وجدّة مبالغ فيها. يتصور فؤاد وهو يجيل النظر في وجوه زميلاته انه ينظر الى قاضيات محكمة الجنايات في المستقبل. يبدو أن كل فتيات الجامعة الجميلات يدرسن في كلية الآداب. يا لحظ يعقوب وعبد الرؤوف! في قسم اللغة الإنجليزية، يزيد عدد الإناث على عدد الذكور، أمّا في بقية الأقسام فيتساوى العدد. وكلية الوزراء لا يوجد فيها سوى الوزراء. ماذا عن الوزيرات؟! غير أن القدر الذي حرم طلبة الحقوق زمالة الجميلات فتح لهم كوة من الأمل لم يكونوا يحلمون بها: بوفيه كلية الآداب، حيث تأوي جميلات الكلية، ويأتي عشاق الجمال من كل مكان في الجامعة. كان هذا البوفيه هو مقر الشيلة المفضّل. عندما تتحدّث الشيلة عن «البوفية» بلا تحديد فالمقصود بوفيه الآداب، أما عند الكلام على بوفيه آخر فلا بُدّ من التحديد: «بوفيه الحقوق» أو «بوفيه التجارة».

تغيرت وتيرة الحياة بعض الشيء. أصبح عبد الرؤوف ونشأت عضوين رئيسيين في الشبلة. أصبح البرنامج الأسبوعي يتضمن زيارة واحدة على الأقل لرابطة الطلبة البحرينيين في شارع متفرع من ميدان الدقي. هناك، في فيلا واسعة، يلتقي طلبة البحرين الذين يدرسون في القاهرة، قرابة خمسين شاباً، وعدد ضئيل من الشابات، ليتبادلوا الأحاديث، ويلعبوا «الكريم»، و«البنج بونج»، والشطرنج، والورق. بين الحين والحين، تقام أمسية ثقافية حيث يلقي فؤاد قصة من قصصه، ويلقي يعقوب قصيدة من قصائده. كما أن البرنامج الأسبوعي أصبح الآن يتضمن صلاة الجمعة مع عبد الرؤوف في مسجد الملك الصالح بالروضة، ويضم غداءً أدياً بعد الصلاة في «كازينور»، بالقرب من كوبري عباس. في هذا الغداء، الذي يحضره يعقوب أحياناً، يقتصر الحديث على مسائل الفكر والثقافة.

كان هناك قرار كبير ينتظر فؤاد ورفاقه: قضية السكن. الحياة في بيت الست خيرية مريحة الى أقصى الحدود، إلا أنها شبيهة بالحياة في قسم داخلي. هناك قواعد كثيرة غير مكتوبة تحكم السلوك في الشقة. لا بُدَّ أن تتم الزيارات بحساب وفي مواعيد معقولة (ولا زائرات، بطبيعة الحال!). تتعذر دعوة أحد الى الطعام. فالكراسي بعدد الطاعمين. حتى أخذ حمام ساخن يتطلب تنسيقاً مسبقاً مع الست التي تتولى تسخين المياه على الموقد البدائي الذي يُسمى في البحرين «الدافور». بدأ فؤاد يقتنع بوجهة فكرة قاسم، استعجار شقة، وأعلن يعقوب وعبدالكريم استعدادهما للانضمام اليهما حالما يحدث ذلك. لم يبق إلا فيتو الأستاذ شريف، وقد وعدهم قاسم بأنه سيضع خطة «جهنمية» لتجاوز الفيتو.

تكشف أمام فؤاد جوانب عديدة من شخصية الأستاذ شريف. تتولى الأستاذ مسؤوليته في الإشراف على فؤاد بمنتهى الجدية، وأضاف إليها مسؤولية الإشراف على قاسم، وكل الطلبة البحرينيين الذين يحتك فؤاد بهم. كان يزور شقة الست خيرية مرتين في الأسبوع، مرة في تمام العاشرة من صباح الجمعة، والثانية تجيء بغته، في أي يوم. تبين أن للأستاذ شبكة هائلة من الأصدقاء، تحل، على الفور، أي مشكلة تواجه فؤاد أو أحد زملائه. إذا طرأت مشكلة صحية، فالأستاذ شريف يعرف كل أطباء القاهرة المشهورين. وإن جاءت مشكلة دراسية فللأستاذ في وزارة التربية والتعليم، حيث يعمل مسؤولاً كبيراً في الدرجة الثانية. من النفوذ ما يكفي لتذليل العقبة. وإن جدت مشكلة تتعلق بالإقامة فالأستاذ يعرف عدداً من

الضباط العاملين في المجمع (الذي أصبح فؤاد، الآن، خبيراً بممراته ودهاليزه). أما إذا تعقدت الأمور، فعديل الأستاذ البكباشي شوكت يعمل في مخبرات الجيش، وهل توجد تحت سماء مصر مشكلة لا يستطيع بكباشي في مخبرات الجيش حلها؟

إلا أن ما يقلق فؤاد في الأستاذ لا يتعلق بشخصيته، بل بآرائه السياسية. عندما كان الأستاذ في البحرين كان الجميع يعتقدون أنه من أشد الناس حماسة للثورة وقادتها ومبادئها. بعد أن توثقت علاقة فؤاد بالأستاذ أدرك أن حماسه الظاهرة للثورة تخفي الكثير من البرود، بل الكراهية. بما يشبه الصدمة، أدرك فؤاد أن إعجاب الأستاذ الحقيقي لا ينصب على بطله، رائد القومية العربية، وإنما على سعد باشا، شأن الأستاذ في هذا شأن سائق التاكسي الأمي العجوز الأسطى محبوب، وعلى خليفة سعد، النحاس باشا. هذا الشعور المعادي لجمال عبدالناصر لا يقتصر على الأستاذ، بل يكاد فؤاد يلمسه عند كل شخص تجاوز الأربعين. هؤلاء الكهول لا يزالون يعيشون في أوهم العهد البائد: الملكية، والباشوات، والألقاب.

الألقاب! شيئاً فشيئاً، يتعود فؤاد على الألقاب ويبدأ في استعمالها. في البحرين، لا يستخدم الناس ألقاباً تذكر. عندما ذهب مع أبيه لزيارة الحاكم، لأول مرة، سأل أباه عن كيفية مخاطبة الحاكم، فردّ أبوه «طال عمرك تكفي». كان الجميع يخاطبون الشيخ سلمان بـ«طال عمرك»، وكان الحاكم يستخدم التعبير نفسه في مخاطبة الآخرين. أما هنا فالمسألة معقدة. جنابك. حضرتك. سعادتك. سيادتك. يا أفندم. حتى هو نفسه يتغير اسمه عدة مرّات في اليوم باختلاف المتحدثين والظروف. سي فؤاد (كما تسميه الست خيرية). فؤاد أفندي (كما يسميه المكوجي). فؤاد يه (كما يسميه الجرسونات في الكلية). الأستاذ فؤاد (كما يسميه بواب السارة). شرح له نشأت الوضع أيام الملكية. كان رئيس الوزراء يلقب بـ«صاحب الدولة». إلا إذا كان يحمل أعلى وسام في الدولة فعندها يصبح «صاحب المقام الرفيع». الوزير «صاحب المعالي»، ووكيل الوزارة «صاحب السعادة». كل ضابط في الجيش أو البوليس يصل إلى رتبة اللواء يصبح، تلقائياً، باشا وبالتالي «سعادة الباشا». أما الآن فقد أصبحت الأمور فوضى من غير قواعد. بعد الغاء الألقاب، أصبح اللقب الرسمي الوحيد «سيادة»، وهو لقب يطلق على رئيس الجمهورية، وعلى سائق الأوتوبيس.

هناك إحساس غامض يتسلل، على استحياء، إلى نفس فؤاد، إحساس

بأن ما يبدو للعين من جمال عبد الناصر هو الحقيقة ولكن ليس الحقيقة كلها. بدأ يتساءل عن المشاعر الفعلية للجماهير الغفيرة التي تحتشد في كل مكان يظهر فيه جمال عبد الناصر. هل صحيح أن «الأجهزة» هي التي تجمع العمال من مصانعهم والفلاحين من مزارعهم والطلاب من مدارسهم «وترتب» كل هذه الجموع؟ هل في إشاعات قاسم أي قدر من الصحة؟ ولكن كيف يمكن حشد مليون شخص مهما كانت كفاءة الأجهزة؟ لا يزال فؤاد مقتنعاً أن عواطف الجماهير الحقيقية إزاء جمال عبد الناصر هي عواطف الحب والولاء، وليست مجرد مظاهر خادعة من صنع الأجهزة. أمّا أولئك الذين لا يزالون معجبين بسعد زغلول فمجرد مومياءات محنطة تجاوزها التاريخ. لا يستطيع فؤاد أن يتخلص من الفكرة التي توسوس له أن شعبية جمال عبد الناصر داخل مصر تقل بكثير عن شعبيته خارجها. إلا أن هذا أمر طبيعي. قديماً قيل «لا كرامة لنبي في وطنه». ولا لزعيم قومي.

* * *

«القطار مليء بالضجيج، ضجيج من الداخل وضجيج من الخارج. في الداخل، مزيج غريب من الأصوات البشرية الباكية، الضاحكة، المشفقة من الفراق، والمتطلعة إلى اللقاء. وفي الخارج مزيج أكثر غرابة من الأصوات. الباعة، المفتشون، الشياّلون، والصفافرة، واصطدام العجلات الحديدية الثقيلة بالشريط الحديدي. غير أن هذا الضجيج كله لا يستطيع أن يطغى على الخواطر التي تصطبغ في عقل الدكتور محمد. الدكتور؟! تعود على هذا اللقب حتى أصبح جزءاً من اسمه، رغم أنه ليس دكتوراً بعد. لا يزال في السنة الثالثة من كلية الطب، وأمامه مشوار طويل قبل أن يصبح دكتوراً حقيقياً. إلا أن تقاليد الكلية العريقة تضيف على الطالب اسم الدكتور منذ السنة الأولى. كل من حوله يسميه الدكتور محمد، أقاربه، الكمساري، زملاؤه وزميلاته في الكلية، الجميع باستثناء الدكاترة الحقيقيين الذين يدرّسونه.

خواطره تسابق القطار وتسبقه وتصل إلى محطة طنطا. وتقفز إلى سيارة الأجرة. وتذهب إلى بيت أبيه الجديد، البيت الذي لم يره بعد. وتشاهد زوجة أبيه الجديدة، الزوجة التي لم يرها بعد. منذ زواج أبيه، قبل أكثر من سنة، وعلاقته بأبيه مقطوعة. لم ير أباه طيلة هذه الفترة، وكان يتدرّج بالدراسة ليظل في القاهرة. انتهت زيارته الشهرية لطنطا. إلا أنه لم يبحث موضوع الزواج مع أبيه، لا مباشرة ولا بصفة غير مباشرة. كانت

طبيعة العلاقة القائمة على الإحترام الكامل والطاعة العمياء لا تسمح بإثارة الموضوع.

الغريب أن أمه التي فوجئت بزواج أبيه كما فوجئ، تقبلت الأمر الواقع وتأقلمت معه. بل إنها بذلت أقصى جهدها لإعادة العلاقة بينه وبين أبيه. خلال زياراتها إلى القاهرة، وعبر رسائلها، كانت النصائح تتوالى. «الدم لا يتحول إلى ماء»، «الظفر لا يخرج من اللحم». ولكن الدكتور محمد لا يستطيع أن يغفر لأبيه فعلته. لا يستطيع أن يفهم السبب الذي يدفع رجلاً تجاوز الستين إلى زواج امرأة في سن أولاده. لا يمكن أن يتقبل الوضع، ولو قبلته أمه، وأقاربه، والناس جميعاً.

لماذا، إذن، ينطلق بالقطار إلى أبيه، وإلى المرأة التي حولت الدم إلى ماء ونزعت الظفر من اللحم؟ قاتل الله المرض!. قاتل الله التلغراف الذي جاء وفيه سطر واحد: «أبوك مريض بالقلب. احضر حالاً. فردوس». لم يكن ثقة خيار. جعله التلغراف ينسى كل شيء سوى تلك الرغبة العارمة في أن يرى أباه قبل موته، أن يقبله، أن يلثم جبينه ويديه، كما كان يفعل قبل أن تجيء هذه «الفردوس». من أين جاءت؟ وكيف؟ كل ما يعرفه أنها كانت تتردد، يومياً، على بقالة أبيه حتى وقع في حبائلها، وتزوجها. وها هي ذي الآن تقتله. ماذا يتوقع عجوز يتزوج فتاة صغيرة - سوى النوبة القلبية؟

تتراجع المشاهد، وتتداخل. القطار، المحطة، عمه وأخوه الأصغر في استقباله. والبيت الجديد. والزوجة الجديدة. يُفاجأ الدكتور محمد أنها أجمل بكثير مما كان يتوقع، وأكبر سنًا مما كان يظن. كانت ترتدي ملابس في غاية الحشمة. وتنظر إليه على استحياء. ويحمر خداهما بعنف إذا وقعت عينها على عينه.

على الفور، دخل الدكتور محمد نقاشاً طويلاً مع الطبيب الذي يعالج أباه. وتبين أن النوبة لم تكن خطيرة كما توقع الطبيب في البداية. يعتقد الطبيب الآن أن أباه يحتاج إلى أسبوعين من الراحة قبل أن يستأنف نشاطه الطبيعي. كانت فرحة أبيه بلقائه أكبر من أن يحاول إخفاءها. ربما كان أبوه سعيداً بهذه النوبة التي أعادت إليه ابنه الأكبر. يلتفت الأب إلى فردوس:

- حضري الأوضة يا فردوس للدكتور محمد.

ويتدخل محمد:

- لكن يا آبه..

- حضري الأوضة يا فردوس.

وتتكلم فردوس:

- وحياتك يا سي محمد. يمكن نعوز دكتور في الليل والآن حاجة.

لم يسمع «سي محمد» منذ فترة طويلة. لم يكن بوسعه أن يخالف رأي أبيه الذي لا يزال طريق الفراش. ذهب الى البيت القديم. وقضى بعض الوقت مع أمه. ثم عاد الى البيت الجديد وأوضة الضيوف.

القطار يغادر محطة طنطا. والدكتور محمد مُحَمَّل بما لذ وطاب من الأطعمة، بعضها من أمه ومعظمها من فردوس. وذكرى الليلتين اللتين قضاهما في البيت الجديد لا تفارق ذهنه.

- تصبح على خير يا سي محمد.

- صباحك قل يا سي محمد.

كأس الحليب الدافئ في الليل. وفنجان الشاي الساخن في الصباح. وخذاها يحمران بعنف كلما التقت عيناها. أصيب الدكتور محمد بما يشبه الغثيان.

فؤاد يسأل عبد الرؤوف:

- هل أعجبتك القصة؟

- مثيرة جداً. ماذا سميتها؟

- الغثيان.

- الغثيان؟! هل بدأت تقلد كامو؟

- لِمَ لا؟ ألم يكتب معظم قصصه عن طنطا؟

- هل يمكن أن أسألك سؤالاً؟

- تفضّل.

- كم عمر الست خيرية؟

- سؤال غريب. ما علاقة الست خيرية وعمرها بقصتي؟

- أجب عن السؤال.

- لا أدري. تقول انها في الثلاثين وأعتقد انها تجاوزتها.
- هل هي جميلة؟
- لقد رأيتها بنفسك يا رؤوف مراراً. ما هذا السؤال السخيف؟
- أعني هل هي جميلة في نظرك؟
- ما علاقة السؤال بالقصة؟
- القصة عنكما. الدكتور محمد هو فؤاد وفردوس هي الست خيرية.
- ألم نتفق يا رؤوف على أن الأدب الذي ينقل الواقع ليس أدباً؟
- واتفقنا أيضاً على أن الأدب الذي يفقد كل صلة بالواقع يصبح مجرد هلوسة. ثم انك لم تنقل الواقع. لقد أضفت اليه الكثير من البهارات والرتوش. الابن. وزوجة الأب. وطنطا. لماذا اخترت طنطا؟
- منذ متى كانت القصص القصيرة بحاجة الى مذكرات تفسيرية؟
- هذه القصة بالذات تحتاج الى مذكرّة تفسيرية.
- ماذا تعني؟
- أعني هل حدث شيء بين الست خيرية وفؤاد؟
- لسنا من الكاثوليك. ولست قسيساً.
- حسناً. مثل حدث شيء بين الدكتور محمد وفردوس؟
- كلاً. إلا إذا كنت تسمي كأس الحليب وفنجان الشاي «شيئاً».
- أتدري لماذا أصيب الدكتور محمد بالغثيان؟
- أفدني، أفادك الله.
- لأن الطالب الذي يسكن مع الست خيرية اكتشف أن العلاقة بينهما لم تعد علاقة ابن بأمه، ولا بزوجة أبيه.
- قبّحك الله!

* * *

لو أن أحداً أخبر عبد الكريم أن الحب عندما يجيء سيجيء بهذا العنف لما صدّقه. لو قرأ عن حب عاصف كهذا في رواية لأعتبره مبالغة من خيال الكاتب. لو شاهد حباً جباراً كهذا في فيلم لعدّه من قبيل «المخرج عاوز كده». ما الذي حدث؟ ما الذي حدث؟ من اللحظة التي رأى فيها فريدة،

فريدة حسين عياد، من اللحظة الأولى وهو في حالة حُب غامر تملك كل مشاعره. عندما رأى القوام القصير المشوق، والصدر النافر، والفم المكتنز، والعينين السوداوين الواسعتين، تحوّل، على الفور، الى «مجنون فريدة» كما تحوّل قيس، قديماً، الى «مجنون ليلي». «مجنون فريدة» وصف يطابق واقعه بدقة وليس مجرد تشنّيع أطلقها قاسم وتلقفها الأصدقاء. يوم عبد الكريم لا يبدأ إلا برؤية فريدة، ولا ينتهي إلا عندما تزول امكانية رؤيتها. أشيك فستان في الوجود فستان فريدة. أجمل أوتوبيس في التاريخ أوتوبيس ١٣ الذي يحضر فريدة الى الكلية ويعيدها الى البيت. أجمل حيّ على ظهر الأرض هو السيدة زينب، حيث يقع شارع رشدي باشا، حيث تسكن فريدة.

لو أن عرافاً قال لعبد الكريم انه سيصبح، ذات يوم، مخبراً يطارد فتاة عبر شوارع القاهرة لضحك. لو أن منجماً أخبره أنه سيتحول، ذات يوم، جاسوساً يتسقط الأخبار والمعلومات عن زميلة من زميلاته لابتسم. وها هو ذا الآن يتحوّل، من غير أن يشعر، الى مخبر وجاسوس. تبعها في الأوتوبيس مرّات لا يستطيع أن يحصيها. أصبح يعرف أسماء صديقاتها وأصدقائها (الذين يفترض أن يعتبرهم زملاءها). أصبح يعرف عدد فساتينها وأحذيتها. أصبح يعرف متى تغادر منزلها ومتى تعود اليه. والغريب انه يعرف كل شيء عنها وهي لا تعرف حتّى بوجوده. هذه المطاردة تتم بحذر وعن بعد - والبطلة لا تدري شيئاً عنها.

قال له نشأت الذي يتمتع، نرق وسامته، بجرأة خارقة في التعامل مع الإناث:

- يا كريم لا تضيع وقتك. تعرّف عليها.

ونظر اليه عبد الكريم ولم يردّ.

- أنا مستعد أن أتعرف عليها وأقدمك لها.

ردّ عبد الكريم، الذي يعرف أن بوسع نشأت تنفيذ هذه المهمة بسهولة، مدعوراً:

- لا! لا! كتر خيرك. دعها وشأنها. إياك أن تتعرّض لها.

- طيب. طيب. أخبرني إذا غيرت رأيك.

كيف يمكن أن يتحدّث معها؟ لا بدّ أن نشأت فقد صوابه. نظرة واحدة اليها من بعيد، ريحس عبد الكريم أن تياراً كهربائياً يعبر جسمه

كله، شعرة شعرة، خلية خلية. ويبدأ في الارتعاش. ويلحظ كل من حوله الأعراض: اصطكاك الركبتين، ثم انطباق الكفين، ثم الهزة التي تعترى الكتفين، تختفي وتعود. ويهمس يعقوب: «كما انتفض العصفور بلله القطر». ويضحك فؤاد: «الجماعة شرفوا» ويعلق نشأت: «الجوّ وصل». كل هذه الانفعالات لمجرد ظهور فريدة علي باب المدرج، أو في بوفيه الكلية، على بعد شاسع من العصفور الذي بلله القطر.

الوحيد الذي يرقب عبد الكريم بتعاطف تام هو عبد الرؤوف. الوحيد الذي لا يمزح ولا يسخر. كأنّ عبد الرؤوف قد مرّ في الماضي بتجربة شبيهة بتجربة عبد الكريم. أو كأنه يتمنى أن تمرّ به في المستقبل تجربة مماثلة. يجد عبد الكريم عند عبد الرؤوف الأذن المصغية:

- يا رؤوف، كيف يمكنني أن أشرح؟ هذا شعور من نوع جديد تماماً. ربّما كان شبيهاً بشعور الإنسان وهو يدخل الدنيا. أو شعوره وهو يغادرها. أعني انه شعور يختلف جذرياً عن أي شعور مرّ بي من قبل. أحسّ أن أيامي كانت ضائعة بلا هدف، شاحبة بلا لون، فاترة بلا طعم وانها وجدت في فريدة هدفها ولونها وطعمها. القمر يختلف الآن لأنني أرى وجهها منقوشاً عليه. النيل أصبح الآن نيل فريدة، القاهرة القاهرة فريدة، الدنيا دنيا فريدة.

عبد الرؤوف يستمع بصمت وتأثّر ولا يقترح عليه، كما يفعل السفهاء، أن يتعرّف عليها.

* * *

بعد مرور أكثر من سنة على وصوله الى القاهرة كاد فؤاد أن يفقد الأمل في العثور على صديقة. تبين له أن المجتمع المصري، في كثير من جوانبه، لا يقل محافظة عن مجتمع البحرين. واتضح له أن الكلام الذي قرأه في روايات احسان عبد القدوس بعيد عن الدقة. حصيلته العاطفية بعد كل هذه الشهور لا تتعدى اشارات يتبادلها، عن بعد، مع الفتيات في العمارة المقابلة، اشارات تتوقف بغتة مع دخول أحد من أقارب الفتاة البلكونة البعيدة، وبعض المعاكسات التليفونية (الموجودة حتى في البحرين). فيما عدا هذا، لا يوجد سوى الكلام، الكلام الذي لا ينتهي عن البنات.

من البداية كان قاسم مصّراً على أن الطريق الوحيد هو طريق المال -

«البيزات» بالتعبير البحريني - وكان في هذا الموقف منسجماً مع نظريته المادية الى كل شيء في الحياة. لا يعرف قاسم لماذا يضيق زملاؤه أوقاتهم بحثاً عن صديقات، وبالأمكان الحصول على «بنية» في دقائق، بمكالمة تليفونية واحدة وبمبلغ ضئيل من المال. تجمعت لدى قاسم أعداد كبيرة من أرقام «المدامات»، بالإضافة الى تسعيرة للبنيات، تبدأ بجنيهين وتنتهي بخمسة جنيهات لأحسن الموجود. كانت العقبة الوحيدة هي المكان. وقد أخذ قاسم يضاعف جهوده للخروج من «سجن الحشمة» الذي يعيشون فيه الى شقة «يأخذون فيها راحتهم».

غير أن فؤاد يدرك، عندما يخلو الى نفسه، ان المشكلة الحقيقية التي تعترض تقدمه في عالم النساء هي الخجل أو، إذا أراد الدقة، الجبن. هناك فتيات في كل مكان، عند محطة الأتوبيس، في الأتوبيس، في العمارة نفسها، ولكن المشكلة في الجرأة التي تتطير في آخر لحظة. الإشارة الى فتاة في بلكونة بعيدة شيء أما الحديث مع فتاة وجهاً لوجه فشيء آخر. يعرف فؤاد، في قرارة نفسه، انه ما لم يتغلب على هذه المشكلة فلن تكون له صديقة في القاهرة ولو أمضى فيها مائة سنة.

بعد هذا كله جاء تعرفه على أول زميلة حدثاً مذهلاً في سهولته وعفويته. كان في الطابور أمام المكتب الذي يتولى توزيع الملازم عندما سأله الفتاة التي تقف وراءه:

- هل تعرف كم ملزمة صدرت اليوم؟

وأجاب:

- ملزمة في المدخل. وملزمة في الروماني. وملزمتان في الشريعة.

- هل تظن أننا سنحصل على بقية الملازم قبل نهاية النرم؟

- هذا ما يقولون. ولو أنني أشك في ذلك.

قالت له الفتاة:

- انهجتك ليست مصرية. من أين أنت؟

- من البحرين.

لم تكن هناك علامات الاستغراب المعهودة. يبدو أنها سمعت عن البحرين من قبل.

وأضاف فؤاد:

- ماذا عنك؟ لهجتك، بدورها، ليست مصرية.

- أنا من الشام. سعاد وزّان.

- فؤاد الطارف.

ووجد نفسه يمدّ يده، ويتصافحان. تأمل وجهها المستدير المشرب بحمرة، المحاط بهالة من الشعر الأشقر، وعينيها الخضراوين، وقال:

- عجيب أنني لم أرك في المدرّج.

- كيف تراني؟ البركة في الشيخ أبو زهرة.

الشيخ محمد أبو زهرة هو رئيس قسم الشريعة الإسلامية ووكيل الكلية. وهو في معركة دائمة ضد الإختلاط تنتهي، عادة، بهزيمته. إلا أن الشيخ لا يستسلم بسهولة. في بداية الترم أصدر قراراً بأن يخصص قسم في يسار المدرّج للطالبات، لا يجوز لهن تجاوزه، ولا يجوز للطلاب اقتحامه.

ضحك فؤاد:

- ما رأيك في الشيخ؟

- رجعي! رجعي من الطراز الأول. نحن في القرن العشرين وأبو زهرة يريد إعادتنا الى القرون الوسطى. كيف تضع حكومة ثورية رجلاً رجعيًا في وظيفة كهذه؟ وفي كلية الحقوق؟ الكلية التي يفترض أن تُدرّس العدل والمساواة، المساواة بين الصغير والكبير، والفقير والغني، والرجل والمرأة.

يدهش فؤاد لحدة الانفجار ويقرّر أن يستثيرها:

- ولكن كيف يمكن أن نساوي بين الرجل والمرأة؟ هناك فروق أساسية.

هل تنكرين هذا؟

وترد على الفور:

- هذا من تأثير أبو زهرة وبقية أصحاب العمام. هناك فروق. بطبيعة الحال، هناك فروق. الرجل لا يحمل ولا يلد ولا يعاني من العادة الشهرية. ولكن هل هناك فروق غير هذه؟ هل هناك فروق في الذكاء؟ أو القدرة؟ أو الموهبة؟ أو المشاعر؟

لأول مرة يسمع فؤاد تعبير «العادة الشهرية» خارجاً من فم فتاة. والفتاة تتحدث بلا حرج كما لو كانت تتكلم عن عادة القراءة أو الكتابة. يحمّر وجهه خجلاً، وتلاحظ ما حدث:

- خجلت من ذكر العادة الشهرية؟ أتعرف لماذا؟ لأنهم غسلوا دماغك. لأنهم درّسوك أن المرأة عورة لا يجوز الحديث عنها، ولا عن عاداتها. بعد أكثر من ساعة كان الحوار الساخن بينهما لا يزال متصللاً. لم يحتج فؤاد إلى أي قدر من الجرأة لدعوتها إلى بوفيه الكلية. ولم تتردد سعاد قبل الموافقة.

تلك الليلة، قبل أن ينام، استعرض فؤاد ما حدث أمام مكتب توزيع الملائم وقرّر أنه قد أصبحت له الآن صديقة. تمّ كل شيء بلا تخطيط، وبلا تفكير. أحسّ أنه يعرفها منذ زمن بعيد، وأنّها، بدورها، تعرفه من سنين. تحدّث معها كما يتحدّث مع قاسم أو عبدالرؤوف، بحريّة، من غير خفكان في القلب أو برودة في الأطراف. في لقائهما الأول هذا، تكلّما، وتناقشا، واختلفا، وعلت أصواتهما، شأنهما شأن الأصحاب القدامى. وعندما افترقا لدخول المحاضرة، هو مع الذكور وهي في سجن أبو زهرة، كانا قد اتفقا على لقاء في الغد، في البوفيه نفسه.

وجد نفسه يقابلها كل يوم. ويمضي عدة ساعات في الحديث معها. لم يكن في الحديث شيء عن الرومانسية أو الأدب أو توافه الأمور. كان، برمته، حديثاً عن السياسة والثورة ومستقبل الأمة العربيّة. أخبرته سعاد أنها بعثية ملتزمة. وسألها:

- ما ضرورة الانخراط في حزب؟

- يا فؤاد! من غير حزب طليعي قائد لن تتمكّن الأمة العربيّة من أداء رسالتها الخالدة. لا بُدّ من حزب رائد يتغلغل في كل مكان من الوطن العربي، يعلم الجماهير، وينظمها، ويحرّكها، وفي الوقت المناسب يفرض الوحدة العربيّة، يصهر الكيانات القطرية في الدولة القومية الواحدة. كيف يمكن أن يتم هذا كلّ من غير الحزب؟

- جمال عبد الناصر يحقق الآن هذا كلّ.

- جمال عبد الناصر زعيم سياسي عظيم. ولكنه زعيم بلا رؤية. بلا أيديولوجية. من دون حزب كالبعث العربي الاشتراكي لن يستطيع أن يحقق شيئاً باقياً. عواطف الجماهير لا تدوم. ما يدوم هو التنظيم الحزبي.

في الماضي، كان فؤاد يحلم بصديقة تأخذه، عبر عوالم النشوة، إلى موائد مقمرة على النيل، وإلى أمسيات حاملة في حضن الأهرام. كان يتخيّل نفسه مع هذه الصديقة يسيران، بعد منتصف الليل، يداً بيد،

يتحدثان عن الحب، عن دموع الياسمين، وعن أفراح الشروق. الآن، يجد نفسه في دوامة من الكتب والنظريات والمصادمات الفكرية الشرسة. أي قدر عجيب جعل هذه الشامية الشقراء الحسناء بعثة ملتزمة؟ وأي قدر أعجب ساقه الى هذه البعثة الملتزمة؟

كان فؤاد قد سمع عن حزب البعث في المدرسة الثانوية. كان الأستاذ محسن من المدرسين البحرينيين القلائل في المدرسة، وكان قد تلقى شهادته الجامعية، ومبادئ حزب البعث، من الجامعة الأمريكية في بيروت. حاول الأستاذ محسن إغراء الطلبة الذين يتوسم فيهم النضج بالدخول في عالم البعث. وكان فؤاد من بين هؤلاء الطلبة. أعطاه الأستاذ كتاب ميشيل عفلق «في سبيل البعث» غير أن فؤاد لم يتمكن من إكماله. ولم يكذب فهم منه شيئاً. كانت الأمور، كما بدت لفؤاد وقتها وكما تبدو له الآن، لا تحتاج الى أكثر من الجماهير العربية وجمال عبد الناصر. أي شيء يدخل بين القائد وجنوده، مهما كان اسمه، هو بعثرة للجهود وضعية للوقت. تحاول سعاد أن تجتذبه الى البعث، وتستخدم كل أسلحة المنطق:

- يا فؤاد! ألا تؤمن بالوحدة؟ ألا تؤمن بالحرية؟ ألا تؤمن بالاشتراكية؟ هذه هي مبادئ البعث. ما دمت مؤمناً بها فأنت بعثي، أدركت ذلك أو لم تدرك.

- يا سعاد! أؤمن بالوحدة لأنها تعني قيام دولة عربية واحدة. وأؤمن بالحرية لأنها تعني التخلص من الاستعمار. ولكنني لا أفهم ما هي الاشتراكية. كيف أؤمن بشيء لا أنهمه؟

- احذر! احذر يا فؤاد أن تترك جذورك الطبقية تتسلل الى تفكيرك. المثقفون الشرفاء يستطيعون تجاوز الطبقة، والانتماء الطبقي. كما فعل تولستوي، والأستاذ.

- أيي أستاذ؟!

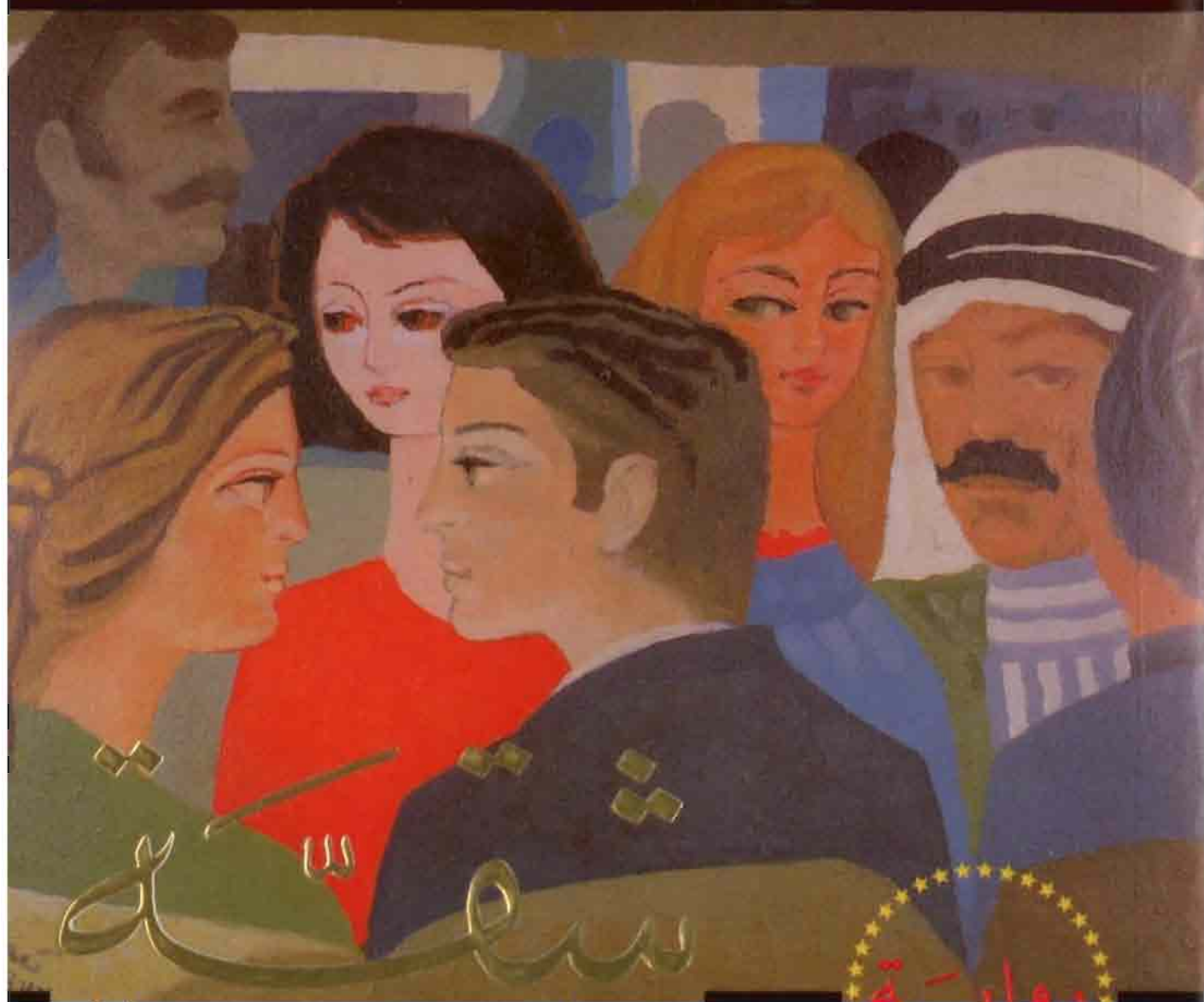
- الأستاذ ميشيل عفلق بطبيعة الحال.

- ولكن ما هي الاشتراكية؟ قرأت بعض كتابات الأستاذ ولم أجد فيها تعريفاً واضحاً للاشتراكية.

- الأستاذ شرح الاشتراكية كما لم يشرحها أي منظر قبله، ولن يشرحها أي كاتب بعده. لا بُدَّ أن تعيد قراءة كتب الأستاذ. سنقرأها معاً، ونناقشها.

- فؤاد يسأل عبد الرؤوف: .
- ما رأيك في الاشتراكية يا رؤوف؟
- الاشتراكية؟ من أين جئت بهذا السؤال؟ من صاحبك الشامية؟
- نعم. ما رأيك في الاشتراكية؟
- أيّ اشتراكية تقصد؟
- هل هناك عدة اشتراكيات؟
- بالتأكيد.
- ما هي؟
- هناك اشتراكية الماركسية أي الشيوعية. وهناك اشتراكية حزب العمال في بريطانيا، أو الديموقراطية الاجتماعية. وهناك اشتراكية الحالمين. عن أي اشتراكية تتحدّث؟
- أتحدّث عن الاشتراكية التي لا تحرم الوطن من قدرات المواطن لمجرد انه ولد فقيراً. الاشتراكية التي تعني انتصار الحياة على الموت. الاشتراكية القدر!
- هل هذه اشتراكية البعث؟
- نعم.
- هذه مجرد شعارات فارغة لا تعني شيئاً. اشتراكية الحالمين.
- وماذا عنك يا رؤوف؟ بأي اشتراكية تؤمن؟
- لا أؤمن بالاشتراكية لأنني أؤمن بالاسلام.
- ما علاقة هذه بذلك؟ الاسلام دين والاشتراكية مذهب اقتصادي.
- الاسلام منهج متكامل. رؤية شاملة تنظم كل شيء. شؤون الاقتصاد وشؤون السياسة والسلوك الشخصي والعبادات. لا يمكن أن تنتقي من هنا وهناك مبادئ ونظريات. إمّا أن تكون مسلماً أو تكون اشتراكياً.
- رؤوف، هذه نظرة رجعية. لم أكن أعرف انك تعتنق مثل هذه الأفكار من قبل.
- لم تسألني من قبل.
- رؤوف! أجبني بصراحة. هل تتعاطف مع الأخوان المسلمين؟

غازي عبد الرحمن القصيبي



سيرة
الحسنية

رواية

الطبعة الخامسة



رياد الريس
RIAD EL-RAYES
BOOKS

احمرّ وجه عبد الرؤوف ولم يجب. ولاذ فؤاد، بدوره، بالصمت وهو يكتشف أن معرفته الوثيقة بعبد الرؤوف أكثر من سنة لم تجعله يرى منه سوى السطح الخارجي.

بدأت أسئلة ثقيلة جديدة تهاجم رأس فؤاد من كل جانب. هل الاشتراكية علاج الفقر الوحيد؟ ما هي حدود الاشتراكية؟ من أين جاءت أفكارها، من الإسلام، أم من كارل ماركس، أم من الأستاذ؟ هل في كلام عبد الرؤوف أي قدر من الصحة؟ هل كل الاشتراكيين أعداء للإسلام؟ هل الاشتراكية ضرورية الآن؟ هل جمال عبد الناصر اشتراكي؟ قاسم، كالعادة، يعرف كل الأجوبة:

- حذرتك يا فؤاد وأندرتك. حذرتك من هذه البنية. قلت لك انها شيوعية. لا يغرك هذا الكلام الفاضي عن الاشتراكية. لا يوجد شيء اسمه اشتراكية. هذه دعاية لتضليل المغفلين. هناك النظام الشيوعي المطبق في روسيا والنظام الرأسمالي المطبق في أمريكا. وبس! هؤلاء البعثيون شيوعيون كلهم - وأولهم الأستاذ محسن في البحرين.

من العبث التفاهم مع قاسم.

عبد الكريم، هو الآخر، لا يرى أن الاشتراكية تستحق شيئاً من اهتمامه:

- أرجوك يا فؤاد. دعني في حلمي الجميل. دعني أفكر في فريدة. كن اشتراكياً إذا شئت ولكن لا ترزعجني بهذه الخرايط. الاشتراكية «خرايط»؟!

ذهب فؤاد مع سعاد الى سينما «ميترو»، مرة. وتناولوا الغداء في جزيرة الشاي، مرة. وزارا جنينة الأسماك، مرة. وفي كل مرة كان الأستاذ، كالشيطان، ثالثهما. نظريات الأستاذ، عبقرية الأستاذ، نضال الأستاذ. لاحظ فؤاد أن حبه العميق لجمال عبدالناصر يتلاشى أمام تقديس سعاد، الذي يصل الى العبادة، للأستاذ. أخذ يشعر بالغيرة. عندما أمسك يدها وهما في الطريق الى الأوتوبيس الذي سيحملهما من الأهرام الى القاهرة، تقبّلت يدها يده بلا مقاومة. كانت الأصابع مشتبكة، والحرارة تسافر من جسدها الى جسده، إلا أن الحديث كان عن مفهوم «الانقلاية» في فكر الأستاذ.

كانا في نشوة القبلة الأولى، على مقعد بقرب النيل، أمام بيت

الطالبات حيث تسكن سعاد، وكان شعرها الأشقر يرّف على وجهه، وعطرها ملء رثتيه.

قالت:

- هل تحبني يا فؤاد؟

- نعم يا سعاد.

- قلها.

- أحبك يا سعاد!

- هل ستتنضمّ الى الحزب؟

- نعم يا سعاد!

وضاعا في القبة الثانية.

قبل أن ينام أدرك فؤاد أنّه، في سن الثامنة عشرة، قبل فتاة لأول مرّة في حياته، وأنّه قال لفتاة، لأول مرّة في حياته، انه يحبّها، وأنه قرّر، في سن الثامنة عشرة، لأول مرة في حياته، أن ينخرط في حزب سياسي. كل هذا في مساء واحد. يا له من مساء! يا له من مساء!

۴

فبرایر
مارس ۱۹۵۸

أحلاماً نرى؟ أم زماناً جديداً؟ أم الخلقُ في شخص حيٍّ أعيداً؟
المتنبي

كيف أمكن أن يحدث كُـلُّ ما حدث خلال أسابيع، بل خلال أيام قلائل؟ بما يشبه المعجزة، المعجزة داخل حلم، الحلم داخل أمنية، تتابعت الأحداث وتلاحقت. حشود في الميادين السورية. رئيس جمهورية سوريا يصل الى القاهرة. اتفاق مبدئي على الوحدة بين مصر وسوريا. تصديق المجلس النيابي السوري. تصديق مجلس الأمة المصري. استفتاء الشعبين. قيام الجمهورية العربية المتحدة. انتخاب جمال عبد الناصر رئيساً للدولة الفتية الجديدة. ويُجنّ العالم بأسره. تجنّ الجماهير العربية فرحاً. ويجنّ المستعمرون وأعوانهم وإسرائيل غضباً. تبدو الوحدة العربية الشاملة الآن هدفاً يذاعب أصابع اليد.

يهمس فؤاد:

- لا أصدّق يا سعاد. لا أصدّق أن الذي حدث قد حدث.
- لم تستغرب يا فؤاد؟ انها ساعة الانطلاق. ساعة الميلاد. ساعة البعث.
- ولكن كيف تمّ كل شيء بهذه السرعة؟ ان رأسي يدور.
- هناك ثلاثة أسباب. الحزب. والجماهير. وجمال عبد الناصر. كان الأستاذ أول من أطلق فكرة الوحدة وانتشرت بين الجماهير في القطر السوري كالنار في الهشيم. وكان وجود زعيم مثل جمال عبد الناصر فرصة تاريخية. وكان ما كان.
- لا أزال عاجزاً عن التصديق.

يُفاجأ فؤاد بموقف الأستاذ شريف من الوحدة، وبالطريقة العنيفة التي يُعبّر بها عن رأيه:

- ما هذا الكلام الفارغ؟ ما هذا العبث؟ ما هذه المسخرة؟ يُلفى اسم

نصر؟ هذا الاسم التاريخي العظيم يتحول الى اقليم جنوبي؟ شيوعيون في دمشق يفرضون رأيهم علينا ونقبل.

- الشيوعيون يا أستاذ شريف ضد الوحدة. هذه رغبة الجماهير.

- الجماهير؟ أية جماهير يا فؤاد؟ هل رأيت أحداً يحتفل هنا سوى الحكومة ومنظماتها؟ أتعرف ما سيحدث؟ سوف نصرف كل مواردنا على الشوام. ونتحمل كل مشاكلهم. سوف يجيئون هنا وينافسوننا في كل مجال. الشوام أشطر تجار في العالم. قل على الاقتصاد المصري السلام.

يجد هذا الرأي الرجعي، بطبيعة الحال، تعاطفاً كبيراً عند قاسم الذي يضيف معلومات جديدة يستقيها من مخزون إشاعاته الذي لا ينضب:

- هل تعرف حقيقة ما حدث؟ عشرة ضباط في الجيش السوري قالوا لجمال عبدالناصر: «إما أن تقبل الوحدة أو نترك سوريا للشيوعيين». ووافق صاحبكم فوراً. ولم لا يوافق؟ المزيد من السلطة. رحمة الله على سوريا!

يتنهّد فؤاد:

- يا قاسم! هل أنت أعمى؟! ألا ترى بعينيك كل هذه الملايين؟ ألا ترى كيف حملت الجماهير السورية سيارة جمال عبد الناصر؟ ألا ترى ما يحدث في كل مكان يزوره؟ أي عشرة ضباط يستطيعون عمل هذا كله؟!

- أنت يا فؤاد طيب القلب تغتر بالمظاهر. تصدّق كل ما تسمع. هذه الجماهير نفسها سوف تنقلب على جمال عبدالناصر لو سمعت كلاماً مختلفاً من الإذاعة، وتهتف ضده.

- نصف إذاعات العالم تهاجم جمال عبد الناصر ومع ذلك فالجماهير تهتف له. في دمشق. وفي بيروت. وفي بغداد. وفي تونس. وفي المنامة.

- الدعاية، يا فؤاد، الدعاية! لو أن صوت العرب يقول عني ما يقوله عن جمال عبد الناصر لرأيت هذه الجماهير تهتف لي بدلاً منه.

- ده بعدك!

بعد ليلة التبلّة التاريخية بأيام انضم فؤاد، رسمياً، الى حزب البعث. فوجيء أن سعاد التي قرر أن يدخل الحزب من أجل عينيها لن تكون في مجموعته لأنها تنتمي الى مجموعة أخرى أعلى. كانت مجموعته تتألف من أربعة أعضاء. وعُقد الاجتماع الأول في شقة المسؤول عن المجموعة الذي بدأ الاجتماع بقوله:

- فلنتعارف أولاً. أنا بسلام نويلات من الأردن. الرفيق هنا ماجد الزبير من السعودية. الرفيق هنا فؤاد الطارف من البحرين. والرفيق هنا محمد عسيلي من لبنان. والرفيقة هنا فيكتوريا نصار من العراق. أهلاً وسهلاً بكم في الحزب.

وقعت كلمة رفيق كالمطرقة على رأس فؤاد. كان يتصور أن استخدامها وقف على الشيوعيين. تململ في مقعده ولاحظ أن ماجد الزبير كان، بدوره، يتململ. وتبادلا النظرات الصامتة. واستطرد بسلام:

- الدرس الأول هو ضرورة السرية المطلقة. أنتم جميعاً تعلمون أن النشاط الحزبي محظور في القطر المصري. لو عرفت السلطات أن لقاءنا اليوم اجتماع حزبي لتعرضنا للملاحقة وربما دخلنا السجن. من الضروري مراعاة الحذر حتى عند التعامل مع أقرب الناس. لا بُدَّ أن تتعلموا الحيلة فجميعكم ستكونون عرضة للمطاردة عند عودتكم إلى أقطاركم.

انقضى الاجتماع الأول بأكمله في المسائل التنظيمية. وبدا الأمر لفؤاد غريباً بعض الشيء. كلمات السرّ، والألغاز التي تستخدم عند الحديث على التليفون، والأسلوب المتلوي لترتيب الاجتماعات. وعندما انتهى الاجتماع خرج فؤاد وهو يتنفس الصعداء.

ثم توالى الاجتماعات، بمعدل مرة كل أسبوع. وكان محور النقاش، في البداية، دستور الحزب والمبادئ الأساسية:

* الأمة العربية وحدة روحية ثقافية، وجميع الفوارق القائمة بين أبنائها ثانوية تزول قيمتها بيقظة الوجدان العربي.

* الأمة العربية وحدة اقتصادية سياسية لا تتجزأ ولا يمكن لأي من الأقطار العربية أن يستكمل شروط حياته منعزلاً عن الآخر.

* الوطن العربي للعرب، ولهم وحدهم حق التصرف بشؤونه وثرواته وتوجيه مقدراته.

ومع كل مبدأ، كانت الأسئلة تندفق. ما معنى الوحدة الروحية؟ ما دور الاسلام في تكوين هذه الوحدة الروحية؟ كيف تتحقق الوحدة السياسية؟ ما موقف الحزب من الانقلابات العسكرية؟ كيف يتصرف العرب في ثرواتهم؟ هل التأميم هو أفضل سبيل؟ ما هي الاشتراكية العربية؟ وماذا عن علاقة الحزب بجمال عبد الناصر؟

كان السؤال الأخير أكثر الأسئلة إلحاحاً على ذهن فؤاد. مع قيام

شقة الحرية

رواية

غازي عبد الرحمن القصيبي



RIAD EL-RAYES
BOOKS

رياضة الأديب للكتاب والنشر

الجمهورية العربية المتحدة حلّ حزب البعث في سوريا نفسه نزولاً عند رغبة جمال عبد الناصر الذي اشترط حلّ الأحزاب. توقع فؤاد أن تنتهي اللقاءات الحزبية بصيغة تلقائية. إلا أن هذه اللقاءات لم تتأثر على أي نحو بقرار حلّ الحزب. سأل سعاد:

- لقد حلّ الحزب نفسه فلماذا نواصل اجتماعاتنا هنا؟

- قرار الحلّ يقتصر على سوريا. ولكننا لسنا في سوريا. نحن هنا لا نمارس نشاطاً حزبياً داخلياً. نحن نعمل لصالح الأمة العربية كلها وتوقفنا خيانة لهذه الأمة.

- ولكن كيف يستمر نشاطنا هنا إذا كان النشاط الرئيسي في دمشق توقف؟

- حلّ الحزب لا يعني توقف النشاط. تحوّل الحزب الآن عنصراً أساسياً في الحكومة. وسوف يستمر في العمل من موقع الشريك.

- ليس لجمال عبد الناصر شريك في السلطة يا سعاد، ولن يكون له. سوف يحكم سوريا كما حكم مصر بلا أحزاب، معتمداً على الجماهير. لو كان يستطيع التعاون مع الأحزاب لتعامل مع أحزاب مصر.

- الوضع في سوريا يختلف تماماً. لا تنس أن الحزب هو الذي سلّمه مقاليد سوريا. نحن الذين علّمنا الجماهير الوحدة. نحن الذين طالبنا بالوحدة الفورية. سوف يكون هو رئيس الدولة أما القيادة الفكرية والسياسية فسوف تكون لنا.

- في كلامك الكثير من التناقض.

- أنت لا تعرف سوريا كما أعرفها. سوف يكون حزبنا الحاكم الحقيقي. أما جمال عبد الناصر فسوف يملك ولا يحكم.

جمال عبد الناصر يملك ولا يحكم؟! *

* * *

إذا كان شهر فبراير من سنة ١٩٥٨ سيدخل تاريخ العرب باعتباره شهر الوحدة المصرية السورية، فانه دخل تاريخ عبدالكريم باعتباره شهر اللقاء. منذ أن عرض عليه نشأت أن يتعرّف على فريدة ثم يعرفه عليها والفكرة تطرّفت كالنحلة في ذهنه. مع كل يوم يمرّ كانت مشاعره نحو فريدة تزداد عنفاً. وكان يزداد اقتناعاً أنه لا يمكن أن يعيش الى الأبد في قبضة

الرعشة والخوف مراقباً من بعيد. مع رسوخ هذه الحقيقة في تفكيره كانت هناك حقيقة لا تقل رسوخاً: من المستحيل أن يتخذ هو زمام المبادرة.

عندما بدأ التلميح لنشأت بخجل وتردد، قاطعه الأخير:

- اترك الموضوع لي.

بعد يومين جاءه نشأت وعلى وجهه ابتسامة عريضة:

- إبسط يا عم. فرجت. بكره الساعة العاشرة في البوفيه.

لم يستطع عبد الكريم الرد. ظلَّ يحملق في نشأت بذهول. وعندما تمكن من النطق لم تجيء سوى كلمتين:

- ماذا حدث؟

- مرَّ كل شيء بسهولة كما توقعت. استوقفتها، وقدمت نفسي لها، ثم حدثتها عنك، وأبدت استعدادها للتعرف عليك، خاصة عندما عرفت أنك من البحرين.

- ماذا تقصد؟

- لا أقصد شيئاً. لعلها من البعثيات كصاحبة أخينا فؤاد.

- ولكن ماذا حصل بالضبط؟

- حسناً. إليك التفاصيل. كانت في طريقها الى البوابة الخارجية للجامعة، تسير بمفردها. تقدمت اليها وقلت: «تسمح لي يا مدموزيل فريدة بكلمتين؟». وأجابت: «تفضل». فقلت: «أنا نشأت محرم زميلك في الكلية»، فقالت...

- نشأت! لا داعي للسخرية.

- أنا لا أسخر. هذا هو ما حدث والله العظيم.

- أريد أن أعرف ماذا قلت لها عني.

- قلت لها أنك شاب طيب وابن ناس وخجول حبتين وأنتك ترغب في التعرف عليها، فرحبت بالفكرة، والموعد غداً العاشرة.

- ولكن...

- ما فيش لكن! غداً في بوفيه الآداب. لمع الجزمة. واغسل وجهك جيداً. وحاول أن تبدو وسيماً.

لم ينم عبد الكريم تلك الليلة ساعة واحدة، ولا دقيقة واحدة، ولا ثانية

واحدة. كيف يمكن أن ينام وغداً موعده مع فريدة؟ غداً؟ غداً! يكلمها؟
وتكلمه؟! ماذا سيقول لها؟ ماذا ستقول له؟ حاول أن تبدو وسيماً. كيف؟
هل يطلب من نظارته أن تختفي؟ أم يرجو قامته أن تمتد؟ كيف سيبدأ؟
ألف حوار، وألف سيناريو، وألف عبارة تمهيدية، وألف جملة ختامية، وهو
يتقلب على السرير. ثم سمع أذان الفجر. ونهض. وقضى قرابة ساعتين في
الحمام، ضعف المعدل المعتاد. في الساعة، كان في محطة الأوتوبيس. في
السابعة والنصف كان أمام الجامعة. بعدها بلحظات كان أمام بوفيه الآداب
ينتظر أن يفتح أبوابه. كان أول الداخلين وتلقاه العم حسنين الجرسون
ببشاشته المعهودة:

- أهلاً وسهلاً يا كريم بيه. على الصبح كده؟ اللهم اجعله خير.

ردّ باقتضاب:

- قهوة مضبوط.

- سكر زيادة. وشربات. وملبس.

أحسن عبد الكريم بضيق شديد. هل استطاع العم حسنين أن يقرأ كل
هذه الأشياء في وجهه؟

جاءت القهوة. وبدأ عبد الكريم يرتشفها ببطء. ويرقب كيف يفتح
البوفيه عينيه، ويتشاءب، ويتمطى، ويبدأ يومه بهدوء يثير الأعصاب. تمتلىء
طاولة هنا، وفي لحظات تجيء الساندوتشات وأكواب الشاي وفي
لحظات، تفرغ من سكانها. طاولة «البنج بونج» في منتصف البوفيه صامتة
لم تفتح نشاطها اليومي. يرى عبد الكريم على طاولة في طرف البوفيه
مجموعة من طلبة الحقوق، ويتجاهلهم. وهناك دكتور من كلية الآداب
يتناقش مع زميله بانفعال. تمتلىء القاعة الواسعة، وعندما تقترب الساعة من
التاسعة لا يكاد يوجد مقعد واحد شاغر. بغتة، في حركة جماعية، يهبط
كل من في البوفيه لإدراك محاضرة التاسعة. تمر الثواني ببطء، أبطأ من
السلحفاة، أبطأ من زحف المقيّد، أبطأ من كل شيء، ولكنها تمر.
والبوفيه، كالوحش الخرافي، يتلع المئات من البشر ويقذفهم بعيداً عنه في
دقائق. والطاولات تزدحم وتفرغ. وأكواب الشاي والقهوة تنهمر من
الصينيات وكأنها مطر من نوع جديد. والعم حسنين يقدم له فنجان القهوة
الثالث:

- زيادة والنبي يا كريم بيه. زيادة.

العاشرة وخمس دقائق. ثم يقف الزمان. ويتجمّد المكان. وتصبح الأشياء ساحرة مسحورة. وتنفجر الشمس. وتفيض الأنهار. ويأخذ العقل إجازة. وتدخل فريدة وبقرها نشأت، يتحدثان ويضحكان، ويتجهان الى طاولته. ويتكلم نشأت:

- مدموزيل فريدة، أقدم لك صاحبي كريم الشيخ.

- أهلاً وسهلاً. تشرفنا.

كيف استطاع عبد الكريم أن يقول هذه الكلمات الثلاث؟ بأيّ مجهود؟ بعد أيّ نضال؟ يعرف عبد الكريم أن بطلاً من أبطال رفع الأثقال لم يجد قط صعوبة في رفع حملة الثقيل تشبه الصعوبة التي وجدها عند نطقه بهذه العبارة. ثم أصيب بالبكس. لم يعد قادراً على قول شيء. ولم ينقذ الموقف إلا نشأت الذي بدأ ثرثرة لا تنتهي:

- اتفضل يا مدموزيل فريدة، اتفضلي. انتي فطرتي والآ عاملة ريجيم على رأي أهل دمياط؟ أنا ما فطرتش. إيه رأيكو نفطر احنا الثلاثة؟ ساندوتشات الفول هنا هايلة. فشر «جروبي». خذ يا عم حسنين! ثلاثة فول وصلحهم. وثلاثة شاي. إنما خذ بالك شاي نضيف. أصل الشاي هنا على مزاج العم حسنين. مرّة شاي. ومرّة خشب. ومرّة من ده على ده. وإلا إيه يا عم حسنين؟ توصي بالمدموزيل فريدة. جيب من الشاي اللي تخبّيه للبيه العميد.

يُخَيَّل الى عبد الكريم أن نشأت ظل يتحدث شهوراً قبل أن تقطع الطوفان اللفظي تغريدة العندليب:

- مالك ساكت يا كريم؟ اوعى تكون مكسوف.

أدرك عبد الكريم انه إن لم ينطق الآن فسوف يظل صامتاً الى الأبد:
- حأقول إيه بس؟ مش لما تخلص إذاعة صوت نشأت؟ رجاءت ضحككتها أرق مما توقع، وأشهى مما ظن، وأحلى مما يستحق.
وتشجّع:

- تصوري يا مدموزيل فريدة ان نشأت مرّة ابتداء يتكلّم قبل صوت العرب وما خلصش إلا بعديها.

وجاءت الضحكة الثانية.

وبلباقة تحرك نشأت:

- أنا شبت والحمد لله. سبتكو بخير بقى.

كيف استطاع، في اللقاء الأول، أن يروي لها قصة حياته منذ أن ولد الى أن رآها هذا الصباح في البوفيه؟ كيف استطاع أن ينطلق من غير أن يتلعثم، أو يرتبك، أو يتردد؟ أين راحت الارتعاشات والمخاوف؟ وكيف استمعت اليه فريدة كما لو كانت تصغي الى أعظم ملحمة في التاريخ؟

* * *

ليس بوسع يعقوب أن يحدّد، بدقة، اللحظة التي تحوّل فيها من ثائر بلا نظرية الى ثائر له نظريته العلمية. بدأ كل شيء مع تعرّفه على الأستاذ صبحي فرحات، المعيد الذي يدرّسه في «السكشن». لم يكن الأستاذ صبحي معيداً تقليدياً كالآخرين. كان الأول في التوجيهية على القطر كله. وكان الأول في ليسانس الاجتماع. والأول في دبلوم علم النفس. والأول في دبلوم التربية. وهو يمضي سنته الأخيرة في الكلية قبل أن يشدّ رحاله الى باريس للحصول على الدكتوراه. ولم يكن أحد من أساتذة صبحي أو زملائه أو طلبته يشكّ أنه سيكون الأول في الدكتوراه، إن كان في السوربون أوائل وأواخر.

بدأ قصته مع الأستاذ صبحي بمشادة صغيرة. كان صبحي يتحدث عن المجتمعات البدائية وأديانها في الفصل - وكان يقول ان معظم هذه المجتمعات لم تعرف ديانة من أي نوع. أثارت اللهجة القاطعة التي يتحدث بها المعيد رغبة يعقوب في استفزازه. وقاطعه:

- ولكن يا أستاذ ماذا عن آدم؟

- ماذا عن آدم؟

- ألم يكن أول إنسان؟ ألم يكن نبياً؟ كيف وجدت، إذن، مجتمعات بدائية بلا أديان؟

بهدوء، سأله الأستاذ صبحي:

- اسم الأخ إيه؟

- يعقوب الحدي. من البحرين.

- أهلاً وسهلاً. إحنا هنا يا يعقوب بندرس اجتماع، مش شريعة. عاوز تدرس شريعة روح الأزهر.

- ولكن الحقائق يا أستاذ لا تتغير بتغير الكليات. كان هناك آدم!

- اسمح لي أكمل الدرس الآن. وأراك بعدين. ونتفاهم.
- تكررت اللقاءات «بعدين». وفي كل مرة، كان هناك حوار طويل وساخن ومعقد. بدأ الحوار الأول بآدم:
- يا يعقوب، لقد كنت تحاول استفزازي. أشك أنك تؤمن بآدم.
- أعوذ بالله يا أستاذ. كيف لاؤمن بآدم؟!
- في كل ديانة، بدائية كانت أو غير بدائية، هناك أسطورة عن أبي البشر. في كل مكان في العالم، في كل قارة، في كل قبيلة.
- اسمح لي يا أستاذ. أنت تناقض نفسك. كنت تقول في الفصل ان معظم المجتمعات البدائية لم تعرف الأديان. وأنت الآن تقول إنها آمنت بآدم.
- أين التناقض؟ بإمكانك أن تؤمن بآدم من غير أن تؤمن بأي دين. وبإمكانك أن تؤمن بدين من غير أن تؤمن بآدم.
- يا أستاذ صبحي! هل تسخر مني؟
- لا. أتحذث بمنتهى الجدّة. هناك مجتمعات بدائية اعتقدت أن لها أباً هو أب الناس جميعاً ومع ذلك لم تؤمن بأي دين.
- ولكن كيف تفرّق بين الدين والإيمان؟ أليس الدين مرادفاً للإيمان؟
- أحياناً. ولكن ليس بالضرورة.
- كيف؟
- سوف أعطيك مثلاً. أنا، شخصياً، لاؤمن بأي دين، ولكنيؤمن بنظرية ماركس ونظرية فرويد.
- أنت يا أستاذ، أذن، تعبد ماركس وفرويد.
- في اللقاء الثاني، كان الحوار عن ماركس:
- لم كلّ هذه الحماسة يا أستاذ صبحي لماركس؟ ما الذي جاء به ماركس؟
- ماركس هو أول من أثبت، بأسلوب علمي، أن للتاريخ حركة منضبطة تحكمها قوانين ثابتة.
- لمجرد انه قال ان الاقتصاد هو أساس كلّ شيء؟
- لا. لأنه أوضح أن الطبقة الاقتصادية المسيطرة في مجتمع ما تطبع

شقة الحرية

كل جوانب المجتمع بطابعها، من العادات الى القوانين الى الأديان، وبالتالي يستحيل تغيير المجتمع إلا بإزالة هذه الطبقة نهائياً.

- وما الجديد في ذلك يا أستاذ صبحي؟ كل ثورة في التاريخ انطلقت من هذا المبدأ، ازاحة الطبقة المسيطرة.

- كل ثورة في التاريخ نزعّت طبقة ووضعت طبقة أخرى مكانها، ولم يتغيّر شيء. الجديد في النظرية الماركسية أنها عندما تزيل الطبقة الرأسمالية المسيطرة لا تحل محلها طبقة أخرى، بل تحل محلها الشعب الذي يملك وحده كل الثروة.

- هذا كلام جميل ولكنه كلام نظري.

- نظري؟! هذا كلام علمي واقعي. ونحن الآن نراه بأعيننا يُطبق في الاتحاد السوفياتي والصين وأوروبا الشرقية.

- ولكن يا أستاذ في كل هذه الأماكن الذي يحكم هو الحزب وليس الشعب.

- مرحلة الحزب مرحلة مؤقتة كما أوضح لينين، مجرد خطوة نحو الطريق الى الشيوعية الحقيقية.

- ومتى تجيء الشيوعية الحقيقية؟

- في المرحلة التاريخية القادمة.

- وماذا عن ستالين ومجازره؟ خروشوف نفسه الآن يهاجم ستالين.

- التجاوزات الفردية ستحدث دائماً. ولكن النظام المنبثق من مصالح البروليتاريا قادر دائماً على تصحيح المسار.

وكان فرويد محور اللقاء الثالث:

- ما سرّ إعجابك الشديد بفرويد؟

- فرويد هو توأم ماركس الفكري. الجناح الآخر من الفهم العلمي الحقيقي للإنسان. ماركس أوضح لنا كيف تتحرك المجتمعات، وفرويد أوضح لنا كيف يتحرك الأفراد.

- كل ما قاله فرويد أن الجنس هو القوة الأساسية التي تسيّر الانسان.

- لا. هذا وهم شائع يردده أنصاف المعلمين. لم يكن البشر في حاجة

الى فرويد ليدركوا أهمية الجنس. اكتشاف فرويد الأعظم هو العقل

الباطن: تلك الدوافع والخوافز الفعلية التي تحكم السلوك والتي لا يعرف العقل الظاهر عنها شيئاً. قبل فرويد، لم يتحدث أحد عن العقل الباطن، ولا عن القوى التي تتحكم فيه.

- وكل هذه القوى تعود الى الجنس والطفولة والرضاعة؟!

- معظمها. لو انك نظرت الى سلوك من حولك، وكنت علي إمام بنظرية فرويد، لما استعصى عليك فهم شيء. ألا تعتقد، مثلاً، أن الديكتاتور الذي يمارس أقصى أنواع التسلط إنما ينفس عن عقد مترسبة في عقله الباطن؟

- يا أستاذ صبحي! لا تبدأ الحديث عن جمال عبدالناصر! أنت تعرف شعوري نحوه.

- وأنت تعرف شعوري نحوه. مُجَرَّد بورجوازي صغير يحاول أن يصبح بورجوازيًا كبيراً.

شيئاً فشيئاً، كلمة بعد كلمة، وكتاباً عسيراً بعد كتاب عسير، تحوّل يعقوب من ثائر عاديّ الى ثائر ماركسيّ/فرويدي. في نزيج النظرتين مفتاح سحري يتيح ليعقوب تحليل كل ما حوله من ظواهر، سواء كانت جماعية أو فردية. يحسّ يعقوب أنه كان أعمى في الماضي ولم يعثر على عينيه إلا مع هذا المفتاح العلمي. ومع ذلك لم يتمكن يعقوب من متابعة الأستاذ صبحي الى آخر الشوط. لا زال، رغم النظرية الماركسية/الفرويدية يرفض أن يرى في الدين مُجَرَّد أفيون للشعوب، أو مجرد انعكاس لسلطة الأب في عقل الطفل الباطن.

* * *

«كان يعرفها منذ كانا في الثالثة، بل ربّما قبل ذلك. متى يبدأ الطفل معرفة جارتة الطفلة؟ في السنة الأولى؟ أو الثانية؟ لا يدري. ما يدريه أنه منذ عرفها لم يفارقها. أصبحا مضرب المثل في القرية، زينب، أو زوبة، وعبد السميع، أو عبده. يبدآن اللعب مع الفجر، ولا ينتهيان إلا مع الغروب.

ومرّت السنوات. الكتاب: يدخله عبده، أما زوبة فتبقى مع أمها في المنزل. المدرسة: يدخلها عبده، أما زوبة فتعمل مع أمها في الغيط. وبعد ساعات الكتاب والمدرسة، تفتح أمهم عبده وزوبة الحقول الخضراء. وتبدأ

الألعاب الصبائية بين أعواد الذرة، وعلى أغصان الجميزة، وعلى شاطئ الترعة.

ثم كبرت زوبة. أخذت تتحوّل من طفلة الى امرأة. وكبر عبده. بدأ يتحوّل من طفل الى رجل. كم كان عمره عندما بدأ التحوّل، وكم كان عمرها؟ لا يذكر. ما يذكره هو أن تلك الأيام المتأرجحة بين الطفولة والمراهقة شهدت حدثين هامين. أنهى عبده الدراسة في مدرسة القرية واستعد للسفر الى البندر حيث سيسكن مع عمه ويواصل الدراسة في مدرسة البندر. وجاء خطيب لزوبة، ووافق أبوها، وبدأت الاستعدادات للفرح.

يذكر كل لحظة من لحظات ذلك اليوم. كيف التقيا بعيد أذان الفجر، والظلام يلفّ الذرة والجميزة والترعة. يذكر كيف أقبلت مع الضوء الأول، نصف طفلة ونصف امرأة. وكيف استقبلها بوقار يليق بنصف طفل ونصف رجل:

- رايح البندر يا زوبة.
- عارفة يا عبده.
- حتفتكريني يا زوبة؟
- يمكن. وانت؟
- يمكن. إزاي تتجوّزي الحاج يونس؟ ده قد أبوكي؟
- قسمة ونصيب.
- بتحبّيه يا زوبة؟
- المكتوب على الجبين لازم تشوفه العين.
- وأنا يا زوبة؟
- انت رايح البندر، وساييني.
- انت اللي سبتيني. مش انتي اللي حتتجوّزي الجمعة الجاية؟ والآ نسيتي؟
- نسيت؟ شوف الحنة!

الحنة. ويدها. ورجلها. وشفتاها. وعيناها. والذرة. والجميزة. والترعة. لم يكن ينوي عمل شيء. ولم تكن تنوي عمل شيء. كان نصف طفل

ونصف رجل. وكانت نصف طفلة ونصف امرأة. بدأ الطفل يلعب مع الطفلة. ومن غير أن يشعر، بدأ الرجل يلعب مع المرأة. وعندما أفاقا، وجدا على رداء زينب قطرات من دم. ذهبت الى التربة، تغسل الرداء وتبكي. وجلس يرقبها، ويبكي. كانا يعلمان، علم اليقين، أن زوجها عندما يكتشف انها لم تعد عذراء سوف يطلقها، وان أباهما سيقتلها في الليلة نفسها. لم يكن بوسعهما سوى البكاء.

وجاءت الليلة الكبيرة. عبد السميع مع الأولاد والأطفال يشاهد الفرح، ولا يهزج مع الهازجين، ولا يرقص مع الراقصين. وزينب في الداخل، في أعماق الدوار، تنتظر المصير. وتمرّ الساعات متثاقلة. وتسكت الطبول. وتصمت الأناشيد. وتتوقف الطلقات النارية. ويحبس الجمع أنفاسه في انتظار المنديل الأحمر الذي يعلن للعالم بكاراة العروس وشرف عائلتها. وأبو زينب ينتظر مع المعازيم. والسيجارة في فمه تسلم مكانها لسيجارة. فجأة، يشقّ السكون صوت زغرودة منفجرة من أبعد الأغوار. أم زينب! أبو زينب يتأمل المنديل الأحمر الذي جاء طائراً على أيدي النسوة، وعلى وجهه ابتسامة فخر عريضة. وترتفع الأصوات من كل مكان:

- مبروك يا عمدة.

- ألف مبروك يا حضرة العمدة.

- أصيلة بنت أصيل.

تدوي الطلقات النارية من جديد. ويغمى على عبد السميع.

* * *

ينظر فؤاد الى عبد الرؤوف بخبث ويقول:

- قصة غريبة يا رؤوف. غريبة جداً.

- ما وجه الغرابة؟

- فتاة متجددة العذرية!

- لا تكن قاسياً.

- أليست هذه هي الحقيقة؟

- لا. هذه هي القصة.

- ماذا سميتها؟